أدب السلف

في التعامل مع الناس

تأليف

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

تقديم

د/ ياسر بن حسين برهامي

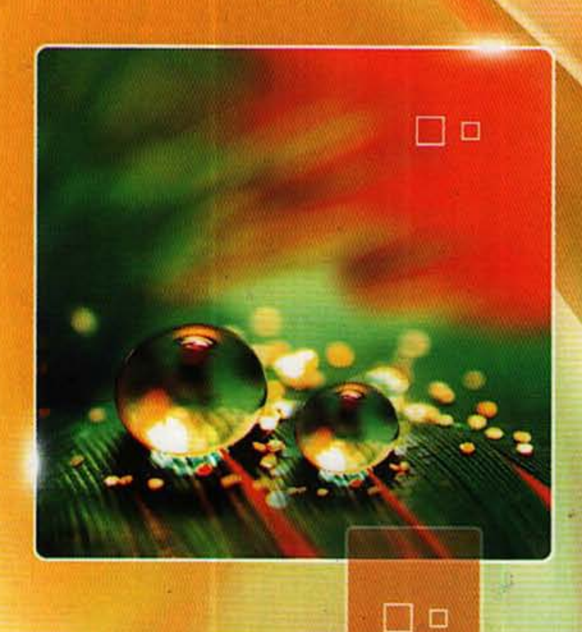
من أئمة الدعوة السلفية بالثغر السكندري

أحمد بن عبد العزيز الحداد

كبير المفتين بدائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

عمر بن عبد العزيز بن حميد القاسمي

مدير مكتب وزارة العدل والأوقاف برأس الخيمة



دار الخلفاء الراشدين

الجزء الأول

أدب السلف

في التعامل مع الناس

تأليف

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد المجيد فتح الله

تقديم

د/ ياسر بن حسين برهامي

من أئمة الدعوة السلفية بالثغر السكندري

عمر بن عبد العزيز بن حميد القاسمي

مدير مكتب وزارة العدل والأوقاف برأس الخيمة

أحمد بن عبد العزيز الحداد

كبير المفتين بدائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

توزيع

دار الخلفاء الراشدين

الإسكندرية أبو سليمان ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين

٠١٠٦٧١٤٧٦٨ - ٠١٠٥٠١٣١٥١

دار الفتح الإسلامي

الإسكندرية مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي

٠١٢٥٨٣٤٥٧٤

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م

أدب السلف في التعامل مع الناس

تأليف

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

عدد الصفحات: ٢٣٢ صفحة

المقاس: ١٧ × ٢٤

رقم الإيداع: ٢٤٢٢٨/٢٠٠٦



الإدارة: ٠١٠٥٠١٣١٥١ المبيعات: ٠١٢٠١٥٢٩٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله بالسلوك والتعامل مع الناس أعظم أثرًا من مجرد دعوتهم باللسان، بل إن استدلال خديجة رضي الله عنها على أن الله عز وجل لا يخزي نبيه صلى الله عليه وسلم بأنه يقري الضيف ويحمل الكل ويكسب المعدوم ويعين على نوائب الحق. فمكارم الأخلاق واستعمال الأدب في التعامل مع الناس من أعظم الأسباب في نجاح الدعوة وقد فطر الله العباد على قبول الدعوة من أجلها.

وهذا البحث «أدب السلف في التعامل مع الناس»، الذي أعده الأخ الكريم رضا عبد الحميد فتح الله قد جمع فيه جملة من هذه الآداب التي تعامل بها سلفنا الصالح مع الناس، قلَّ العاملون بها وكثر المحتاجون إليها، نسأل الله أن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره والحمد لله رب العالمين.

كتبه

د/ ياسر بن حسين برهامي

عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ للهِ وليِّ التوفيقِ، الداعي إلى اتباعِ أقوم طريق، والسيرِ في نهجِ خيرِ رفيق، والصلاةُ والسلامُ على من كمَّله الله تعالى إنسانًا، وجعل بعثته امتنانًا، وشريعته برهانًا، سيدِنا محمدٍ ﷺ الذي بعثه الله تعالى مُزكّيًا ومعلّمًا، القائل: «ما نحل والدٌ ولدَه أفضلَ من أدبٍ حسن» كما أخرجه أحمد والترمذي من حديث سعيد بن العاص رضي الله عنه، وبعدُ:

فإنَ الإسلامَ دينُ الأدبِ والمروءةِ، ودينُ الأخلاقِ والفضائلِ، ومكارمِ الأمورِ وعليائِها، من أحبه الله شَّرفه به دينًا، وهذَّبه به سلوكًا، ولا خير أفضل من ذلك كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥].

والمعنى: لا أحسن منه، فإنه قد جمع المحاسن كلها بإسلامه وإحسانه، واتباع هدي خليله إبراهيم، الذي تمثله المصطفى ﷺ كما قال الله تعالى له: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣]، فلذلك كان ﷺ الأسوة الحسنة التي جمع الله فيها ما تفرق في كافة أنبيائه ورسله حتى قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] ولم يقل مثل ذلك في أحد من أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام أجمعين، ولذلك كان يعبر عن بعثته بقوله: «بعثتُ لأتمِّمَ صالحَ الأخلاق» كما أخرجه مالك وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وجعل خيرية أمته في سلوك منهجه واقتفاء أثره، كما قال عليه الصلاة والسلام: «خيارُكم أحسنُكم أخلاقًا الموطَّؤن أكنافًا» كما أخرجه الطبراني في الصغير والأوسط من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

فهذه الخيرية الحقيقية التي يسبق بها المرء غيره، يمثلها الأدب الإسلامي الجم، الذي هو جوهر الأخلاق، بل هو أحد ركائز الدين الأساسية، كما دل على ذلك حديث جبريل عليه السلام في قصة سؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان، فإنه لم يسأل حتى تمثل الأدب الجم بأن جلس بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع يديه على فخذيه، ثم سأل أسئلته المشهورة، وبعد ذلك قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: «هذا جبريلُ أتاكم يعلمُكم أمرَ دينكم» كما أخرجه البخاري ومسلم وغيره من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا ما فهمه السلف الصالح رحمهم الله تعالى، فقد قال عبد الله بن المبارك -رحمه الله تعالى-: «نحنُ إلى قليلٍ من الأدب أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم. والسر في ذلك أن الأدب يأتي بالعلم، فإنه يحمل صاحبه على التواضع للعلماء فتعظم استفادته منهم، كما يحمله على الأدب مع الله تعالى ورسوله، وتلك حقيقة التقوى التي هي مفتاح العلوم، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢] وهذا الذي جعل أشج عبد القيس رضي الله عنه، أحسن وأفضل قومه الذين ابتدروا النبي صلى الله عليه وسلم محبة له وشغفًا به، لكن الأشج لما استعمل كمالَ الأدب في التهيؤ للقائه صلى الله عليه وسلم، وحسنَ السؤال، كان أحبَّ إلى الله تعالى ورسوله، فقال له عليه الصلاة والسلام: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة» كما أخرجه مسلم وغيره من حديث ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما-، وهو الأمر الذي استحق به المتأدبون مع الله تعالى ورسوله الثناء الجميل في الذكر الحكيم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣] في مقابل الذين لم يتأدبوا فاستحقوا الذم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات:٤] ولا عَجَب في أن يكون حال المتأدبين مع الله تعالى ورسوله بتلك المثابة، فقد قال يحيى بن معاذ رحمه الله:

«من تأدب بآداب الله صار من أهل محبة الله»، وقال الدقاق: «العبد يصل بطاعة الله تعالى إلى الجنة ويصل بأدبه في طاعته إلى الله تعالى».

فإن لم يتأدب بآداب الله تعالى وآداب رسوله فلا ريب أن يكون محرومًا بل مذمومًا، كما ذُمَّ أولئك الأعراب، في محكم الكتاب، ولذلك قال يحيى الدقاق: تعالى: تَرْكُ الأدب يوجب الطرد، فمن أساء الأدبَ على البساط رُدَّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب.

وقال ذو النون المصري -رحمه الله تعالى-: «إذا خرج المريد عن استعمال الأدب فإنه يرجع من حيث جاء».

وهذا هو حال كثير من الناس اليوم، الذين لم يحفظوا للعلم رسومه، ولا للإسلام خصائصه، ومن أجَلِّ خصائصه العظمى الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، والأدب مع العلماء والأدب مع الآباء والأمهات والكبار والصغار ومن نعرف ومن لا نعرف.

وسبب ذلك انفكاك الخلف عن السلف، ببعدهم عن الاطلاع على أحوالهم وأخلاقهم وسِيَرِهم التي كانت صفحة بيضاء في جبين الإسلام.

ومع محبة الناس قاطبة للسلف الصالح، إلا أنه قل من يُعْنى بأخبارهم التي تذكي القلوب وتحييها، وتشحذ الهمم وتصقلها وتبعث الأمل في أن يكون خلف الأمة كماضيها، بل تتنزل بذكرهم الرحمات كما قالوا:

أَطْرِبْ بذِكْرِ الصالحين وغنِّ لي   فبذكرهم تتنـزلُ الرحمـاتُ

وقالوا أيضًا:

أعِدْ ذِكْرَ نَعمانٍ أعِدْ إن ذِكْرَه   من الطِيْبِ ما كرَّرْتَـهُ يتضـوَّعُ

ومن هؤلاء القليل الذين بارك الله في أوقاتهم وأقلامهم فضيلة الشيخ رضا بن عبد الحميد بن فتح الله، الذي أجاد في ذكر رواياتهم وأخبارهم وحكاياتهم الصالحة النافعة وأفاد، فقد أسهر ليله في بساتين حكايات الصالحين، وأخرج منها باقة عطرة تنضح عبيرًا ذكيًا، وعودًا هنديًا، جمعها في هذا السفر القيم الذي سماه: «أدب السلف في التعامل مع الناس».

وقد تقلبت في أفنانه الوارفة، وتذوقت قطافه اليانعة، وشممت منه ريحًا يهز المشاعر، ويُجدد الإيمان، ولا ريب، فقد قال الله تعالى لنبيه وصفيه الذي أدبه فأحسن تأديبه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠] بل قال له: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وذلك لأن في سرد أخبار هؤلاء الأخيار عبرة لأولي الأبصار، فإن هذه السير كالمرآة لمعرفة عيوب النفس، حيث ينظر المرء من خلالها آفات نفسه فيزكيها بالتخلي عن الرذائل، والتحلي بالفضائل، وهذه هي حقيقة الأدب كما قال عبد الله ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقد أكثر الناس القول في الأدب ونحن نقول: إنه معرفة النفس ورعوناتها، وتجنب تلك الرعونات».

فجمع لنا الشيخ رضا -حفظه الله تعالى- هذه الآداب بأسلوب سهل معاصر، وتقسيمات متعددة نافعة، فأفاد وأجاد، ولعل بها يحصل الإسعاد، لمن يقرؤها مستفيدًا، وللخير مريدًا، فأجزل الله له المثوبة، وأصلح له الحال والمآل بمنه وكرمه.

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه الفقير إلى عفو الله

أحمد بن عبد العزيز الحداد

كبير المفتين بدائرة الشئون الإسلامية والعمل الخيري بدبي

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل لـه، ومن يضلل فلا هـادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠، ٧١].

أما بعد:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «أربعُ خلال إذا أعطيتهن فلا يضرك ما عزل عنك من الدنيا: حُسن خليقة، وعفاف طعمة، وصدقُ حديث، وحفظ أمانة»[1].

وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللَّهُمَّ أحسنتَ خَلْقي، فأحسِن خُلُقي»[2].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٨) في باب: «حسن الخلق إذا فقهوا»، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٣٣).

(٢) رواه أحمد بإسنادٍ صحيح (٢٣٨٧١)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ١١٣/ ٧٤).

لقد ضرب سلفنا الصالح أروع الأمثلة وأرقاها في تحقيق الأدب الحسن والسمت الصالح، فكانوا قدواتٍ يُحتذى بها، ومصابيحَ يُستضاءُ بها، ومعينًا صافيةً يُنْهَلُ منها، ذلك امتثالًا وتأكيدًا للمعاني السامية الرفيعة التي دعا إليها القرآن العظيم، والمثل العليا التي تمتها السنة النبوية على نبيها أفضل الصلاة والتسليم.

ولقد عشت مع سيرتهم العطرة أجمل الساعات وأبركها عندما طالعت هذا المؤلف القيم الذي كتبه الشيخ رضا عبد الحميد -وفقه الله-، فسعدت بها سطره فضيلته، حيث أجاد فيه وأفاد، ورتب عناوينه في أحسن إعداد، فجاء سفرًا متينًا يبهج الفؤاد، وتستلذ بمطالعته العباد، ولا ترومه النقاد، فبورك في جهده ورحمنا الله وإياه يوم المعاد.

إنه لحري بنا أن نطالع سير السلف الصالح، ونسعى جاهدين في التأسي بسمتهم وأدبهم، وكم نحن بحاجة في هذا الزمان إلى فقه أدب، وحسن تعامل مع الناس لاسيما أهل العلم منهم، فقد أُثِّر عن العلماء الربانيين قولهم: «الأدب خير ميراث»، وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مجالس القوم أحب إلي من كثير من الفقه».

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

صُنِ النفسَ واحملْها على ما يَزِينُها ... تَعِشْ سالمًا والقولُ فيك جميلُ
فلا تُرِيَنَّ الناسَ إلا تَجَمُّلا ... إنْ نَابَكَ دَهْرٌ او جَفَاك خليلُ

وقال فضيلة الشيخ محمد بن الدناة الشنقيطي -حفظه الله-:

وارْعَ حقوقَ اللهِ غيرَ ناسِ ... لما عليكَ منْ حقوقِ الناسِ
فلا تُضَيِّعَنْ حقوقَهم ولا ... تكنْ بها عنْ حقِّه مشتغلا
فأَغِثِ الملهوفَ وانصرْ منْ ظُلِمِ ... وأَكْرِمِ الجارَ وصِلْ ذوي الرحم
وأطعمِ اليتيمَ والمسكينا ... وساعدِ المُعْسِرَ والمَدِينا
وأوصلِ النفعَ لكلِّ جارِ ... ولو رأيتَهُ منَ الفجارِ

ولكــنِ احــذرْ أن يقــودَكَ هــواك لبيــعِ أخــراك بــدنيا مَــنْ ســواك
واعتــزِلَنْ مجــالسَ الجمهــورِ وابْعُــد عــنِ الفــتنِ والــشرورِ
فاجتنــبِ الغــلَّ الــدفينَ والحــسد ولا تَــرُمْ مــا عِــشْتَ إيــذاءَ احــدَ

وفي الختام لا يسعني إلا أن أرجو الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب، ويجزي مؤلفه خير الجزاء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كتبه:

عمر بن عبد العزيز بن حميد القاسمي

مدير مكتب وزارة العدل والأوقاف

برأس الخيمة

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم.

أما بعد:

* فإن الأدب عنوان السعادة والفلاح.

وإن الأدب هو مفتاح الخير كله ويكادُ الأدب أن يكون الدين كله، ومن حرم الأدب حرم الخير كله، ومن تهاون بالأدب تعرض للشر كله.

قال يوسف بن الحُسين الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بالأدب تَتَفَهَّمُ العلم، وبالعِلْم يصُّح لك العمل، وبالعمل تنالُ الحكمة، وبالحكمة تفهم الزُّهد، وبالزهدِ تتركُ الدنيا، وترغب في الآخرة، وبذلك تنالُ رضى الله تعالى»[(١)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأدبُ المرءِ عُنوان سعادته وفلاحِه، وقلَّةُ أدبه عُنوان شقاوتِه وبَوارِه، فما استُجْلِبَ خيرُ الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا اسْتُجلب حرمانها بمثل قلة الأدب»[(٢)].

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السنن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة»[(٣)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٢٥٠).
(٢) «تهذيب مدارج السالكين» (ص:٤٥٤).
(٣) المرجع نفسه (ص:٤٤٨).

وقال محمد بن إبراهيم أبو عبد الله العبدي البوشنجي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أراد العلم والفقه بغير أدب فقد اقتحم أن يكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم»[(١)].

*** وقد جاء في السُّنَّة النبوية ما يدل على أن الأدب ومكارم الأخلاق مفتاح كل خير بل هي الخير كله، وسبب للنجاة من السوء والخزي.**

قال صلى الله عليه وسلم: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ شَانَهُ، وَلاَ كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلاَّ زَانَهُ»[(٢)].

قال الطيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأشار بهذين إلى أن الأخلاق الرذلة السيئة مفتاح كل شر، بل هي الشر كله، والأخلاق الحسنة مفتاح كل خير بل هي الخير كله»[(٣)].

ولما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها بخبر الوحي، وأنه خائف على نفسه، فقالت له: «أَبْشِر، فوالله! لا يُخْزِيك الله أبدًا، والله! إنك لتصل الرحم، وتصدقُ الحديث، وتحمل الكلَّ -كالإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال- وتكسِبُ المَعْدُومَ -أي تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك، ثم تجود به في وجوه الخير وأبواب المكارم- وتَقْري الضَّيفَ -أي تضيفُه وتكرمُه- وتُعين على نوائب الحق -أي على حوادثه في الخير-».

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء رضي الله عنهم: معنى كلام خديجة رضي الله عنها أنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيك من مكارم الأخلاق، وكرم الشمائل، وذكرت ضروبًا من ذلك، وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء»[(٤)].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٤/ ١٦٨)، و«سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٥٨٦).
(٢) رواه أحمد (١٢٢٧٨)، والترمذي (١٩٧٤)، وابن ماجه (٤١٨٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٠١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٥٥).
(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥٣٨٥).
(٤) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٧٠-١٧٦).

*** وحَسْبُ المؤدبين وأصحاب الأخلاق الحسنة شرفًا ورفعة، أنهم متخلقون بأخلاق الله تعالى.**

ذكر المناوي مكارم الأخلاق الظاهرة، وأفاد أنها تنشأ من مكارم الأخلاق الباطنة، وقال: «فكل خلق من هذه الأخلاق كصدق الحديث، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، وإقراء الضيف، وغيرها مَكرُمَة لمن مُنحها يسعدُ بالواحد منها صاحبها فكيف بمن جمعت له كلها؟ والأخلاق الحسنة كثيرة وكل خلق حسن فهو من أخلاق الله تعالى، والله يحب التخلق بأخلاقه، فكل مَكْرُمة من هذه الأخلاق يُمْنَحُها العبد فهي له شرف ورفعة في الدارين»[1].

*** وقد عدّ العلماء الحاجة إلى الأدب كالحاجة إلى العلم، ومنهم من رحل في طلب الأدب كما يرحل في طلب العلم.**

عن الحجاج بن أرطأة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إن أحدَكم إلى أدبٍ حسنٍ أحوجُ منه إلى خمسين حديثًا».

وعن زكريا العنبري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «علمٌ بلا أدبٍ كنارٍ بلا حطبٍ، وأدبٌ بلا علمٍ كروحٍ بلا جسمٍ».

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال لي مَخْلَدُ بن الحسين: نحنُ إلى كثيرٍ من الأدبِ أحوجُ منا إلى كثيرٍ من الحديث».

وعن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال لي أبي: يا بني! اِيتِ الفقهاءَ والعلماءَ، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإن ذاك أحب إليّ لك من كثيرٍ من الحديث»[2].

(١) «فيض القدير» (٦/ ٣).
(٢) «الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السّامع» (١/ ٨٠، ٨١، ٢٠١).

وعن إبراهيم بن بشار رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «نظر إبراهيم بن أدهم إلى رجل يكلم رجلًا فغضب حتى تكلم بكلام قبيح، قال: فقال له: يا هذا اتق الله، وعليك بالصمت والحلم والكظم. قال: فأمسك. ثم قال له: بلغني أن الأحنف بن قيس قال: كنا نختلف إلى قيس ابن عاصم نتعلم الحلم كما نختلف إلى العلماء لِتَعَلُّمِ العلم، قال: فقال له: لا أعود»(١).

وكان محمد بن عُبَيد الطنّافسي رَحِمَهُ اللَّهُ يقول لأصحاب الحديث: «ألا تكونون مثل عيسى بن يونس؟ كان إذا أقبل إلى الأعمش ومعه الشباب والشيوخ ينظرون إلى هدْيه وسمْتِه»(٢).

وعن مالك بن أنس رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «قال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: كانوا يتعلمون الهَدْي كما يتعلمون العلم، قال: وبعث ابن سيرين رجلًا فنظر كيف هَدْيُ القاسم وحالُهُ»(٣).

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أين تريد؟ قال: إلى البصرة، فقيل له: مَنْ بَقي ؟ فقال: ابنُ عون آخُذُ من أخلاقِهِ: آخذُ من آدابه».

وكان عليُّ بن المدينيِّ: «وغير واحدٍ يحضرون عند يحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئًا إلا أن ينظروا إلى هديه وسمته»(٤).

*** لقد كانوا يجدون أثر الآداب والأخلاق في قلوبهم وعباداتهم.**

عن محمد بن عُبادة المعافري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنَّا عند أبي شُرَيْح عبد الله بن شُرَيْح: فكثرت المسائل، فقال: قد دَرِنَتْ قلوبكم -اتسخت-، فقوموا إلى خالد بن حُمَيْد المهدي، اسْتَقِلُّوا قلوبكم(٥)، وتعلموا هذه الرغائب والرقائق، فإنها تُجَدِّد العبادة، وتورث الزهادة،

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢١٩).
(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٦).
(٣) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٧٩).
(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٥٥).
(٥) اسْتَقَلَّ ، يَسْتقِلُّ ، اسْتِقْلالًا: تفرَّد بالشيء ، وجعله مُلْكَهُ.

وتجر الصَّداقة، وأقلوا المسائل؛ فإنها في غير ما نزل تُقسِّي القلب وتُورث العداوة»[(١)].

* ثم إن مَنْ سَبَر ادب السلف وخُلُقهم -أي: حَرَزَهُ، وتعرَّف عمقه- من كتب الحديث والسير والتراجم والتاريخ والأدب وكان له حسٌّ مُرْهَفٌ، قال: رحم الله السلف لقد كان الواحد منهم بألف في عالم الإنسانية.

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس شيءٌ خيرًا من ألفٍ مثلِهِ إلا الإنسان»[(٢)].

قال المناوي رحمه الله: «يشير صلى الله عليه وسلم إلى أنه قد يبلغ بقوة إيمانه وإيقانه وتكامل أخلاق إسلامه إلى ثبوت في الدين وقيام بمصالح الإسلام والمسلمين بعلم يكسبه وينشره، أو مالٍ يبذله أو شجاعة، يسد بها مسد ألف».

وقد نظمها بعضهم فقال:

والناسُ ألفٌ منهمُ كواحدٍ　　وواحدٌ كالألفِ إن أمرٌ عني[(٣)]

وفي هذا المعنى أنشد الزمخشري رحمه الله:

ولم أرَ أمثالَ الرِّجالِ تفاوتًا　　لدى المَجْدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحدِ

ولما مات خالد بن الوليد رضي الله عنه بالمدينة، خرج عمر رضي الله عنه في جنازته وإذا أمه تندبه، وهي تقول:

أنت خيرٌ من ألفِ ألفٍ من القومِ　　إذا ما كُبَّت وجوهُ الرجالِ

فقال عمر رضي الله عنه: «والله صدقتْ إنْ كان لَكَذلِك»[(٤)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٨٣).

(٢) ينظر «السلسلة الصحيحة» (٢١٨٣).

(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥١٨٩)، والبيت قاله ابن دُرَيْد.

(٤) «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٩٥).

فيا ليت الفيلسوف اليوناني الذي ذكره المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ لما سئل: ما يصنع بمصباحه؟ -وكان يدور به في بياض النهار- فقال الفيلسوف: «أفَتِّش عن إنسان»، ليته رأى أدب سلفنا الصالح ليعلم أن هناك شيئًا اسمه إنسانية.

*** وإن من سَبَر أدب السلف وخلقهم قال: رحم الله السلف، لقد كانوا هُم الناس.**

هم الناس الذين وصفهم أبو مسلم الخولاني رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: «كان الناس ورقًا لا شوك فيه، وإنهم اليوم شوك لا ورق فيه، إنْ ساببتهم سابوك، وإن ناقدتهم ناقدوك، وإن تركتهم لم يتركوك»[1].

وقال أبو نعيم -الفضلُ بن دُكين رَحِمَهُ اللَّهُ-: كثُرَ تعجُّبي من قول عائشة رضي الله عنها:

ذهب الذين يعاشُ في أكنافهم ... وبقيت في خَلفٍ كجلدِ الأجْرَبِ

لكني أقول:

ذهب الناسُ فاستَقلُّوا وصِرْنا ... خَلَفًا في أراذلِ النَّسْنَاسِ
في أناسٍ نَعُدُّهم من عَديد ... فإذا فُتِّشوا فليْسوا بناسِ[2]

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ذهب الناسُ، وبقي النَّسْناسُ». قيل: وما النسناسُ؟ قال: «الذين يتشبهون بالناس وليسوا بالناس»[3].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذهب الناس، وبقي النسناس، وما أَرَاهم بالناس، وإنما غُمسوا في ماء الناس»[4].

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (ص:٢٩٧)، و«حلية الأولياء» (٣/ ١٨٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٥٦)، واستقلوا: أي مَضَوا وارتحلُوا.
(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٤٠٤).
(٤) «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٨٠).

*** وإن من سَبَرَ أدب السلف وخلقهم، قال: رحم الله السلف، لقد كانوا همُ الرجال.**

الرجالُ الذين سُئل عنهم أبو حفص النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ قيل له: منِ الرجال؟ قال: «القائمون مع الله تعالى بوفاء العُهود، قال الله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ﴾». [الأحزاب:٢٣][(١)]

الرجال الذين قال عنهم حمدون بن أحمد القصار رَحِمَهُ اللَّهُ: «من نظر في سير السلف عرف تقصيره، وتخلُّفه عن درجات الرجال»[(٢)]

وقال عبد العزيز بن أبي رواد رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا ذُكرتْ أحوالُ السلف بيننا: افتضحنا كلنا»[(٣)]

الرجال الذين تمناهمُ إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: «أيُّ دين لو كان له رجال»[(٤)]

هـــمُ الرجـــالُ وغَـــبْنٌ ان يقـــالَ لمـــن لم يتـــصِفْ بمعـــاني وَصْـــفِهم رجـــلُ

هم الرجال الذين قال عنهم عبد الله بن عبد الله بن مَعْمَر بن حَزْم الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ليت لنا مثل أخلاق أبائنا مع إسلامنا»[(٥)]

*** ولما بَعُدَ البون -المسافة- بين الخلف والسلف، واختلف الأدب عن الأدب والخُلق عن الخُلق ظن من سَبَرَ أدبهم وأخلاقهم أنها كانت أحلامًا.**

عن عيسى بن إسماعيل رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «حدثنا ابن عنبسة، قال: كانت للناس جِلّة ونابتة، وكانت النابتة تأخذُ عن الجلة، فذهبت الجلة والنابتة، ثم جاء قوم يسمعون تلك الأخلاق كأنها أحلام»[(٦)]

---

(١) «صفة الصفوة» (٤/ ١٠٨).
(٢) المرجع نفسه (٤/ ١٠٩).
(٣) «العوائق» (ص:٤٨).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٢١١).
(٥) «تاريخ دمشق» (٣١/ ٢٢٦).
(٦) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٧٥).

وما ذلك إلا لبعد البَوْنِ الذي قال عنه عمر بن الحارث رَحِمَهُ اللهُ: «كنت متى شئتُ أن أجدَ من يَعِدُ ويُنجز وجدتُه، فقد أعياني من يعدُ ولا ينجز».

وقال: «وكانوا يفعلون ولا يقولون، فصاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون»(١).

والذي قال عنه الحسن بن أبي الحسن رَحِمَهُ اللهُ: «لقد أدركتُ أقوامًا لو رأوا خياركم لقالوا: ما لهم من خَلَاقٍ، ولو رأوا شراركم لقالوا: أما يؤمن هؤلاء بيومِ الحساب؟»(٢).

*** ومما لا شك فيه أن المسلمين السابقين الأولين قد انتفعوا برؤية السلف في زمانهم فاتعظوا بلَحظِهم، وتهذبوا برؤيتهم.**

يقول أحدهم: «كنت إذا أحسست من قلبي قسوة أتيت محمد بن واسع فنظرت إليه نظرة، قال: فكنت إذا رأيت وجهه رأيت وجْهَ ثَكْلى»(٣).

قال: وسمعته يقول: «أخوك من وعظك برؤيته قبل أن يعظك بكلامه»(٤).

وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ: «كنتُ كلما وجدتُ في قلبي قسوةً أتيتُ محمد بن المنكدر، وكان يجتمع عنده الصالحون ليقتبسوا من هديه وصلاحه، فأنظر إليه نظرة فأتَّعِظُ بنفسي أيامًا»(٥).

*** ومن أراد الانتفاع بأدب السلف وأخلاقهم ممن جاء بعدهم، وبَعُدَ البون بينه وبينهم، فليطالع سيرهم، وليقرأ كتبهم، ليعيشَ معهم بروحه ويراهم بأذنه.**

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٣٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٧).
(٣) الثاكِل والثُكلان: الذي فقد ابنًا عزيزًا، فشعر بالحزن الشديد، والمؤنث ثاكِلَة وثَكْلَى، والجمع ثكالى.
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣١).
(٥) «رسالة المسترشدين» «حاشية أبي غدة» (ص:١٠٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليكم بملاحظة سير القوم ومطالعة تصانيفهم، وأخبارهم، والاستكثارُ من مطالعة كتبهم رؤيةٌ لهم»، كما قال:

فاتني ان ارى الديارَ بطَرْفي فلعلي أرى الديارَ بسمعي [(١)]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: «وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه، لا لاقتباس علمه، وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سببًا لرقة قلبك» [(٢)].

فيا أيها السلف المؤدبون المهذبون:

جسمي معي غيرَ ان الرُوحَ عندكم فالجسمُ في غربة والروحُ في وطنِ

فليعجبِ الناسُ مني ان لي بدنا لا روحَ فيه ولي روحٌ بلا بدنِ [(٣)]

* **وها أنا ذا قد جمعت جملا من أدب السلف في التعامل مع الناس في مؤلف مفرد لعله أن يكون لَحْمَةً [(٤)] بيننا وبينهم، لعل انفسنا ان تتآلف مع انفسهم، وأرواحنا تتلاقى على فضائلهم.**

قال الرافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإنه ليس الوعظُ تأليفَ القول للسامع يسمعُه، لكنه تأليفُ النفس لنفس أخرى تراها في كلامها، فيكون هذا الكلام كأنه قرابة بين النفسين، حتى لكأن الدمَ المتجاذبَ يجري فيه ويدورُ في ألفاظه!!» [(٥)].

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣٧٤).
(٢) «صيد الخاطر» (ص:١٦٥).
(٣) «البداية والنهاية» (١٣/ ١٤٧) من قول: أبي الفتوح: نصر بن علي البغدادي.
(٤) اللُّحْمَةُ: من الثوب خيوطُ النسيج العرضيّة يُلحم بها ، واللُّحْمَةُ: القرابة ، ومنه قول النبي ﷺ: «الولاءُ لُحْمَةٌ كلحْمَةِ النسَّب» أي: قرابةٌ كقرابة النَّسب، وكلا المعنيين مقصود عندي.
(٥) «وحي القلم» (٢/ ١٦٣).

*** وقد جاء في السُّنَّة النبوية وكلام السلف ما يدل على أن من سلك طريق قوم نزل منازلهم.**

فقد أخرج أبو نعيم في «أخبار أصبهان» وابن عساكر في «التاريخ»، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه مرفوعًا: «كما لا يُجْتَنى من الشَّوك العَنبُ؛ كذلك لا يَنْزل الفُجَّارُ منازلَ الأبرار، وهما طريقان فأيها أخذتم أدركتم»[1].

قال المناوي رحمه الله: «فمن سلك طريق أهل الله ورد عليهم فصار من السعداء، ومن سلك طريق الفجار ورد عليهم وكان منهم فصار من الأشقياء. والإنسان مع من أحب، ومن تشبه بقوم فهو منهم، والعبد يبعث على ما مات عليه»[2].

وقيل للحسن رحمه الله: «سبقنا القومُ على خيلٍ دُهْمٍ، ونحنُ على حُمُرٍ مُعَقَّرةٍ. فقال: إن كنت على طريقهم، فما أسرع اللَّحاق بهم»[3].

وتذكر حلاوة الوصال، يهُن عليك مُرُّ المجاهدة.

وما أنت بالمشتاق إن قلت بيْنَنا ... طوالُ الليالي أوْ بعيدُ المفاوِز

أبي عبد الرحمن رضا بن عبد الحميد فتح الله

مصر - البحيرة - كوم حمادة - الزعفراني

من إمارة رأس الخيمة

غرة ذي القعدة ١٤٢٦هـ

---

(١) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٤٦).

(٢) «فيض القدير» (٩/ ٤٥٢٩).

(٣) «الفوائد» (ص:١١١).

لا يطمعون في رضا الناس، ويؤثرون رضا الله تعالى

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الناسُ غايةٌ لا تُدْرَكُ، وليس لي إلى السلامة من سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه»[(١)]

وقال رجلٌ للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ قومًا يجالسونك؛ ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلًا، فقال: هَوِّنْ عليك يا هذا، فإني أطمعت نفسي في الجنان فطمعت، وأطمعتها في النجاة من النار فطمعت، وأطمعتها في السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلًا، فإن الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم، فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم»[(٢)]

وقال موسى صلى الله عليه وسلم: «يا ربِّ إن الناس يقولون فيّ ما ليس فيّ. فأوحى الله إليه: «يا موسى لم أجعل ذلك لنفسي فكيف أجعله لك؟»»[(٣)]

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «منذُ عرفتُ الناسَ لم أفرحْ بمدحهم ولم أكره مذمتهم، قيل: ولِمَ ذلك ؟ قال: حامدُهم مُفْرِطٌ، وذامُّهم مُفَرِّطٌ»[(٤)]

فلما علم الصالحون ذلك آثروا رضا الله تعالى على رضا الناس.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما أحدٌ إلا وله مُحِبٌّ ومُبْغِضٌ، فإن كان لا بد من ذلك فليكنِ المرءُ مع أهل طاعة الله عز وجل»[(٥)]

وقال الشاعر:

اعملْ لنفسِك صالحًا لا تحتفل ... بظهورِ قيلٍ في الأنامِ وقالِ
فالخلقُ لا يُرجى اجتماعُ قلوبهم ... لا بد من مثنٍ عليك وقالِ

---

(١) «حلية الأولياء» (٩/ ١٣٠).
(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٣١٨).
(٣) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٨).
(٤) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٣٠٧).
(٥) «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٤).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا مع أنَّ رضا الخلق لا مقدورٌ ولا مأمورٌ، ولا مأثور، فهو مستحيلٌ بل لابد من سُخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك، وتفوز برضا الله عنك أحبُّ إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غيرُ راضٍ، فإذا كان سُخْطُهم لابدَّ منه -على التقديرين- فآثِر سُخْطَهم الذي يُنالُ به رضا الله، فإن هم رضُوا عنك بعد هذا، وإلا فأهون شيءٍ رضا من لا ينفعك رضاه ولا يَضرُّك سُخْطَه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك»[1].

وكتبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سلامٌ عليك، أما بعد، فإني سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من التمس رضا الله بِسَخطِ الناس كفاهُ الله مُؤْنَةَ الناس، ومَنِ التمس رضا الناسِ بسَخطِ الله، وكله الله إلى الناس»، والسلام عليك»[2].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «العاقل من يحفظ جانب الله عَزَّ وَجَلَّ وإن غضب الخلق، وكل من يحفظ جانب المخلوقين ويضيع حق الخالق يقلب الله قلب الذي قصد أن يرضيه فيسخطه عليه».

فينبغي أن يحسن القصد لطاعة الخالق، وإن سخط المخلوق، فإنه يعود صاغرًا، ولا يسخط الخالق، فإنه يسخط المخلوق، فيفوت الحظان جميعًا[3].

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢/ ٦٤٩).

(٢) رواه الترمذي(٢٤١٤)، وصححه الألباني.

(٣) «صيد الخاطر» (ص:٣٤٣).

يقبلون الحق ممن جاء به ولا يلتفتون إلى قائله

فهذا معاذ بن جبل ﷺ يوصي يزيد بن عُمَيْرَةَ -وكان من أصحاب معاذ- فيقول له: «وتَلَقَّ الحقَّ إذا سَمِعْتَهُ، فإن على الحق نورًا»(١).

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ: «ومن جاءك بالحق فاقبل منه، وإن كان بعيدًا بغيضًا، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيبًا قريبًا»(٢).

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ ثلة من الأئمة -كسهل بن عبد الله التَّسْتُري، وأبي طالب المكي، والجنيد بن محمد، وأبي عثمان النيسابوري، ويحيى بن معاذ الرازي، وأبي سليمان الداراني، وعون بن عبد الله، وغيرهم-، ثم قال: «والصادق الزكيُّ يأخذ من كلٍّ منهم ما عنده من الحق، فيستعين به على مطلبه، ولا يرد ما يجده عنده من الحق لتقصيره في الحق الآخر، ويُهْدِرهُ به، فالكمال المطلق لله ربِّ العالمين وما من العباد إلا له مقامٌ معلوم»(٣).

وذكر الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ في «أضواء البيان»: «أننا ننظر إلى ذات القول لا إلى قائله، لأن كل كلام فيه مقبول ومردود، إلا كلامه صلى الله عليه وسلم.

ومعلومٌ أن الحق حق ولو كان قائله حقيرًا، ألا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلامًا حقًا، صدَّقها الله فيه، ولم يكن كفرها مانعًا من تصديقها في الحق الذي قالته، وذلك في قولها فيما ذكر الله عنها: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً﴾ [النمل:٣٤] فقد قال تعالى مصدقًا لها في قولها: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل:٣٤].

---

(١) رواه أبو داود (٤٦١١)، وصححه الألباني.
(٢) «الفوائد» (ص:١٨٧).
(٣) «تهذيب مدارج السالكين» (١/ ١٥١).

وقد قال الشاعر:

لا تَحْقِرَنَّ الرأيَ وهو مُوافِقٌ حُكْمَ الصوابِ إذا أتى من نَاقِصِ
فالدر وهو أعز شيء يقتنى ما حطَّ قيمتَه هوانُ القانصِ[(١)]

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ عند حديث «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها»[(٢)]: ««ضالة المؤمن» أي: مَطْلُوبُهُ فلا يزال يطلبها كما يتطلب الرجل ضالته، «فحيث وجدها فهو أحق بها» أي: بالعمل بها واتباعها».

يعني أن كلمة الحكمة ربما نطق بها من ليس لها بأهل ثم رجعت إلى أهلها فهو أحق بها كما أن صاحب الضالة لا ينظر إلى خساسة من وجدها عنده، خطب الحجاج فقال: «إن الله أمرنا بطلب الآخرة وكفانا مؤنة الدنيا فليته كفانا مؤنة الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا»، فقال الحسن: «خذوها من فاسق الحكمة ضالة المؤمن».

ووُجِدَ رجل يكتب عن مخنث شيئًا فعوتب فقال: «الجوهرة النفيسة لا يشينها سخافة غائصها ودناءة بائعها»، ثم قال:

«تنبيه: قال العارف ابن العربي: لا يحجبنك أيها الناظر في العلم النبوي الموروث إذا وقعت على مسألة من مسائله ذكرها فيلسوف أو متكلم أن تنقلها وتعمل بها لكون قائلها لا دين له، فإن هذا قول من لا تحصيل له، إذ الفيلسوف ليس كل علمه باطلًا، فإذا وجدنا شرعنا لا يأباها قبلناها سيما فيما وصفوه من الحكم، والتبرئ من الشهوات، ومكائد النفوس، وما تنطوي عليه من سوء الضمائر»[(٣)]

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ بسنده عن محمد بن عوف الحمصي قال: «سألت أحمد بن حنبل عن مروان الطَّاطَري، فقال: صلب الحديث، فقلت له: إنه مرجئ، وإنه

---

(١) «أضواء البيان» (١/ ٧).
(٢) «ضعيف الجامع» (٤٣٠١، ٤٣٠٢).
(٣) «فيض القدير» (٥/ ٦٥).

يضرب دُحيمًا ومحمود بن خالد، والوليد بن عتبة ويؤذيهم، فجعلت أضع من قَدْره وهو يرفع من قدره، وقال: صاحب حديث، عنده حديث، أشتهي أن أسمعه منه»(١).

وعن أبي عبد الله الثقفي، عن عمه، قال: سمعت الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لقد وقذتني كلمة سمعتها من الحجَّاج بن يوسف، قلت: وإنّ كلام الحجاج ليوقذك؟ قال: نعم، سمعته يقول على هذه الأعواد: إنَّ امرءًا ذهبت ساعةٌ من عُمره لغيرِ ما خُلِق له، لحريٌّ أن تطول عليها حسرتُه يوم القيامة»(٢).

وفي «تاريخ دمشق» في ترجمة حبيب بن أوس بن الحارث «أبي تمام الطائي الشاعر» عن عمرو بن أبي الحسن الطوسي قال: «بعثني أبي إلى ابن الأعرابي لأقرأ عليه أشعارًا، وكنت معجبًا بشعر أبي تمام، فقرأت عليه من أشعار هُذيل، ثم قرأت عليه أرجوزة لأبي تمام على أنها لبعض شعراء هُذيل:

وعاذل عذلته في عذله فظنّ أني جاهل لجهله

حتى أتممتها، فقال: اكتب لي هذه، فكتبتها ثم قلت له: أحَسَنةٌ هي؟ قال: ما سمعت بأحسن منها، قلت: لأنها لأبي تمام؟ قال: حرق حرق».

قال أبو العباس عبد الله بن المعتز: «وهذا الفعل من العلماء مفرط القبح؛ لأنه يجب أن لا يدفع إحسان محسن، عدوًا كان أو صديقًا، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع، فإنه يروى عن علي رضي الله عنه أنه قال: «الحكمة ضالة المؤمن، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك»، ويروى عن بُزرْجِمَهْر أنه قال: «أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى انتهيت إلى الكلب، والهر والخنزير والغراب، فقيل له: وما أخذت من الكلب؟ قال: إلفه لأهله، وذبّه عن حريمه، قيل له: فمن الغراب؟ قال: شدة حذره، قيل له فمن الخنزير؟ قال: بكوره في إرادته، قيل: فمن الهر؟ قال: حسن رفقها عند المسألة وليس صياحها»(٣).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٠/ ٢٦٥).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ٤٤).
(٣) «تاريخ دمشق» (١٣/ ١٦).

وساق ابن عبد البر بسنده عن إبراهيم بن الأشعث قال: «سألت فضيل بن عياض عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه»(١).

وقال حذيفة بن قتادة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال عبد الله بن خبيق: قال لي حذيفة: «إنك ربما أصبت الحكمة فوق مزبلة، فإذا أصبتها فخذها»(٢).

يرجعون للحق ويخضعون له

كما هو شأن المؤمنين الصالحين، فإنهم إذا عرفوا الحق سارعوا إليه وإذا كشفوا الباطل في نفوسهم تنكروا له وعدلوا عنه(٣).

والرجوع إلى الحق بعد معرفته واستبانة أمره من الظواهر السلوكية لخلق حب الحق وإيثاره.

والرجوع إلى الحق فضيلة من الفضائل التي دعا إليها الإسلام، وحث على الالتزام بها، وعمل على تربية المسلمين عليها، لذلك فهو من الفضائل التي يتحلى بها المؤمنون.

والرجوع إلى الحق فضيلة خلقية راقية توجد عند أصحاب الفطر العالية من الناس، لأنهم بفطرهم العالية لا يجدون في نفوسهم ما يصرفهم عن الاستجابة للحق والرجوع إليه، فلا أنانية تصرفهم، ولا عصبية تصدهم، ولا عزة آثمة تحجبهم عن رؤية الحق، وأما الأهواء والنوازع النفسية فإنهم يستطيعون أن يجدوا سبيلًا إلى مداراتها في ظل الاعتراف بالحق والرجوع إليه(٤).

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠٣).
(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ٢٦٩)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ٩٩٨).
(٣) «تحقيق رسالة المسترشدين» لأبي غدة (ص:١٠٨).
(٤) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (١/ ٦٧٣).

قال أبو غدة رَحِمَهُ اللهُ: «حكى أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٦)، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب» (٧/ ٧) في ترجمة عبيد الله بن الحسن العنبري المتوفى سنة ١٦٨هـ أحد سادات أهل البصرة وفقهائها وعلمائها وكان قاضيها: قال عبد الرحمن بن مَهدي تلميذُه: كُنا في جنازة فسألته عن مسألة فَغلِطَ فيها، فقلت له -وأنا يومئذ حَدَث-: أصلحك الله، ليس هكذا، القول فيها كذا وكذا، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال: صدقت يا غلام، إذًا أرجعُ إلى قولك وأنا صاغر؛ لأن أكون ذنبًا في الحق أحبُّ إليّ من أن أكون رأسًا في الباطل»(١).

وعن جعفر بن محمد، قال: «إن القلبَ لا يزال جائلًا حتى يسكن، ولن يسكن إلا إلى الحق»(٢).

وأخرج ابن عساكر عن عبد الله بن الصالح قال: «كتب المنصور -الخليفة العباسي- إلى سَوَّار بن عبد الله قاضي البصرة: انظر الأرضَ التي تخاصَمَ فيها فلان القائد، وفلان التاجر فادفعها إلى القائد، فكتب إليه سوَّار: إن البينة قد قامت عندي أنها للتاجر، فلست أخرجها من يده إلا ببينة، فكتب إليه المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القائد، فكتب إليه سَوَّار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد التاجر إلا بحق، فلما جاءه الكتاب، قال: ملأتها والله عدلًا، وصار قضاتي تردني إلى الحق»(٣).

ومن روائع رجوع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الحق ما جاء في أخباره أنه رأى ذات يوم وهو خليفة للمسلمين، أن يصدر أمرًا بتحديد المهور ليمنع المغالاة فيها، ويسهل أمر الزواج، ويخفف من أعباء تأسيس الأسرة، حتى يقبل الشباب على الزواج، وتنحل بذلك مشكلات اجتماعية ناجمة عن عَضْلِ البنات بسبب اشتراط المهور الغالية، فخطب في المسلمين ووجه للناس أمرًا بما رآه، وكان له فيه وجه من الاجتهاد سديد، فقامت امرأة،

---

(١) «رسالة المسترشدين» (ص:١٠٨).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ٧٤).
(٣) «تاريخ الخلفاء» (ص:٣٠٧-٣٠٨).

فقالت له: ليس ذلك لك يا عمر، إن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]، فقال عمر: «امرأة خاصَمَتْ عمر فَخَصَمَتْهُ». وفي رواية بلفظ: «امرأة أصاب ورجل أخطأ».

ولولا أن ابن الخطاب رجّاع بفطرته إلى الحق الذي ينكشف له، لوجد تخريجات فقهيه تبرر ما كان قد ذهب إليه، ولكنه لم يفعل ولم يستكبر عن إعلان رجوعه إلى ما ظهر له من حق، ولم يجد في إعلانه خطأه على رؤوس الأشهاد أيّ حرج أو ضيق في نفسه[(١)].

وبينما القاسم بن معن يقضي في دار بالكوفة بين الناس إذ أقبل الأمير وإخوته -يعني: موسى بن عيسى-، قال: «ما لَه ؟ قالوا: يخاصم إخوته؟ قال: وله رفعة! نادِ مَنْ لا حاجة له حتى إذا لم يبق منهم أحدٌ، قال: أَدْخِل الأمير وإخوته، قال: فدخل موسى يخطر حتى جلس إلى جانبه، قال: لا مع خصمائك، يا غلام ساوِ بين ركبهم، وأجلسهم بين يديه، قال موسى: ما غاظني أحد غيظه، ثم علمت أنه إنما أراد وجه الله فأجبته»[(٢)].

وقال جعفر بن عبد الواحد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذاكَرْت المهتدي بالله -الخليفة الصالح: محمد ابن الواثق بن المعتصم- بشيء، فقلت له: كان أحمد بن حنبل يقول به، ولكنه كان يُخَالفُ -يشير إلى مَنْ مضى من آبائه- فقال: رحم الله أحمد بن حنبل! والله لو جاز لي أن أتبرأ من أبي لتبرأت منه، ثم قال لي: تكلم بالحق وقل به، فإن الرجل ليتكلَّمُ بالحق فينبل في عيني»[(٣)].

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن الحارث بن سويد قال: «كان المقداد بن الأسود في سرية فحصرهم العدو، فعزم الأمير أن لا يحشر أحد دابتهُ -لعل معناها: أن لا يخرجها- لم تبلغه العزيمة، فضربه، فرجع الرجل وهو يقول: ما رأيت ما لقيت قط، فمر عليه المقداد

---

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (١/ ٦٧٧)، وقال الشوكاني في «نيل الأوطار» (٦/ ١٧٩): «أخرجه عبد الرزاق عن عمر، وأخرجه أبو يعلى مطولًا».
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٤/ ١٤٥).
(٣) «تاريخ الخلفاء» (ص: ٤٠٩).

فقال: ما شأنك؟ وذكر له قصته، فتقلد السيف وانطلق معه حتى انتهى إلى الأمير، فقال: أقده من نفسك، فأقاده فعفى الرجل، فرجع المقداد وهو يقول: لأموتن والإسلام عزيز»[(١)].

ينصفون مخالفيهم ولو كانوا مبغوضين مشنوئين

قال السَّمعاني: «سألت أبا سعدٍ البغدادي عن أبي منصور بن شَكْرويه، فقال أشعريٌّ، لا يسلم علينا، ولا نُسلِّم عليه، ولكنه كان صحيح السماع»[(٢)].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة حَرِيز بن عثمان الرَّحِبي الحمصي: «كان متقنًا ثبتًا لكنه مبتدع»[(٣)].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وقد ذكر إسحاقَ بن راهَوَيه: «لم يَعْبُرِ الجَسْرَ إلى خراسان مثلُ إسحاق، وإن كان يُخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يخالف بعضهم بعضًا»[(٤)].

وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ ترجمة بشر المريسي -ونقل عن بعض أهل العلم تكفيره-، ثم قال: «ومَنْ كُفِّر ببدعةٍ وإن جَلَّت، ليس هو مثلَ الكافِرِ الأصليِّ، ولا اليهوديِّ والمجوسيِّ، أبى الله أن يجعلَ مَن آمن بالله ورسوله واليوم الآخر وصامَ وصلَّى وحجَّ وزكّى، وإن ارتكب العظائم وضلّ وابتَدع، كمن عاند الرسولَ وعبدَ الوثَنَ، ونبذ الشرائع وكفر، ولكن نبرأُ إلى الله من البدع وأهلها»[(٥)].

وعن عبد الله بن محمد الوراق رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنت في مجلس أحمد بن حنبل فقال: من أين أقبلتم؟ قلنا: من مجلس أبي كريب، فقال: اكتُبوا عنه فإنَّه شيخٌ صالح، فقلنا: إنه يطعنُ عليك، قال: فأيُّ شيءٍ حيلتي، شيخ صالح قد بُلِيَ بي»[(٦)].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٢٣).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٩٤).
(٣) «ميزان الاعتدال».
(٤) «تهذيب الكمال» (٢/ ٣٨١).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٢٠٢).
(٦) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٣١٧).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة أَبَان بن تغلب الكوفي: «شيعي جلد، لكنه صدوق لنا صِدْقُه، وعليه بدعته».

ثم قال بعد أن نقل توثيق الإمام أحمد له، وابن معين، وأبي حاتم: «فلقائل أن يقول: كيف ساغ توثيق مبتدع وحَدُّ الثقةِ العدالةِ والإتقان؟

فكيف يكون عَدْلًا مَنْ هو صاحب بدعة ؟

وجوابُه: أنّ البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلوِّ التشَيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والوَرَعِ والصدق فلو رُدَّ حديث هؤلاء لذهب جملةٌ من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيِّنة.

ثم بدعة كبرى: كالرفض الكامل والغلو فيه، والحَطِّ على أبي بكر وعمرَ رضي الله عنهما، والدعاء إلى ذلك فهذا النوعُ لا يحتجُّ بهم ولا كرامة، وأيضًا فما أستحضرُ الآن في هذا الضرب رجلًا صادقًا ولا مأمونًا بل الكذب شعارُهم، والتقية والنفاق دثارُهم، فكيف يُقْبَل نَقْلُ مَنْ هذا حاله! حاشا وكلا»[١].

يعتبرون الناس بكثرة المحاسن ولا ينسون المحاسن ولا يغطون المعارف

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة محمد بن أحمد بن يحيى العثماني: «غُلاةُ المعتزلة، وغُلاةُ الشيعة، وغلاةُ الحنابلة، وغلاةُ الأشاعرة، وغلاةُ المرجئة، وغلاةُ الجهمية، وغلاةُ الكرّامية، قد ماجت بهم الدنيا، وكثروا، وفيهم أذكياءُ وعُبّادٌ وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد، ونبرأ إلى الله تعالى من الهوى والبدع، ونُحِبُّ السُّنّة وأهلها ونحبُّ العالمَ على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحبُّ ما ابتدعَ فيه بتأويلٍ سائغ، وإنما العبرَة بكثرةِ المحاسنِ»[٢].

---

(١) «ميزان الاعتدال» (١/ ٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٦).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة ابن عبد البر الإمام العلامة: «ومن نظر في مُصَنَّفاته، بان له منزلَتُهُ من سعة العلم، وقوة الفهم، وسيلان الذهن، وكلٌّ أحدٍ يُؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولكن إذا أخطأ إمامٌ في اجتهاده، لا ينبغي لنا أن نَنْسى محاسنه، ونُغطي معارفه، بل نستغفر له، ونَعْتذرُ عنه»[١].

وقال ابن حجر الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن شأن المؤمن الكريم أن يستحضر في نفسه محاسن أخيه وينسى مساوئه،... ومن ثم قال ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: المؤمن من يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات»[٢].

وقال المدائنيّ: «لحن الحجاج يومًا، فقال الناس: لحن الأميرُ. فأخبره بعضُ مَنْ حضر فتمثل بشعر قَعْنَب بن أمِّ صاحب:

صُمٌّ إذا سمعوا خيرًا ذُكرت به ... وإن ذُكِرت بسوء عندهم أذِنُوا

فَطَانَةٌ فطنوها لو تكن لهم ... مروءة أو تقىً لله ما فَطَنُوا

إن يسمعوا شيئًا طاروا به فرحًا ... مني وما سمعوا من صالحٍ دَفَنُوا»[٣]

وسئل رُؤبة بن العَجَّاج عن أعداء المروءة، فقال: «بنو عمِّ السوء، إن رأوا صالحًا دفنوه، وإن رأوا شرًا أذاعوه»[٤].

وعن الربيع، عن ابن سيرين قال: «ظُلْمٌ لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم، وتكتم خيره»[٥].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ١٥٦).
(٢) «أسنى المطالب» (ص: ٢٤١).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٨٣).
(٤) «تاريخ دمشق» (٢٠/ ١٧١).
(٥) «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٣).

ينصحون ولا يفضحون

ينصحون لأن المسلم الصادقَ ناصحٌ لله تعالى ولكتابه ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين، وعامتهم كما جاء في الحديث المتفق عليه عن تميم الدَّاريِّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم».

أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن الدين كله -ظاهره وباطنه- منحصرٌ في النصيحة، وهذا يدل على أن النصيحة تشمل خصال الإسلام والإيمان والإحسان التي ذكرت في حديث جبريل، وسمِّي ذلك كُلّه دينًا، هذا إذا حُمِلَ كلامُ النبي ﷺ على ظاهره حيث قال: «الدين النصيحة» ويحتمل أن يحمل على المبالغة، أي معظمُ الدين النصيحة، أو عمادُ الدين وقوامُه -أي: عمادُه الذي يقوم به وينتظم- النصيحةُ، كقوله ﷺ: «الحج عرفة» أي عماده ومعظمه عرفة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام... وأما ما قاله جماعات من العلماء أنه أحد أرباع الإسلام، أي أحد الأحاديث الأربعة التي تجمع أمور الإسلام، فليس كما قالوه بل المدار على هذا وحده».

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايَعْتُ رسول الله ﷺ على إقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاةِ، والنُّصحِ لكلِّ مُسلمٍ» متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المؤمن مِرآة المؤمنِ، والمؤمن أخو المؤمن، يكف عليه ضَيْعَتَهُ -أي: يمنع ضياعَهُ وهلاكه- ويحُوطُهُ مِنْ ورائِهِ -أي: يذبُ عنه-»[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩١٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٩).

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: «المؤمن مرآة أخيه إذا رأى فيه عيبًا أصلحه»(١)

فكما أن المرآة تُري الناظر ما فيه من العيوب، فكذلك أخوه المؤمن يُخبِر بعيوب أخيه، ويميط الأذى والعيب عن أخيه شفقة عليه، فالنصيحة كلمة يُعَبَّرُ بها عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح.

وكان هدي السلف -رحمهم الله- في النصيحة أنهم ينصحون ولا يفضحون فكانوا إذا أرادوا نصيحة أحدٍ وعَظوه سرًا حتى قال بعضهم: «مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينه، فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الناس فإنما وبَّخَه».

وكان الرجل إذا كره من أخيه خلقًا عاتبه فيما بينه وبينه، أو كاتبه في صحيفة.

قال يحيى بن معين رحمه الله: «ما رأيت على رجل قط خطأ إلا سترته، وأحببت أن أزيِّن أمره، وما استقبلت رجلًا في وجهه بأمر يكرهه، ولكن أبيِّن له خطأه في ما بيني وبينه، فإن قبل ذلك وإلا تركْتُه»(٢)

وقال الفضيل رحمه الله: «المؤمن يَسْتُرُ وينصَحُ، والفاجرُ يهتكُ ويُعيِّرُ».

وقال عبد العزيز بن أبي داود: «كان مَنْ قبلكم إذا رأى الرجلُ من أخيه شيئًا يأمره في رفق، فيؤجر في أمره ونهيه، وإنّ أحد هؤلاء يَخْرَقُ بصاحبه، فيستغضب أخاه ويهتك ستره».

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن أمر السلطان بالمعروف، ونهيه عن المنكر، فقال: «إن كنت فاعلًا ولابدّ، ففيما بينك وبينه»(٣)

وقال رجلٌ لِمِسْعَرِ بن كدام: «أتحب أن يخبرك الرجل بعيوبك؟ قال: إن كان ناصحًا فَنَعَمْ، وإن كان يريد أن يؤنبني فلا»(٤)

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٨)، وحسنه الألباني.
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٨/ ١٦٤).
(٣) ينظر: «جامع العلوم والحكم».
(٤) «صفة الصفوة» (٢/ ٨٥).

وعن إبراهيم بن بشار الرمادي، قال: قلت لسفيان بن عيينة: «أيسرك أن يُهدى إليك عيبك؟ قال: أمّا مِن صديق فنعم، وأما من مُوبِّخ أو شامتٍ فلا»(١).

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده: «بينما الرشيد هارون يطوف بالبيت إذ عرض له رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أكلِّمك بكلام فيه غلظة فاحتمله لي: فقال: لا، ولا نعمة عين ولا كرامة، قد بعث الله مَنْ هو خير منك إلى مَنْ هو شرٌّ منّي فأمر أن يقول له قولًا ليِّنًا. يقصد موسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أرسله الله إلى فرعون»(٢).

وفي «تاريخ الخلفاء» للسيوطي: «وقال الأصمعي: قال لي الرشيد: يا أصمعي ما أغفلك عنَّا وأجفاك لنا! قلت: والله يا أمير المؤمنين ما لاقتني بلاد بعدك حتى أتيتك فسكت، فلما تفرق الناس، أسمعه الأصمعي كلامًا شديدًا -معناه: إن كفَّيك لتجودُ إحداهما بدرهم، والأخرى تسفك الدماء-، فقال: أحسنت، وهكذا فكن وقِّرْنا في الملا، وعلمنا في الخلا، وأمر لي بخمسة آلاف دينار»(٣).

يرفقون في الأمر والنهي وتعليم الجاهل

اقتداءً بالنبي الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أبي أمامة، قال: «إن فتىً شابًا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ائذنْ لي بالزِّنَى، فأقبل القومُ عليه، فزجرُوه، وقالوا: مَهْ مَهْ، فقال: «ادْنُهْ» فدنا منه قريبًا، قال: فَجَلَسَ، قال: «أتُحِبُّه لأمِّك؟» قال: لا والله، جَعَلني الله فِداءَك، قال: «ولا الناس يُحبُّونه لأمَّهاتِهم»، قال: «أفَتُحِبُّه لابنتك؟» قال: لا والله، جَعَلني الله فداءك، قال: «ولا الناسُ يحبُّونه لبَنَاتِهم»، قال: «أَفَتُحِبُّه لأختك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبّونه لأخواتهم»، قال: «أفتحبُّه لعمتك؟» قال:

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٣/ ٣٢٦).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٢٣).
(٣) «تاريخ الخلفاء» (ص:٣٢٩).

لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبُّونه لعمَّاتِهم»، قال: «أفتحبُّه لخالتك؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك، قال: «ولا الناس يحبُّونه لخالاتهم» قال: فوضعَ يَدَه عليه، وقال: «اللَّهُمَّ اغفر ذَنْبه، وطَهِّر قلبه، وحصِّن فرْجَه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[١].

وعن معاوية بن الحكم السُّلَمِي رضي الله عنه -الذي تكلم في الصلاة، وقال لرجل من القوم عطس في الصلاة: يرْحمك الله، فَرَماه القومُ بأبصارهم، وجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذِهم ليُصمِّتُوهُ، وذلك قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شيء في صلاته- قال: «فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَبأبِي هُو وأمِّي! ما رأيتُ مُعَلِّمًا قبلهُ ولا بعدَهُ أحسنَ تعليمًا منه، فوالله! ما كهرني -أي ما انتهرني-، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن»[٢].

قال النووي رحمه الله: «فيه بيان ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من عظيم الخُلق الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته بأمته، وشفقته عليهم، وفيه التخلق بخلقه صلى الله عليه وسلم في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه»[٣]. وحديث الرجل الذي بال في المسجد لا يخفى.

وقال حماد بن سلمة رحمه الله: «إن صلة بن أشيم مرَّ عليه رجل قد أسبل إزاره، فهمَّ أصحابه أن يأخذوه بشدة، فقال: دعوني أنا أكفيكم فقال: يا ابن أخي! إنّ لي إليك حاجة، قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك، قال: نعم وكرامة، فرفع إزاره، فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة لقال: ولا كرامة وشتمكم»[٤].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٢٢١١) وإسناده صحيح، ينظر: «المسند» (٣٦/ ٥٤٥).
(٢) رواه مسلم (٥٣٧).
(٣) «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٨).
(٤) «تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين» (ص:٣٧).

قال الشيخ محمد الخضر حسين -شيخ الأزهر في السبعينات رَحِمَهُ اللَّهُ-: «يذهب بعض الناس في الإنكار على من يراه مُبْطلًا مذهب الفظاظة في القول فيرميه باللعن والشتائم.

وفنُّ الشتم والهجاء مما يَبْذُرُ الشقاق الذي نُهينا عنه، وربّما حمل المُبْطل على التعصب لرأيه أو هواه، وقبض عليه باليمين والشمال. وقال: ومن الوسائل التي يكون لها أثرٌ في تألف الجاهلين أو المفسدين، وتهيئتهم إلى قبول الإصلاح: بَسْطُ المعروف في وجُوههم، وإرضاؤهم بشيءٍ من متاع هذه الدنيا، فإنّ مواجَهَتَهُم بالجميل، ومصافحتهم براحةٍ كريمةٍ قد يعطف قلوبهم نحو الدَّاعي، ويُمهِّدُ السبيل لقبولِ ما يعرضُه عليها من النصيحة، والنفوس مطبوعةٌ على مُصافاةِ من يُلْبِسُها نعمةً، ويفيض عليها خيرًا»[(١)].

لا يصغون إلى الوشاة ويخمدون الفتنة

ذكر المزني رَحِمَهُ اللَّهُ عن سليمان بن حرب، عن عمر بن علي بن مُقَدَّم، عن سفيان ابن حُسين، قال: كنت عند إياس بن معاوية، وعنده رجلٌ تَخوَّفْتُ إن قُمتُ من عنده أن يقعَ فيَّ فجلست حتى قام، فلما قام ذكرتهُ لإياس، قال: فجعل ينظر في وجهي، ولا يقول لي شيئًا حتى فرغت، فقال لي: أغزوت الدَّيلمَ ؟ قلت: لا، قال: فغزوت السِّند ؟ قلت: لا، قال: فغزوت الهند، قلت: لا، قال: فغزوت الرومَ ؟ قلت: لا، قال: يسلمُ منك الدَّيلمُ، والسِّند والهندوالروم، وليس يسلم منك أخوك هذا !! قال: فلم يَعُد سفيان إلى ذاك[(٢)].

وساق ابن عساكر: عن سفيان: قال: جاء رجل فقال: ما تقول في شتم معاوية ؟ فقال: متى عهدك بشتيمة فرعون ؟ قال: ما خطر ببالي، قال: ففرعون أولى بالشتم[(٣)].

(١) «الدعوة إلى الإصلاح على ضوء الكتاب والسُّنَّة» (ص:٧٧)، و(ص:٩٠).
(٢) «تهذيب الكمال» (٣/ ٤١٢).
(٣) «تاريخ دمشق» (٦٢/ ١٤٣).

وساق أيضًا: «أن عائذ بن عمرو كان يلبس الخزّ ويركب الخيل وكان أبو برزة لا يلبس الخزّ ولا يركب الخيل، ويلبس ثوبين مُمَصَّرَيْنِ، فأراد رجل أن يشيَ بينهما فأتى عائذ ابن عمرو فقال: ألم تر إلى أبي برزة يرغب عن لبسك وهيئتك ونحوك، لا يلبس الخزّ ولا يركب الخيل؟ فقال عائذ: يرحم الله أبا برزة، ومن فينا مثل أبي برزة؟ ثم أتى أبا برزة فقال: ألم تر إلى عائذ يرغب عن هيئتك ونحوك، ويركب الخيل، ويلبس الخزّ فقال: يرحم الله عائذًا، ومن فينا مثل عائذٍ؟»[1].

وقال رجل لوهب بن منبه: «إن فلانًا شتمك، قال: أما وجد الشيطان بريدًا غيرك»[2].

وعن محمد بن سلام قال: «جاء رجلٌ إلى عمرو بن عُبيْد فقال له: إنّ الإسواري لم يزل يذكرك أمس في قصصه ويقول: عمرو بن عُبيْد الضال، عمرو بن عُبيد المبتدع، فقال عمرو بن عُبيد: يا هذا ما رعيتَ مجالسة الرجل، حيث نقلت إلينا حديثه، ولا أديت حقي حين أبلغتني عن أخي ما أكره، أبلغه أن الموت يعمنا، والبعث يحشرنا، والقيامة تجمعنا والله يحكم بيننا»[3].

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وداوم عدم الإصغاء إلى قائل أو واشٍ ينقل عن الصَّديق، ما يوغر القلب، فإن هذا من حيل الشيطان، وجنده من الإنس، فإنه يقل أن يروا صديقين في الله تعالى إلا وسَّعوا بينهما بدقائق المكر والحيل حتى يوغروا صدر كل منهما على الآخر، ويوقعوا الفرقة بينهما»[4].

(١) «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٦٧).
(٢) المرجع نفسه (٦٦/ ٢٨٦).
(٣) المرجع نفسه (٤٤/ ٨٠).
(٤) «أسنى المطالب» (ص:٢٤٩).

يلتمسون الأعذار، ويقبلون الاعتذار، ولا يفتحون الباب لأهل الضلال

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب: «بهجة المجالس»: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا يحل لامرئٍ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظنُّ بها سوءًا وهو يجد لها في شيءٍ من الخير مخرجًا»[(١)].

وقال ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ: يحتمل الرجل لأخيه إلى سبعين زلة، ويطلب له المعاذير، فإن أعناه ذلك، وإلا قال: لعل لأخي عذرًا غاب عني[(٢)].

وقال عبد الله بن زيد - أبو قلابة - رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا بلغك من أخيك شيء تكرهه فالتمس له العذر جهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل في نفسك: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه[(٣)].

وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: لو أن رجلًا شتمني في أذني هذه، واعتذر في أذني الأخرى، لقبلتُ عذره[(٤)].

وساق ابن أبي الدنيا بسنده عن ابن عون قال: اعتذر رجل عند إبراهيم، فقال: قد عَذَرْناكَ غيْرَ مُعْتَذِرٍ، إن الاعتذار يخالطه الكذب[(٥)].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة ابن أبي ذئب: «قال محمد بن عمر الواقدي: ولد ابن أبي ذئب -محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب- سنة ثمانين، وكان من أورع الناس، وأودعهم، ورُمي بالقدر، وما كان قدريًا -لقد كان يتقي قولهم ويعيبُه- ولكنه كان رجلًا كريمًا يجلسُ إليه كلُّ أحد ويغشاه فلا يطرُدُه، ولا يقول له شيئًا، وإن مرض عاده، فكانوا يتهمونه بالقدر، لهذا وشبهه.

---

(١) «الآداب الشرعية» (١/ ٩١).
(٢) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٣٠).
(٣) «سير السلف الصالحين» (٢/ ٢٨٥).
(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٨٧).
(٥) «الصمت وآداب اللسان» (ص:٢٤٨)، وقال أبو إسحاق الحويني -حفظه الله-: «إسناده صحيح».

قلت -أي الذهبي-: كان حقه أن يكفَهِرَّ في وجوههم، ولعله كان حسنَ الظَّن بالناس»[1]

وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ قول عمر رضي الله عنه لعلي والعباس رضي الله عنهما: «جئت أنت تطلب ميراثك من ابنِ أخيك -يقصد النبي صلى الله عليه وسلم- وجاء هذا يطلب ميراث امرأته من أبيها، ثم قال -أي الذهبي-: ولا اعتراض على الفاروق رضي الله عنه فيها؟ فإنه تكلم بلسان قسمة التركات»[2]

ولكن السلف -رحمهم الله- لم يفتحوا باب الاعتذار على مصراعيه، حتى لكل من كفر وضل.

ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة عبد الحقِّ بن إبراهيم: «أنه نُفي من المغرب بسبب كلمة كُفْرٍ صدرت منه، وهي أنه قال: «لقد تحَجَّر ابن آمنة في قوله: «لا نبيّ بعدي»»».

قلت -أي الذهبي-: «وإن فتحنا باب الاعتذار عن المقالات وسلكنا طريقة التأويلات المستحيلات لم يبق في العالم كُفْرٌ ولا ضلال، وبَطَلَتْ كُتُبُ المِلَل والنِّحَل، واختلاف الفِرَق وقد ذكر الغزالي: في كتابه «مشكاة الأنوار» فصلًا في حال الحلاّج فأخذ يعتذر عما صدر منه مثل قوله: «أنا الحقّ»، وقول الآخر: «ما في الجُبّة إلا الله»، وهذه الإطلاقات التي ظاهرها كُفْر، وحَملها على محامل سائغة، وأوّلها، وقال: «هذا من فرط المحبّة وشدّة الوجد»، وإنّ ذلك كقول القائل: «أنا من أهوى ومن أهوى أنا».

قال الذهبي: «ومن طالع كتب هؤلاء علم عِلمًا ضروريًا بأنّهم اتّحاديةٌ مارقةٌ من الدين»[3]

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٤٠).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦١١)، ولا يخفى عليك أننا في علم المواريث ننسب الورثة إلى الميت! فإن قيل: أب: فالمراد أبو الميت، وإن قيل: عم: فالمراد عم الميت... وهكذا.

(٣) «تاريخ الإسلام» «حوادث سنة: ٦٦١-٦٧٠» (ص:٢٨٧).

لا يفتشون عن معايب بيوتهم، ويعفون ويتغافلون عن زلات الناس

قال في «منظومة الآداب»:

ولا تَسْأَلن عن ما عَهِدْتَ وغُضَّ عن عَوارٍ إذا لم يَذمُمِ الشَّرعُ تُرْشَدِ

قال شارحه في «غذاء الألباب»: «ولا تسألن عن الشيء الذي عهدته من متاعٍ يسير ونفقة قليلة، فإن التنقيب عن كل كثير وحقير من أخلاق أهل الحرص والشح».

وفي حديث أم زرع: «قالت الخامسة: زوجي إن دخل فِهدَ، وإن خرج أسِد، ولا يَسْأَلُ عَمَّا عَهِدَ» متفق عليه.

قال أبو عبيدة: «تصفه بكثرة النوم والغفلة على وجه المدح له، فجعلت كثرة تغافله كالنوم».

وقولها: وإن خرج أسد تمدحه بالشجاعة، أي صار كالأسد.

وقولها: ولا يسأل عما عهد، أي لا يفتش عما رأى في البيت وعرف.

قال أبو عبيدة: لا يتفقد ما ذهب من ماله ولا يلتفت إلى معايب البيت وما فيه، فكأنه ساهٍ عن ذلك.

ثم قال متممًا لما قدمه: وغض طرفك وتغافل عن العيب؟ لأن تأمل العيب عيب.

قال بعض الحكماء: العاقل هو الحكيم المتغافل.

وقيل لبعض العارفين: ما المروءة ؟ قال: التغافل عن زلة الإخوان.

وفي «فروع الإمام ابن مفلح»: «حدث رجل للإمام أحمد ما قيل إن العافية عشرة أجزاء، تسعة منها في التغافل، فقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: العافية عشرة أجزاء كلها في التغافل».

«وكثيرًا ما وصفت العربُ الكرماء والسادة بالتغافل والحياء في بيوتها وأنديتها، قال الشاعر:

كَـرِيمٌ يَغُـضُّ الطَّـرْفَ دُونَ خِبَائِـهِ ... وَيَـدْنُو وَأَطْـرَافُ الرِّمَـاحِ دَوَانِـي

وإنما يحسن عدم السؤال والتغافل وغض الطرف عن العوار إذا لم يَذُمِّ الشرع ذلك، وإلا وجب السؤال والتفتيش، فإن التغافل إنما يمدح في أمر المعاش وفي المسامحة في كلمة، وإهمال أدب من آداب الزوجة مع زوجها ونحو ذلك، وأما في الدين والعرض فلا يحسن التغافل لاسيما عن الواجبات، فإنك أيها الأخ في الله إن فعلت ما أمرتك به من عدم السؤال ومن غض الطرف عن العوار حيث لم يذمم الشرع (ترشد) لكل فعل حميد وتسعد، وتوفق للصواب وتسدد»[١].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفتوّة الصفح عن عثراتِ الإخوان»[٢].

وأخرج البيهقي بسنده عن عمرو بن عثمان المكي، قال: «المروءة التغافل عن زلل الإخوان».

وعن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «من طلب أخًا بلا عيب بقي بلا أخ».

وعن عثمان الخياط رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «سمعت ذا النون يقول: لا تثقن بمحبة من لا يحبّك إلا معصومًا»[٣].

---

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٣١٠-٣١٢).
(٢) «تاريخ دمشق» (٢٩/ ٣٠).
(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (١٤/ ٢٦١-٢٦٤).

يستـرون عورات النـاس

تخلقًا بأخلاق الله تعالى الذي يحب السَّتْرَ ويستر عباده في الدنيا والآخرة:

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنّ الله يُدْني المؤمن فَيضعُ عليه كَنَفَهُ ويستُره [كَنَفَهُ: أي ستره، يستره عن أهل الموقف حتى لا يطلع على سره غيره]، فيقول: أتعرفُ ذنبَ كذا، أتعرفُ ذنبَ كذا ؟ فيقول: نعم أي ربّ، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنهُ هلك [أي بسبب ما أقر به من الذنوب] قال: سَترتُها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليومَ، فيُعطى كتابَ حَسَناتِهِ، وأما الكافرُ والمنافقَ فيقولُ الأشهادُ: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين»(١).

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل حليمٌ حييٌ سَتِيرٌ، يُحبُّ الحياءَ والسَّتْرَ فإذا اغتسلَ أحَدُكُم فليَسْتَتر»(٢).

قال الإمام السندي رحمه الله: «أي أن الله تعالى ساتر للعيوب والفضائح يحب الحياء والسَتر من العبد ليكون متخلقًا بأخلاقه تعالى»(٣).

* **يسترون عورات الناس:**

فمن ستر عورة أخيه المسلم، فإن الله تعالى يكافئه من جنس عمله فيستره في الدنيا والآخرة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يَستُرُ عبدٌ عبدًا في الدُّنيا، إلا سترهُ الله يوم القيامة»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤١).

(٢) رواه النسائي (٤٠٤)، وصححه الألباني.

وقال في «النهاية»: «سَتير: فعيل بمعنى فاعل: أي من شأنه وإرادته حُبُّ السَّتر والصَّون».

(٣) «حاشية السندي على سنن النسائي» (١/ ٢١٨).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٠، ٢٥٩٠).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ومَن ستر مُسلمًا، سَتَرَهُ الله يوم القيامة»[(١)].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ومَنْ سَتَر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة»[(٢)].

«ستر مسلمًا» أي بدنه أو عيبه.

وقسم العلماء الناس في ذلك إلى قسمين:

أحدهما: من كان مستورًا لا يُعرف بالأذى والفساد، فإذا وقعت منه هفوةٌ أو زلَّةٌ -بينه وبين ربِّه- ولم يجاهر بها أمام الناس، بل تَستّر وتوارى واستحيى منها، فإنه لا يجوز كشفُها، ولا هتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها، لأن ذلك غيبةٌ محرمة الغرض منها تعييره وتنقيصه وإنزال مكانته بين الناس، ومثل هذا يُنكر على الناصح إذا رآه على معصية ما زال متلبسًا بها فإن النصيحة تتحقق بتوجيهها له في السرِّ لا في العلن، أو بالموعظة العامة التي توجّه لأشخاص بأعيانهم، كما كان يفعل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إذ كان يقول حينما يُخبَر بأن بعض الناس قد فعل منكرًا من المنكرات: «ما بال أقوام فعلوا كذا وكذا أو يفعلون كذا وكذا، ويوجه موعظته لهم بصفة عامة ومثل هذا لو جاء تائبًا نادمًا وأقرَّ بحدٍّ، ولم يفسِّرْه، لا يُسْتفسر، بل يُؤمر بأن يرجع ويستُر نفسه كما أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماعزًا لما قال له: يا رسول الله: إني زنيت، فأعرضَ عنه، فَتَنَحى تِلْقاءَ وجهه: فقال له: يا رسول الله: إني زنيت، فأعرض عنه، حتى ثنى ذلك عليه أربع مرّات، والرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول له مرةً: «أبك جُنونٌ»، ويقول له مرةً أخرى: «فلَعلَّكَ قبَّلتَهَا».

ولما قال له: طَهِّرْني، قال له: «وَيْحَكَ ارجع فاستغفر الله وتُبْ إليه»[(٣)].

ولما رُجم ماعِزٌ قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لِهَزَّالٍ الذي كان يكفل ماعزًا اليتيم، والذي

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٠).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٣) رواه مسلم (١٦٩١، ١٦٩٥).

أشارَ على ماعزٍ أن يأتي النبيّ فيخبَرهُ بما صنع، لعله يَسْتغفرُ له لعله يجد مَخْرَجًا، قال له النبي ﷺ: «يا هزَّالُ لو سترته بثوبك كان خيرًا لك»(١) [أي: أمرته بالسِّتر].

ومثل هذا لو أخذ بجريمته، ولم يبلغ الإمام، فإنه يُشفع له حتى لا يبلغ الإمام، وفي مثله جاء الحديثُ عن النبي ﷺ: «أقِيلُوا ذَوِي الهيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ»(٢)، قال في تنبيه الغافلين: ومحل الستر فيها إذا لم تصل الحدود إلى الحكام، فإذا وصلت إليهم بالطريق الشرعيّ لم يجز ستره، وتحرم الشفاعة فيه(٣).

وهذا هو الذي وردت فيه النُّصوص، وأنذر الله الذين يحبّون أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور: ١٩]

لأن إشاعة السوء عن المؤمنين إيذاءٌ لهم وإضرارٌ بهم، وعيبٌ فيهم، قال ابن الجوزي: سمعت الوزير ابن هبيرة يقول لبعض من يأمر بالمعروف: اجتهد أن تستر العصاة، فإن ظهور معاصيهم عيب في أهل الإسلام وأولى الأمور ستر العيوب(٤).

وقد قيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن فلانًا تقطر لحيته خمرًا، فقال: إن الله عز وجل نهانا عن التجسس وإن يظهر إلي شيئًا أخذناه(٥).

قال العلماء: إن الستر في معصية قد وقعت وانقضت، والإنكار في معصية قد حصل التلبس بها فيجب الإنكار عليه وإلا دفعه إلى الحاكم إذا لم تترتب على ذلك مفسدة، قال ابن عبد القوي رحمه الله:

ويَحْـرُمُ تَجْـسيسٌ علـى مُتَـستِّرٍ ... بفِـسقٍ وماضِـي الفِـسْقِ إنْ لم يُجَـدَّدِ

---

(١) انظر: «صحيح الجامع» (٧٩٩٠).
(٢) رواه أبو داود (٤٣٧٥)، وصححه الألباني.
(٣) «تنبيه الغافلين» (ص:٢٩).
(٤) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٤).
(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٦١).

والقسم الثاني من الناس:

مَن كان مشتهرًا بالمعاصي، ومعلنًا بها لا يُبالي بما ارتكب منها، ولا بما قيل له فهذا هو الفاجرُ المُعلِنُ، وليس له غيبة كما نصّ على ذلك الحسنُ البصري وغيره، ومثل هذا يستحب أن لا يستر عليه بل ترفع قضيته وأمره إلى ولي الأمر، لتُقام عليه الحدود، إن لم يخف من ذلك مفسدة؛ لأن الستر على هذا يطمعه في الإيذاء والفساد وانتهاك الحرمات وجسارة غيره على مثل فعله.

ومثل هذا لا يُشفعُ له إذا أُخِذ، ولو لم يبلغ السُّلطان، بل يُترك حتّى يُقامَ عليه الحدُّ لينكفَّ شرّهُ، ويرتدع به أمثاله.

قال الإمام مالك: من لم يُعرفْ منه أذى للناس، وإنما كانت منه زلّةٌ، فلا بأس أن يُشفع له ما لم يبلغ الإمام، وأمّا من عُرفَ بشرٍّ أو فسادٍ، فلا أحبُّ أن يشفع له أحدٌ، ولكن يترك حتى يُقام عليه الحدُّ.

وقال ابن منصور: «قلت لأبي عبد الله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: إذا علم من الرجل الفجور أيخبر به الناس؟ قال: بل يستر عليه إلا أن يكون داعية، ولو تاب أحدٌ من الضَّرب الأوّل، كان الأفضل له أن يتوب فيما بينه وبين الله تعالى، ويستر على نفسه».

وأما الضربُ الثاني، فقيل: إنه كذلك، وقيل: بلِ الأولى له أن يأتي الإمام، ويقرَّ على نفسه بما يُوجِبُ الحدَّ حتى يطهِّرَه[1].

* يسترون عورات الناس:

لأن البحث عن المعائب يساعد على تهوين ارتكاب الآثام والقبائح ويشجع عليها، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاوية رضي الله عنه: «إنك إن اتَّبعْتَ عَوْراتِ الناسِ أفسَدْتَهُم، أو كِدْتَ أن تُفْسِدهُم».

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٦/ ١١١)، و«فتح الباري» (٦/ ١٢٣)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩١-٢٩٣)، و«الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٢٢٠)، و«غذاء الألباب» (١/ ٢٠٠).

قال أبو الدرداء: «كلمةٌ سَمِعَهَا معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها»[(١)].

أي: إذا بحثت عن معائبهم وجاهدتهم بذلك، فإنه يؤدي إلى قلة حيائهم منك، فيجترئون على ارتكاب أمثالها مجاهرة[(٢)].

*** يسترون عورات الناس لتستر عيوبهم:**

فعن أبي بَرْزَةَ الأسلميّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ من آمنَ بلسانه، ولم يَدْخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ لا تَغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم -أي: عيوبهم ومساويهم- فإنه من اتّبع عوراتهم يتبع الله عورته -أي: يقيض الله من يتبع عورته فيكشف عيوبه ومساويه- ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته -أي: ولو كان في بيته مخفيًا من الناس-»[(٣)].

وأنشد بعضهم في ذلك:

لا تلتمس من مساوي الناس ما ستروا ... فيكشف الله سترًا من مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ... ولا تعب أحدًا منهم بما فيكا

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد روي عن بعض السَّلف أنه قال: أدركت قومًا لم يكن لهم عيوبٌ فذكروا عيوبَ الناس، فذكرَ الناسُ لهم عيوبًا، وأدركت أقوامًا كانت لهم عيوبٌ فكفُّوا عن عُيوب الناس، فنُسيت عيوبهم»[(٤)].

وروى ابن مُقْلَة -محمد بن علي بن الحسن- عن ثعلب:

إذا ما تَعيبُ الناسَ عابوا فأكثروا ... عليك وأبدوا منك ما كنت تستُر
فلا تَعِبَنْ خُلقًا بما فيك مثله ... فكيف يعيبُ العُورَ من هو أعورُ[(٥)]

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٨٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٩٦٥٩)، وصححه الألباني.
(٢) «عون المعبود» (١٣/ ١٥٩)، و«الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٢٢١).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٨٠)، والترمذي (٢٠٣٢)، وصححه الألباني.
(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩١)، و«غذاء الألباب» (٢/ ٢٠٤)، و«شعب الإيمان» (٧/ ١٠٨).
(٥) «تاريخ الإسلام» باب: «حوادث سنة: ٣٢١-٣٣٠» (ص:٢٤١).

يتبادلون الرقائق القولية ومكارم الأخلاق

ذكر الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخى محمد بن عبد الحكم بن أيمن بن ليث المصري، وكان يقربه، ويقبل عليه، ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتل محمد فعاده الشافعي: فقال:

مَرِضَ الحبيب فعُدته فمرضت من حزني عليه

فقال محمد في جوابه:

فأتى الحبيب يعودني فبرئت من نظري إليه[(١)]

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن إبراهيم بن بُرانه -وكان جليسًا للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- قال: «دخلت مع الشافعي حمّامًا فخرجت قبله، وكان الشافعي طوالًا جسيمًا نبيلًا، وكان إبراهيم طوالًا جسيمًا، فلبس إبراهيم ثياب الشافعي ولبس الشافعي ثياب إبراهيم، والشافعي لا يعلم أنها ثياب إبراهيم، وإبراهيم لا يعلم أنها ثياب الشافعي، وانصرف الشافعي إلى منزله فنظر فإذا هي لإبراهيم، فأمر بها فطويت وبخرت وجعلت في منديل، ونظر إبراهيم فطواها وبخرها وجعلها في منديل، ثم راحا جميعًا، فجعل الشافعي ينظر إلى إبراهيم ويبتسم إليه، وجعل إبراهيم ينظر إلى الشافعي ويبتسم إليه، فلما صلّيت العصر، قال إبراهيم: أصلحك الله، هذه ثيابك.

فقال الشافعي: وهذه ثيابك، والله لا يعود إليّ منها شيء، ولا يلبسها غيرك فأخذهما إبراهيم جميعًا»[(٢)]

وكان بين سعيد بن العاص رضي الله عنه وقوم من أهل المدينة منازعة فلما ولاّه معاوية رضي الله عنه المدينة ترك المنازعة، وقال: «لا أنتصر لنفسي وأنا والٍ عليهم».

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٤٣).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣١٥).

قال ابن عقيل في «الفنون»: «هذه والله مكارم الأخلاق»[(١)].

وقال السَّكنُ الحَرَشيّ: «اشتريت من أبي المنهال سيار بن سلامة شاةً بستين درهمًا، فقلت: تكونُ عندك حتى آتيك بالثَّمن، قال: ألست مُسلمًا؟ قلت: بلى، قال فخُذها. فأخذتُها ثم انطلقتُ فأتيتُه بالسِّتين، فأخرجَ منها خمسة دراهم وقال: اعلِفْها بهذه»[(٢)].

يعاملون الناس بحلم وسماحة أخلاق

تنازع الحسين بن علي والوليد بن عتبة بن أبي سفيان في أرض، والوليد يومئذ أمير على المدينة فبينا الحسين ينازعه إذ تناول عمامة الوليد عن رأسه، فجرّبها فقال مروان بن الحكم وكان حاضرًا: إنا لله، ما رأيت كاليوم جرأة رجل على أميره، قال الوليد: ليس ذاك بك ولكنك حسدتني على حلمي عنه، فقال الحسين ﷺ: «الأرض لك اشهدوا أنها له»[(٣)].

وأسند الصولي عن أبي عبيدة قال: كان المهدِيُّ الخليفة العباسي محمد بن المنصور يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها، فأقيمت الصلاة يومًا، فقال أعرابي: لستُ على طُهرٍ، وقد رغبت في الصلاة خلفك فأْمُرْ هؤلاء بانتظاري، فقال: انتظروه ودخل المحراب، فوقف إلى أن قيل: قد جاء الرجل، فكبّر، فعجب الناس من سماحة أخلاقه[(٤)].

قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللهُ: «كان عُمرُ بن عبد العزيز إذا أراد أن يُعاقب رجلًا حبسه ثلاثًا، ثم عاقبه كراهية أن يعجّل في أوّل غضبه»[(٥)].

وعن أحمد بن عبد الأعلى الشيباني أنه سمع شيخًا من طيّيء، يقول: «إن رجلًا

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣١٨).
(٢) «البيان والتبيين» (٢/ ٨٤٣).
(٣) «تاريخ دمشق» (٦٦/ ١٥٣).
(٤) «تاريخ الخلفاء» (ص: ٣٢٠).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٣).

أخذ بلجام عَدي بن حاتم فقال: تفخر بأبيك وهو جمر في النار؟ وتفخر على قومك بأن تجلس على وِطاء دونهم؟ وذكر أشياء، وجعل يقصدُ به، وهو واقف لا يحرِّك بغلته، فقال له لما سكت: إن كان بقي عندك شيءٌ تريدُ أن تذكره فافعل قبل أن يأتي شباب الحي، فإنهم إن يسمعوك تقول هذا لشيخهم لم يرضوا»[(١)].

وقيل للأحنف بن قيس التميمي: ممن تعلمت الحلم؟ قال: «من قيس بن عاصم التميمي، أتاه آتٍ وهو مُحْتَبٍ فقال: ابن أخيك قتل ابنَك! قال عصَى ربه، وفت عَضُده، وقطع رحمه جَهِّزوه، وما حلّ حُبْوته، فمنه تعلمتُ الحلم»[(٢)]. وقال الأحنف: «لقد اختلفنا إلى قيس بن عاصم في الحِلْم كما نختلف إلى الفقهاء في الفقه»[(٣)].

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا فقال له: «أردت أن يستفِزَّني الشيطانُ بعز السلطان، فأنالَ منك اليوم ما تناله منّي غدًا، انصرف رحمك الله»[(٤)].

يعاشرون الناس بالحسنى ويشترونهم بالمعروف

اقتداءً بالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم فقد كان المثل الكامل في ذلك، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لقد خدمتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قالَ لي قَطُّ: أفٍّ، ولا قال لشيء فعلته: لِمَ فعلته ؟ ولا لشيء لم أفعله ؟: ألا فعلت كذا ؟». متفق عليه.

ويقول أنس رضي الله عنه: «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم رحيمًا، وكانَ لا يأتيه أحدٌ إلا وعده، وأَنْجَزَ له إنْ كان عندَه، وأقيمت الصلاةُ، وجاءَه أعرابيٌّ فأخذ بثوبه فقال: إنما بقيَ من حاجتي يسيرةٌ، وأخاف أنساها، فقامَ معه حتى فرغ من حاجته، ثم أقبلَ فصلى»[(٥)].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٤٢/ ٧٤).
(٢) «روضة العقلاء» (ص:١٨١)، والاحتباء: أن يشد الرجل ظهره إلى ركبتيه بثوب أو نحوه.
(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٣٣١).
(٤) المرجع نفسه (١/ ٣٣٤).
(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٨)، وحسنه الألباني.

لم يجد رسول الله ﷺ حرجًا في أن يستمع إلى الأعرابي ويقضي حاجته، وقد أقيمت الصلاة، ولم يضق صدره بذاك الأعرابي الذي أخذ بثوبه، وأصرَّ على قضاء حاجته قبل الصلاة؛ لأنه -صلوات الله عليه- كان يبني مجتمع الأخلاق، ويعلّم المسلمين بفعله كيف يجب أن يعامل المسلم أخاه الإنسان، ويقرر لهم المبدأ الخلقي الذي ينبغي أن يسود مجتمع المسلمين[١].

ولقد استطاع السلف السائرون على نهج النبي ﷺ في معاملة الناس بالحسنى أن يشتروا الناس بمعروفهم.

عن إبراهيم الحربي، عن محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، قال: «أراد جار لأبي حمزة السُّكري أن يبيع دارَه، فقيل له: بكم؟ قال: بألفين ثمن الدَّار، وبألفين جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة، فوجَّه إليه بأربعة آلاف، وقال: لا تبع دارك»[٢].

وقال المهلب: «عجبت لمن يشتري المماليك بماله، ولا يشتري الأحرار بمعروفه».

وقال: «ليس للأحرار ثمن إلا الإكرام، فأكرم حرًا تملكه»[٣].

وقال الشاعر الأديب: محمد بن الحُسين البُستي رَحِمَهُ اللَّهُ:

أحْسِنْ إلى النَّاس تَسْتَعبِدْ قلوبَهُم ... فطالما اسْتَعْبَدَ الإنْسانَ إحسانُ

قال شارحه الشيخ أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ: «تستعبد قلوبهم: تستميلها وتملكها بالإحسان إليهم، فكثيرًا ما ملك الإحسانُ قلب الإنسان، وقديمًا قالوا: جُبِلَتْ القلوبُ على حُبِّ من أحسَنَ إليها، وبُغض من أساء إليها، وليس هذا القول بحديث نبوي»[٤].

وعن النضر بن عبد الله الحلواني قال: حدثنا الأصمعي، قال: «حضر جدِّي عليَّ

---

(١) «شخصية المسلم» (ص:١٧٣).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٨٧).
(٣) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٩٩).
(٤) «قصيدة عنوان الحِكم» (ص:٣٦).

بن أصمعَ الوفاةُ، فجمع بنيه، فقال: يا بنيّ! عاشروا الناس معاشرةً إن غِبْتُم حنّوا إليكم وإن مُتّم بكوا عليكم»[١].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «اصحَب الناسَ بما شئتَ أن تصْحَبَهُم، فإنهم سيصحبونك بمثله»[٢].

يلقون الناس بوجه طليق

امتثالًا لأمر النبي ﷺ حيث قال لأبي ذر رضي الله عنه: «لا تَحْقِرَنَّ من المعروفِ شيئًا، ولو أنْ تلقى أخاك بوجْهٍ طلْقٍ»[٣]، أي: سهل منبسط.

فبشاشة الوجه خليقة حسنة حضّ عليها الإسلام، وجعلها من الأعمال الصالحات التي تُكْسِبُ صاحبها المثوبة والأجر؛ لأن الوجه الطليقَ الصافي مرآةُ القلب النظيف الصافي، وهذا الصفاء في المظهر والمَخْبر من خلائق الإسلام الجلية في المسلمين الصادقين.

ومن هنا قال ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه: «تَبسُّمُكَ في وَجهِ أخيكَ صَدَقةٌ»[٤].

وكان الرسول ﷺ يَبُشُّ دومًا في وجوه أصحابه، فما يكاد يقع بصره على أحد منهم إلا تبسم له.

فعن جرير بن عبد الله البَجَليّ رضي الله عنه قال: «ما حَجَبني رسول الله ﷺ منذُ أسلمت -أي ما منعني من الدخول إليه إذا كان في بيته واستأذنت عليه- ولا رآني إلا تبسم». متفق عليه.

وهكذا يكون سمْحُ النفس طلْق الوجه باسمًا مشرق المحُيَّا، بخلاف النكِد

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ١٦٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٤).
(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة (٢٦٢٦).
(٤) رواه الترمذي (١٩٥٦)، وصححه الألباني، ينظر: «شخصية المسلم» (ص:١٤٤).
والمخبر: عكس المَنْظر.

الصعب، حتى يبدو كأنه قَرفٌ من كل شيء، فإذا واجه الناس واجههم بسحْنةٍ منقبضة - أي بهيئة - لا انبساط فيها ولا بشر، وإذا اجتمع معهم لم يشاركهم بمشاعره ولا بحواسه، وكان بينهم كأنه غريب عنهم، وكأنهم غرباء عنه، في و جهه ولسانه ونفسه، وهذا الوضع يجعله ممقوتًا مكروهًا بعيدًا عن قلوب الناس، لأنه وضع يلازمه في معظم أحواله بسبب نكد نفسه الملازم له.

على أنّ مثل هذه الظاهرة قد تعرض لمعظم الناس إذا نزل بهم ما يكرهون، ولكنها لا تلازمهم فالسمحاء منهم لا يلبثون أن يرجع إليهم انبساطهم وانشراحهم، والحالة الكئيبة التي ظهرت منهم حالة طارئة مع عارضة الحزن الذي أصابهم، أو الهمّ الذي انتباهم ولا تلبث طويلًا في نفوسهم، بل ترجع نفوسهم سريعًا إلى سماحتها وانبساطها ورضاها عن الله تعالى [(١)].

قال الشاعر الأديب: محمد بن الحُسين البُستي رَحِمَهُ اللَّهُ:

كُـن رَيِّـق البِـشْر إن الحُـرَّ هِمَّتُـه ... صَـحيفةٌ وعليهـا البِـشْرُ عنـوانُ

قال أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَيِّقَ البشر: جميل البِشر دائمه، والبشر طلاقة الوجه وبشاشَتُه، والصحيفة يعني بها: الوجه، والمعنى: أن هَمَّ الحرِّ أن يكون طَلْقَ الوجه باسمَ المُحيَّا ليُحبَّه الناس ويألفوه وينتفعوا به وينتفع بهم» [(٢)].

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال: «مكتوبٌ في الحكمة: ليكُنْ وَجْهُك بَسْطًا وكلمتك طيبةً، تكُنْ أحبَّ إلى الناس من الذي يُعطيهم العطاء» [(٣)].

وقال حماد بن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت رجلًا قط أشد تبسمًا في وجوه الرجال من أيوب السختياني» [(٤)].

---

(١) «الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٤٦٤).
(٢) «قصيدة عنوان الحِكم» (ص:٣٧).
(٣) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣١٨).
(٤) «صفة الصفوة» (٢/ ١٤٩).

يعفون ويتجاوزون عن الناس

لأن الله العَفُوّ الغفور -سبحانه- يحب العفو.

أخرج الإمام الترمذي رحمه الله عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت: يا رسول الله! أرأيت إن عَلِمْتُ أيَّ لَيْلَةٍ لَيْلَةَ القَدْرِ، ما أقول فيها؟ قال: «قولي اللَّهُمَّ إنَّك عفوٌ كريمٌ تُحِبُّ العفْوَ فاعف عني»»[(١)].

*** يعفون ويتجاوزون:**

لأن العفْوَّ اسمٌ من أسماء الله تعالى وصفةٌ من صفاته وصفات نبيه صلى الله عليه وسلم: قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٩].

وأخرج الإمام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن عطاءَ ابن يسار سألَهُ أن يُخْبِرَه عنْ صفةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في التَّوراةِ، قال: «أجَلْ، والله إنه لموصُوفٌ في التوراة ببعض صِفَتِه في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرْزًا للأمّيين، أنت عبدي ورسولي سَمَّيتُكَ المتوكل ليس بفظٍّ ولا غليظ ولا سخّابٍ في الأسواق، ولا يدفعُ بالسيئة السيئَةَ ولكن يعفُو ويغفِرُ» وفي رواية للبخاري: «ولكن يعفو ويصفح»[(٢)].

وتصف عائشة النبي صلى الله عليه وسلم بقولها: «وما انتقم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لنفسِهِ، إلا أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله عز وجل»، وفي رواية: «وما نيلَ منه شيءٌ قط، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صاحِبِهِ، إلا أن يُنْتَهَكَ شيءٌ من محارم الله، فينتقِم لله عز وجل»[(٣)].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥١٣)، وصححه الألباني.
(٢) رواه البخاري (٢١٢٥، ٤٨٣٨).
وحرزًا: أي حصنًا، والأميون: هم العرب. والسَّخَبُ: رفع الصوت بالخصام.
(٣) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧، ٢٣٢٨).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معنى نيل منه: أصيب بأذى من قول أو فعل».

وانتهاك حرمةُ الله تعالى هو ارتكاب ما حرمه.

*** يعفون ويتجاوزون:**

امتثالًا لأمر الله تعالى الذي أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالعفو في قوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما عدد الله تعالى من أحوال المشركين ما عدده، من إعراضهم وتكذيبهم، ومساوي أخلاقهم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بضد قالهم وفعالهم وأمره بالرفق بهم والعفو عنهم فقال: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

فلا تكافئهم بخفتهم وسفههم.

صح عن عبد الله بن الزُّبير رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾، قال: «أُمِرَ نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفوَ من أخلاق الناس»[(١)].

قال الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «بين في هذه الآية الكريمة ما ينبغي أن يعامل به الجهلة من شياطين الإنس والجن، فبين أن شيطان الإنس يعامل باللين، وأخذ العفو، والإعراض عن جهله وإساءته. وأن شيطان الجن لا منجى منه إلا بالاستعاذة بالله منه»[(٢)].

*** يعفون ويتجاوزون:**

امتثالًا لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال لعقبةَ بن عامر: «يا عقبةُ بنَ عامر صِلْ مَن قطعك، وأعطِ منْ حرَمَكَ، واعْفُ عَمَّنْ ظلمك»[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٣).

(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٣٥).

(٣) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٨٩١).

* **يعفون ويتجاوزون:**

حتى يكونوا من المتقين الذين أعد الله لهم الجنة، ووصفهم بأنهم كاظمون للغيظ وعافون عن الناس، فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤].

* **يعفون ويتجاوزون:**

عسى الله أن يعفو عنهم ويغفر لهم مكافأةً بما كان من عفوهِم عن الناس.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢].

وقد نزلت هذه الآية لما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مِسطح، فقال: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا، ولا أنفعه بنفع أبدًا؛ لأن مسطحًا كان من الذين اشتركوا في إشاعة خبر الإفك على عائشة أم المؤمنين، فآلم ذلك أبا بكر وآل أبي بكر، وكان أبو بكر يُحسن إليه، فينفق عليه لقرابته وحاجته، فحلف اليمين التي حلفها.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا يحلف أولو الفضل منكم والسعة على أن لا يعطوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، مما لديهم من فضل وسعة في الرزق.

ثم أرشد الله تعالى إلى العفو عن الإساءة الكبيرة التي أساءها هذا الرجل لآل أبي بكر فقال: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾.

أي: لا تكن الإساءةُ الشخصية مانعة من فعل الخير مع المسيء لأنَّ فعل الخير إنما يبتغى به وجه الله ومرضاته، لا مرضاة الذين يقدّم لهم الإحسان.

ثم ألمح الله في آخر الآية إلى أنّ منْ يعفو عمّن يسيء إليه فإنّ الله يعفو عنه، وذلك بقوله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: إن الله يغفر لكم سيئاتكم التي تفعلونها في جنبه إذا أنتم عفوتم عن إخوانكم وصفحتم عنهم.

وقد ألمح الله إلى ذلك أيضًا في آية أخرى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

فمن كان حريصًا على أن يغفر الله له فليعف عمّن يسيء إليه [(١)].

* **يعفون ويتجاوزون:**

ففي العفو والصفح عزٌّ في الدنيا والآخرة.

قال ﷺ: «ما نقَصَتْ صَدَقةٌ من مالٍ، وما زادَ الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضعَ أحدٌ لله إلا رفَعَهُ الله» [(٢)].

قال العلماء: في الحديث وجهان:

أحدهما: أن من عُرِفَ بالعفو ساد وعظم في القلوب وزاد عزه وإكرامه في الدنيا بسبب عفوه، فالحديث على ظاهره.

والثاني: أن المراد: أجره في الآخرة وعزه هناك بكثرة الثواب، وترك العقاب [(٣)].

* **يعفون ويتجاوزون:**

اقتـــداءً بالرسول ﷺ: فعن أنس رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نَجْرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدْرَكَهُ أعرابيٌّ، فَجَبَذَهُ بِردائِهِ جَبْذَةً شديدةً،

---

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (١٥/ ١١٦)، و«فيض القدير» (٥/ ٦١٠)، و«إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٤٥٧).

فنظرتُ إلى صَفْحَةِ عُنُقِ النبي ﷺ، وقد أَثَّرَتْ فيها حاشيةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ، ثم قال: يا مُحَمَّدُ! مُرْ لي مِنْ مالِ الله الذي عِنْدَك، فالتفت إليه فَضَحِكَ، ثم أَمَرَ له بِعَطاءٍ»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نَجدٍ، فلما قَفَل رسولُ الله ﷺ قَفَل معهُ، فأدركتهُم القائلةُ في وادٍ كثيرِ العِضاه -كلُّ شَجَرٍ يَعْظُمُ له شَوْكٌ- فنزل رسول الله ﷺ، وتفرَّقَ الناسُ يستظلُّون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرةٍ وعلّقَ بها سيفَه، ونمنا نومةً، فإذا رسول الله يدعونا، وإذا عنده أعرابيٌّ فقال: «إنّ هذا اخترطَ عليَّ سيفي وأنا نائمٌ، فاستيقظتُ وهو في يده صَلْتًا» -أي: مجردًا عن غمده- «فقال: من يمنعُك منِّي؟ فقلتُ: الله -ثلاثًا-»، ولم يُعاقبه وجلس، وفي رواية: «فها هو ذا جالسٌ، ثم لم يعاقبْهُ رسول الله ﷺ»[(٢)].

ووقع في رواية ابن إسحاق بعد قوله: «قالتُ: الله»: فدفع جبريل في صدره فوقع السيف من يده فأخذه النبي ﷺ وقال: «من يمنعك أنت مني؟» قال: لا أحد. قال: «قم فاذهب لشأنك»، فلما ولَّى قال: «أنت خير مني».

قال ابن حجر رحمه الله: «فمنَّ عليه، لشدة رغبة النبي ﷺ في استئلاف الكفار ليدخلوا في الإسلام ولم يؤخذ بما صنع، بل عفا عنه، وقد ذكر الواقدي في نحو هذه القصة أنه أسلم وأنه رجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير»[(٣)].

*** يعفون ويتجاوزون:**

سيرًا على نهج السلف الصالح

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قَدِمَ عُيينَةُ بن حِصن بنِ حذيفةَ فنزل على ابن أخيه

---

(١) رواه البخاري (٦٠٨٨)، ومسلم (١٠٥٧).
(٢) رواه البخاري (٢٩١٠، ٤١٣٥)، ومسلم (٨٤٣).
(٣) «فتح الباري» (٩/ ٥٤٤).

الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يُدنيهم عمُر وكان القُرّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كُهولًا كانوا أو شُبَّانًا فقال عُيينةُ لابن أخيه: يا ابن أخي لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذِنْ لي عليه، قال: سأستأذنُ لك عليه، قال ابنُ عباس فاستأذنَ الحرُّ لعيينة، فأذِنَ له عمر، فلما دخل عليه قال: هِيْ يا ابن الخطاب، فو الله ما تُعطينا الجَزْل، ولا تحكم بيننا بالعدل.

فغضب عمرُ حتى همَّ به، فقال له الحرّ: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾، وإنَّ هذا من الجاهلين، والله ما جاوَزَها عمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقّافًا عند كتاب الله»[1].

وقال مالكُ بن دينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أتَيْنا مَنْزِل الحَكَمِ بن أيُّوبَ -الثقفي ابن عم الحجاج بن يوسف- ليلًا وهو على البصرة أمير، وجاء الحسنُ وهو خائفٌ -وذلك لأن أهل البصرة كانوا قد خلعوا بيعة عبد الملك وأنكروا تولية الحجاج عليهم وبايعوا عبد الرحمن بن الأشعث -فَدَخلْنا معه عليه، فما كنَّا مع الحسن إلا بمنزلة الفَرَايج- وهي صغار الدجاج -فذكر الحسنُ للأمير قِصَّةَ يوسُف عليه السلام وما صنع به إخْوتُه، فقال: باعوا أخاهُم، وذكر ما لقيَ من كيدِ النساءِ، ومن الحَبْس، ثم قال: أيُّها الأميرُ، ماذا صنع اللهُ به؟ أدَاله منهُم[2] ورفعَ ذِكرَهُ، وأعلى كَلِمته، وجعله على خزائن الأرض، فماذا صنع يُوسُفُ حين أكملَ الله له أمْرَهُ وجمع له أهلهُ؟ وحضروا بين يديه، قال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

يُعَرِّضُ الحسنُ للحَكَمِ بالعَفْوِ عن أصحابه -من القراء إذ كان فيهم من مالأ مع ابن الأشعث-، قال الحَكَمُ: فأنا أقولُ: لا تثريب عليكم اليوم ولو لم أجِدْ إلا ثَوْبي هذا

---

(١) رواه البخاري (٤٦٤٢).

(٢) الإدَالَةُ: الغَلَبَةُ. يُقال: اللهم (أدِلْني) على فلانٍ وانصُرني عليه.

لواريتكُمْ تحتَهُ، أي لسترتكم به[(١)]، وساق الإمام البيهقي: عن سعيد بن مسروق قال: أصاب الربيع بن خثيم حجر في رأسه فشجّه فجعل يمسح الدم عن رأسه وهو يقول: اللّهم اغفر له فإنّه لم يتعمدني[(٢)].

إنهم يكظمون غيظهم، ويتبعون ذلك بالصفح والعفو، وذلك إحسان يكسبهم محبة الله تعالى التي خصّ بها المحسنين من عباده في قوله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٤] وذلك يدلُ على خوفهم من الله تعالى ويدل على حسن خلقهم[(٣)].

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من خاف الله لم يَشْفِ غيظه».

ساق البيهقي بسنده عن إسحاق بن منصور، قال: «سمعت أبي يقول لأحمدَ ابن حنبل: ما حسن الخلق ؟ قال: هو أن تحتمل ما يكون من الناس»[(٤)].

وقال صالح بن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دخلت على أبي يومًا فقلت بلغني أن رجلًا جاء إلى فضل الأنماطي، فقال: اجعلني في حِلٍّ إذا لم أقم بنصرتك، فقال فضل: لا جعلت أحدًا في حلٍ، فتبسم أبي وسكت، فلما كان بعد أيام قال لي: مررت بهذه الآية: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠] فنظرت في تفسيرها فإذا هو ما حدثني به هشام بن القاسم، حدثني المبارك، حدثني من سمع الحسن يقول: إذا جَثَتِ الأممُ بين يدي ربِّ العالمين يوم القيامة ونُودُوا: ليَقُم مَنْ أجره على الله فما يقوم إلا من عفا في الدنيا، قال أبي: فجعلتُ الميت في حلٍّ من ضربه إيايَ، ثم جعل يقول: وما على رجلٍ أن لا يُعَذِّبَ الله تعالى بسببه أحدًا؟»[(٥)].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٩/ ٤٦٦)، و«نضرة النعيم» (٧/ ٢٩٠٩).
(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١٤/ ٢٤٨/ ٧٧٣٨).
(٣) «شخصية المسلم» (ص:١٤٢).
(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٤/ ٢٣٨ ، ٢٤٨).
(٥) «الآداب الشرعية» (١/ ١٢٠).

*** يعفون ويتجاوزون:**

وإن كان من حق المظلوم أن ينتصر من الظالم، وأن يعاقب على السيئة بمثلها، وفق مقتضى العدل، إلا أنَّ العفو والصفح والمغفرة -من غير تشجيعٍ على الظلم والتمادي فيه- أكرمُ وأرحم، وهو ما تحضُّ عليه الأخلاق الإسلامية، وتدعو إليه مرتبة الإحسان، ومعلوم أن مرتبة الإحسان هي أعلى وأرفع من مرتبة العدل.

قال الإمام البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما مكافئة المسيء بإساءته بما يجوز في الشرع؛ فعليها جِبِلة أكثر الخلق، والذي استحبَّه أولو الأحلام والنُّهى من مكارم الأخلاق: التجاوز والعفو»[(١)].

وقال الإمامُ البغوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الانتصارُ من الظالم جائزٌ؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، وقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩]، ولكن الصبر أجمل، قال الله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٤٠]، وقال جل ذكره: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى:٤١-٤٣]، قال إبراهيم: كانوا يكرهون أن يُستذلوا فإذا قدروا عَفَوا»[(٢)].

وصف الله تعالى في هذه الآيات مستحقي ما عنده من خير باقٍ في نعيم الجنة بعدة صفات:

منها: أنهم يجازون على السيئة بمثلها دون زيادة، أو يرتقون إلى مرتبة أعلى من ذلك، وهي مرتبة العفو والإصلاح، والصبر والمغفرة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ يفيد أن الصبر والمغفرة إنما يكونان من إنسان صاحب إرادة قوية، ذات عزم في مواجهة الأمور الشديدة على الأنفس، وهذا مقام خلقي عظيم[(٣)].

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٦/ ١١٦).
(٢) «شرح السنة» (٦/ ٥٣٤).
(٣) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٨٠).

*** يعفون ويتجاوزون:**

كثيرًا دون تحديد لمرات العفو؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كم نَعْفُو عن الخادِمِ؟ فصمتَ، فلما كان في الثالثة قال: «اعفوا عنهُ في كلّ يومٍ سبْعينَ مرَّةً»(١).

يقضون حوائج الناس

اقتداءً بالنبي الرحيم صلى الله عليه وسلم الذي قضى حاجاتِ المحتاجين، وتألم لحال البؤساء المُعْدِمين.

روى الإمامُ مسلم عن جَريرْ بن عبد الله البَجَلي، قال: «كُنَّا عندَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صَدْرِ النَّهار -أي في أوله- فجاءَهُ قومٌ حُفَاةٌ عُراةٌ -أي أَخْلَقَتْ ثيابهم- مُجْتابِي النِّمار أو العَباء -أي مقطعي الثياب- مُتَقَلِّدِي السُّيُوف، عامَّتُهُم من مُضَر، بل كُلُّهمْ من مُضَر فتَمَعَّرَ وجْهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم -أي تغير لونه شفقةً وتألمًا لفقرهم- لما رأى بهم من الفاقةِ -أي الفقر والحاجة- فدخل ثم خَرَجَ، فأمر بلالًا فأذَّنَ وأقامَ، فصلى ثم خطب فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]».

والآية التي في الحشر: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

تَصَدَّق رجلٌ من ديناره، من دِرْهَمِه، من ثوبه، من صاع بُرِّه، من صاع تمره» حتى قال: «ولو بشق تمرةٍ»، قال: فجاءَ رجلٌ من الأنصار بِصُرَّةٍ كادت كَفُّهُ تَعْجِزُ عنها، بل قد عجَزَتْ: قال: ثمَّ تتابَعَ الناسُ، حتى رأيتُ كَوْمَيْنِ من طعامٍ وثياب، حتى

(١) رواه أبو داود (٥١٦٤)، وصححه الألباني.

رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتَهَلَّلُ».

أي يستنيرُ ويتلألأ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ -أي كأنه فضة مموهة بالذهب- فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من سنّ في الإسلام سُنَّةً حسنةً، فلهُ أجْرُها، وأجرُ من عمل بها بعدَهُ من غير أن ينْقُصَ من أُجورِهِم شيءٌ، ومَنْ سنَّ في الإسلام سُنَّة سَيئَةً، كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بها من بعدِهِ، من غير أن ينقُصَ من أوزارِهِم شيءٌ»(١).

إن إنسانية الرسول الكاملة لم تمرّ على مشهد فاقة القوم المضريّين مرور أكثر الناس الذين تبلّد حسهم الإنساني، فلا يجدون انفعالًا وجدانيًا نحو ذوي الحاجة يدفعهم لمواساتهم ورفع الضر عنهم، ولكنّ إنسانيته الكاملة صلوات الله وسلامُه عليه قد انفعلت لهذا المشهد انفعالًا بالغًا، ظهر في تلوّن وجهه رحمة بهم، ثم ظهر في دخوله إلى بيته لعلّه يجد عنده ما يواسيهم به، وحثهم بنفسه في خطبة مؤثرة رائعة على مواساة هؤلاء القوم ذوي الفاقة، وهو ما دفع المسلمين إلى أن يساهموا بمعوناتهم، حتى ترابى كومان من طعام وثياب بين يدي الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن ينفض الجمع عقب صلاة الظهر على ما يظهر، ويدل على كمال إنسانية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مشهده وقد امتلأ قلبه سرورًا وابتهاجًا، حتى طفح فظهر على وجهه تهلّلًا وإشراقًا وبشرًا، حينما رأى عطايا الصدقه تترابى بين يديه لسدّ حاجة هؤلاء الفقراء الذين قدموا إليه بائسين(٢).

* يقضون حوائج الناس:

اقتداءً بالسلف الصالح الذين كانوا يرون أن قضاء حاجة المحتاج أفضل من النوافل: قال الحسن البصري رحمه الله: «لأن أقضي حاجةً لأخٍ أحبُّ إليّ من أن أعتكف سنةً»(٣).

والذين يقضون حوائج الإخوان بالنفس والمال والأعوان.

---

(١) رواه مسلم (١٠١٧).
(٢) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٦٤٠).
(٣) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٨٩).

قال عبْدَان بن عثمان: «ما سألني أحدٌ حاجةً إلا قمتُ له بنفسي، فإن تَمَّ وإلا قمت له بما لي، فإن تمَّ وإلا استعنتُ بالإخوان، فإن تمَّ وإلا استعنت بالسلطان»[١].

والذين يتلذذون بقضاء حوائج المحتاج.

قال محمد بن المنكدر رَحِمَهُ اللَّهُ: لم يبق من لذة الدنيا إلا قضاء حوائج الإخوان[٢].

وقيل له: أيُّ الدنيا أحبُّ إليك ؟ قال: الإفضالُ على الإخوان[٣].

وذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الوزير الكبير أبي الحسن عليِّ بن أبي جعفر، قيل: «كان ابن الفُرات يلتذُّ بقضاء حوائج الرَّعية، وما ردّ أحدًا قطُّ عن حاجةٍ ردّ آيسٍ، بل يقول: تعاودُني، أو يقول: أعوِّضُك من هذا...

قال الصُّوليُّ: مرض مرَّةً فقال: ما غمّي بعلّتي بأشدّ من غمّي بتأخر حوائج الناس وفيهم المضطر»[٤].

*** يقضون حوائج الناس بذوق رفيع وأدبٍ عالٍ:**

فقد سأل رجلٌ عمران بن مسلم فأعطاه وبكى، فقيل له: ما يبكيك وقد قَضَيتَ حاجته ؟ قال: حيث أحوجته إلى مسألتي[٥].

وقال مطرف بن عبد الله: لبعض إخوانه: يا أبا فلان إذا كانت لك إليّ حاجة فلا تكلمني فيها ولكن اكتبها إليّ في رقعةً ثم ارفعها إليَّ، فإني أكره أن أرى في وجهك ذُلّ السؤال.

وقد قال الشاعر:

---

(١) «تهذيب الكمال» (١٥/ ٢٧٨).
(٢) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ١٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٥٦).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٤٧٦).
(٥) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٠٧).

لا تحسبن الموت موت البلى | وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا | أشد من ذاك لذل السؤال[1]

*** يقضون حوائج الناس ويرون الفضل لذوي الحاجة:**

قال ابن خارجة: «ولا قضيت لأحدٍ حاجةً إلا رأيت له الفضل عليَّ حيث جعلني في موضع حاجته»[2].

*** يقضون حوائج الناس ويحركون داعية الخير لقضاء الحوائج:**

فقد أخرج البخاري وغيره عن أبي بُردة عن أبيه أبي موسى قال: «كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائلُ أو طُلبت إليه حاجةٌ قال: «اشفعوا تؤجروا»، ويقضي الله على لسان نبيِّه ما شاء»[3].

قال العلماء: معناه: تقبل شفاعتكم أحيانًا فتكون سببًا لقضاء حاجة المحتاج فإذا عرض المحتاج حاجته عليَّ فاشفعوا له إليّ فإنكم إن شفعتم حصل لكم الأجر سواء قبلت شفاعتكم أم لا[4].

قال المناوي رحمه الله: «وهذا من مكارم أخلاق المصطفى ﷺ ليصلوا جَناحَ السائل وطالب الحاجة وهو تخلق بأخلاقه تعالى حيث يقول لنبيه: «اشفع تشفع»»[5].

وقد سار أصحابه رضي الله عنهم على منهجه ﷺ.

فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «إنّ الرَّجل يسألُني الشَّيءَ، فأمْنَعُهُ، حتّى

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٣٩).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٣٦).
(٣) رواه البخاري (١٤٣٢، ٦٠٢٧)، ومسلم (٢٦٢٧).
(٤) «فتح الباري» (١٣/ ٥٥٣)، و«حاشية السندي على سنن النسائي» (٥/ ٨١).
(٥) «فيض القدير» (١/ ٦٥٤).
والجناح: ما يساعد الطائر على الطَّيران. يقال: أصبح فلان مقصوص الجناح. أي: صار عاجزًا.

تشْفَعُوا فتُؤجَرُوا، وإن رسول الله ﷺ قال: «اشفعوا تُؤجروا»»[1].

* **يقضون حوائج الناس وهؤلاء هم الأحياء:**

قال بعض السلف: إذا سألت أخاك حاجة فلم يقضها فذكِّره لعله نسي فإن لم يفعل فَكَبِّرْ عليه واقرأ: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٣٦]، ويوافقه قول ابن شبرمة: «إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها؛ فتوضأ وكبِّر عليه أربع تكبيرات وعدّه في الموتى».

وكان من السلف من يقوم بعيال أخيه ويخدمهم بنفسه بعد موته أربعين سنة أكثر مما كان يقوم لهم به أبوهم[2].

* **يقضون حوائج الناس وهؤلاء هم الرجال الذين كتبت آثارهم:**

ساق ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ ترجمة عبد الله بن طاهر بن الحُسَيْنِ بن مُصْعَب، الذي ولّاه المأمون دمشق، ومصر، وكان جوادًا عادلًا، والذي عمّر رباطات خُرَاسان، ووقف لها الوُقُوف، وأظهر الصدقات، ووجّه أموالًا عظيمة إلى الحرمين، وافتدى أسرى المسلمين من الترك، وبلغ ما أنفقه في الأسارى ألفي ألف درهم.

وساق بسنده عن عبد الله بن مُحَمَّد الوراق قال: كان زكريا بن دلويه يزورُ كل جمعة قبر عبد الله بن طاهر فيخرق الأسواق، وطريقه على قبر أستاذه أحْمَد بن حرب، فلا يقف على قبره، فعوتب على ذلك فقال: إنّ أحْمَد بن حرب وغيره من العلماء والصّالحين لم يَعْدِمهم زُهْدهم، وآثارُ عبد الله بن طاهر باقيةٌ ما بقيت السماوات والأرض[3].

---

(١) رواه أبو داود (٥١٣٢)، والنسائي (٢٥٥٦)، وصححه الألباني.
(٢) «أسنى المطالب» (ص: ٢٤٠).
(٣) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٦١).

لا يغترون بالستر ويؤثرون الخمول طلبًا للسلامة ويكرهون الشهرة

قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بلغني أن عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لخالد بن صفوان: عظني وأوجز، قال: فقال خالد: يا أمير المؤمنين! إن أقوامًا غرّهم ستر الله عَزَّوَجَلَّ، وفتنهم حسن الثناء، فلا يغلبنّ جهل غيرك بك علمك بنفسك، أعاذنا الله وإيّاك أن نكون بالستر مغرورين، وبثناء الناس مسرورين، وعن ما افترض الله متخلّفين ومقصرين، وإلى الأهواء مائلين.

قال: فبكى ثمّ قال: أعاذنا الله وإيّاك من اتباع الهوى»[١].

وقال محمد بن الحسن بن هارون: «رأيت أبا عبد الله -أحمد بن حنبل- إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد.

قلت -أي الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: إيثارُ الخمول والتواضع، وكثرةُ الوَجَل من علامات التقوى والفلاح»[٢].

وعن أحمد بن أبي الحَواريّ، قال: «كنتُ أسمعُ وكيعًا يبتدئُ قبل أن يُحدِّث فيقول: ما هنالك إلا عَفْوُهُ، ولا نعيش إلا في سِتْرِه، ولو كُشفَ الغطاء لكشف عن أمر عظيم»[٣].

وجاء رجل إلى بشر بن الحارث -المشهور بالحافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- فقبّله، وجعل يقولُ: يا سيدي أبا نصر، فلما ذهب، قال بشر لأصحابه: «رجلٌ أحبَّ رجلًا على خبر توهّمه، لعلّ المُحبَّ قد نجا، والمحبوب لا يُدرى ما حاله»[٤].

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٨/ ٦٩).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٢٦).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٩٢).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٤٧٥).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة عبد الله بن ذكْوَان أبي الزناد الإمام الثبت: «قال الليث: رأيت أبا الزناد وخَلفه ثلاثمائة تابع مِنْ طالب علم وفِقْهٍ وشعر وصنوف، ثم لم يلبث أن بقي وحده، وأقبلوا على ربيعة، وكان ربيعة يقول: شِبْرٌ من حُظْوَةٍ -أي المكانة والمنزلة- خير من باع من علم.

قال الذهبي: اللهم اغفر لربيعة، بل شبر مِنْ جهل خير من باع من حُظوةٍ، فإنَّ الحُظْوَةَ وبالٌ على العالم، والسلامةُ في الخمول، فنسأل الله المسامحة»[(١)].

وقال إبراهيم بن أدهم: «ما صدق الله عبدٌ أحبَّ الشُهرة، قلت -أي الذهبي-: علامةُ المخلص الذي قد يُحِبُّ شهرةً، ولا يشعُرُ بها أنه إذا عُوتِبَ في ذلك، لا يحردُ -أي لا يغضب- ولا يُبرئ نفسه، بل يعترفُ، ويقول: رَحِمَ الله مِنْ أهدى إليّ عيوبي، ولا يكن معجبًا بنفسه لا يشعُر بعيوبها، بل لا يشعر أنه لا يشعر، فإن هذا داء مُزمِن»[(٢)].

وقيل لعلقمة بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ: «ألا تخرج فتحدث الناس؟ قال: أخرج، يتبعون عقبي ويقولون: هذا علقمة»[(٣)].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن كان الرجل ليكون فقيهًا جالسًا مع القوم، فيَرى بعضُ القوْم أن به عِيًّا وما به من عِيّ إلا كراهيته أن يَشتهر»[(٤)].

وعن الحسن أنه أراد الحج، فقال له ثابت البناني: «بلغني أنك تُريد الحج وأحببت أن نصطحب، فقال له الحسن، ويحك دعنا نتعاشر بستر الله عَزَّوَجَلَّ إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضُنا من بعضٍ ما نتماقتُ عليه»[(٥)].

وقال بشر بن عبد الله بن يسار السلمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أقلل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلًا»[(٦)].

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٤١٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٩٣).
(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ١٧).
(٤) «رسالة المسترشدين» (ص: ١٦٠).
(٥) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٣٦).
(٦) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ٣٢٣).

وقال جعفر بن الفضل بن جعفر الوزير المحدث رَحِمَهُ اللَّهُ:

مَنْ اخْمَلَ النفس احياها وروَّحها ... ولم يَبِتْ طاويًا منها على ضَجَر
إن الرِّياح إذا اشتدَّت عواصفُها ... فليس ترمي سوى العالي من الشجر[١]

وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبرنا شيخٌ من قضاعةَ، قال: ضللنا مرّةً الطّريق فاسترشدْنا عجوزًا، فقال: استبطن الوادي، وكن سَيْلًا حتى تبلغ»[٢].

وقال أحمدُ بن أبي الحَوارِيِّ: سمعتُ شعيب بن حرب يقولُ لرجلٍ: «إنْ دخلت القبر ومعكَ الإسلامُ، فأبْشِرْ».

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قد كانوا مع حُسْنِ القَصْدِ، وصحَّةِ النيَّة غالبًا، يخافون من الكلام، وإظهار المَعْرِفَةِ والفضيلة، واليوم يكثرون الكلام مع نَقْصِ العِلْم وسوء القَصْد، ثم إنّ الله يفضحُهم، ويلوحِ جُهلُهم وهواهُم واضطرابُهم فيما عَلِموه، فنسأل الله التوفيق والخلاص»[٣].

يكرهون المدح ويزهدون في ثناء الناس عليهم

* خوفًا من الفتنة والإعجاب بالنفس:

فعن عبد الرحمن بن أبي بَكْرَة، عن أبيه، قال: مَدَحَ رجُلٌ رَجُلًا، عند النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبِكَ، قطعْت عُنُقَ صاحبك» مرارًا -أي: أهلكته!- «إذا كان أحدُكُم مادِحًا صاحبه لا محالة فليقُل: أحْسِبُ فلانًا، والله حسيبُهُ ولا أزكِّي على الله أحدًا»[٤].

وقال: «إذا رأيتمُ المداحينَ، فاحثُوا في وجوهِهِمُ التُّراب»[٥].

---

(١) «تاريخ الإسلام» أحداث سنة (٣٨١-٤٠٠) (ص:٢٤٩).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٦/ ٢٣).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٤٦٤).
(٤) رواه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).
(٥) رواه مسلم (٣٠٠٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح، وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه.

قال العلماء: وطريق الجمع بينهما أن النهي محمول على المجازفة في المدح والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه، ورسوخ عقله ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كنشطه للخير والازدياد منه أو الدوام أو الاقتداء به كان مستحبًا، والله أعلم»[(١)].

* واقتداءً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

فعن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقْتُ في وفْدِ بني عامر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلنا: أنت سَيِّدُنا! فقال: «السَّيِّدُ اللهُ تبارك وتعالى» قلْنا: وأفضلُنا فضلًا، وأعظمُنا طَوْلًا، فقال: «قولوا بقولِكُم أو بعضِ قوْلِكُمْ، ولا يستجريَنَّكُمُ الشيطان»[(٢)].

يقولون: أنت أفضلنا مَزِيّة ومرتبة وعطاءً، وأنت سيدنا: المستحقُ للسُّؤدِد، أي: المجد والشرف، وهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، وقال عن نفسه: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، فقال لهم: لا يستعملنكم الشيطان فيما يريد من التعظيم للمخلوق بمقدار لا يجوز، وإنما قال لهم ذلك لأنهم قوم حديثُ عهد بالإسلام، وكانوا يحسبون أن السيادة بالنبوة بأسباب الدنيا، وكان لهم رؤساء يعظمونهم وينقادون لأمرهم، وقوله: «قولوا بقولكم» أي: بقول أهل دينكم، وملتكم وادعوني نبيًا ورسولًا كما سماني الله تعالى في كتابه، ولا تسموني سيدًا كما تسمون رؤساءكم وعظماءكم، ولا تجعلوني مثلهم فإني لست كأحدهم إذ كانوا ليسودونكم في أسباب الدنيا، وأنا أسودكم بالنبوة والرسالة، فسموني نبيًا ورسولًا[(٣)].

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ٩٩).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصححه الألباني.
(٣) «عون المعبود» (١٣/ ١١١-١١٢).

*** واقتداءً بالسلف الصالح -رحمهم الله-:**

فعن عدي بن أرطأة، قال: «كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ إذا زُكِّي -أي مُدح- قال: اللهم لا تؤاخذني بما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون»[1].

وقال رجل لعبد الله بن عمر: يا خير الناس، وابن خير الناس، فقال ابن عمر: «ما أنا بخير الناس، ولا ابن خير الناس، ولكني عبد من عباد الله ﷻ أرجو الله ﷻ وأخافه، والله لن تزالوا بالرجل حتى تهلكوه»[2].

وعن عمرو بن عثمان الحمصي قال: حدثنا خالد بن يزيد، عن جَعْوَنة قال: «دخل رجل على عمر بن عبد العزيز فقال: يا أمير المؤمنين، إن مَنْ قبلك كانت الخلافة لهم زينًا، وأنت زَيْنُ الخِلافة، فأعرض عنه»[3].

وقال رجل لميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا أبا أيُّوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، فقال له ميمون: أقبل على شأنك أيها الرجل، فلا يزال الناس بخير ما اتقوا ربّهم»[4].

ومر حارثةُ بن بدر بمجلس من مجالس قومه -بني تميم- ومعه كعب مولاه، فكلما اجتاز بقوم قاموا إليه وقالوا: مرحبًا بسيدنا، فلما ولى قال له كعب: ما سمعت كلامًا قط أقر لعيني، ولا ألذ بسمعي من هذا الكلام الذي سمعته اليوم، فقال له حارثة: لكني لم أسمع كلامًا قط أكره لنفسي وأبغض إليّ مما سمعته ! قال: ولم ؟ قال: ويحك يا كعب، إنما سودني قومي حين ذهب خيارهم، وأماثلهم، فاحفظ عني هذا، ثم أنشده:

خَلَتِ الديارُ فسُدْتُ غير مُسوَّدِ ... ومن الشَّقاء تفرُّدي بالسُّؤدَدِ[1]

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٦١)، وصححه الألباني.

(٢) «صفة الصفوة» (١/ ٢٠٤)، ط. المكتبة العصرية.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٦).

(٤) «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٢٧٠).

(٥) «البيان والتبيين» (٢/ ٨٧٨).

وقال الفضيل رَحِمَهُ اللَّهُ: «علامة الزهد في الناس: إذا لم يحب ثناء الناس عليه، ولم يبال بمذمتهم، وإن قدرت أن لا تُعرف فافعل، وما عليك أن لا تُعرف، وما عليك أن لا يثنى عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس، إذا كنت محمودًا عند الله، ومن أحب أن يذكر، لم يذكر ومن كره أن يذكر ذكر»(١).

وقال يوسف بن أسباط رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عالج المتعبدون شيئًا أشدَّ عليهم من اتقاء حبِّ الثناء، وهم يريدون بذلك الناس»(٢).

وقال وهب بن منبّه: «إذا سمعتَ منْ يمدحُك بما ليس فيك؛ فلا تأمنْه أن يَذُمَّك بما ليس فيك»(٣).

وعن علي بن الحُسين بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يقول رجلٌ في رجلٍ من الخير ما لا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشرِّ ما لا يعلم»(٤).

يردون الكذب على من مدح بالباطل

أسند الصولي عن سعيد بن مسلم قال: «إني لأرجو أن يغفر الله للهادي موسى ابن المهدي بن المنصور -الخليفة العباسي- بشيءٍ رأيته منه، حضرته يومًا وأبو الخطاب السعدي ينشده قصيدة في مدحه إلى أن قال:

يا خير من عقَدَتْ كفاه حَجْزَتَهُ ... وخير من قلَّدته أمرَها مُضَرُ

فقال له الهادي: إلا منْ؟ ويلك! قال سعيد: ولم يكن استثنى في شعره، فقلت: يا أمير المؤمنين إنما يعني من أهل هذا الزمان، ففكر الشاعر فقال:

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٢/ ١٤).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ٢٠).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٥٠).

(٤) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ١٧٩).

إلا الـــــنبيَّ رســـــول الله إن لـــــه فَـضلاً وأنــت بــذاك الفخــر تفتخــر

فقال: الآن أصبت وأحسنت وأمر له بخمسين ألف درهم»[١].

وعن سالم، أن شاعرًا مدح بلالَ بن عبد الله بن عمر فقال: «وبلال عبد الله خير بلال. فقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: كذبت، بل وبلال رسول الله خير بلال»[٢].

يبعدون أنفسهم عن مواضع التُّهم

*** شفقة على الناس وصيانةً لقلوبهم عن سوء الظن:**

فعن علي بن الحسين رضي الله عنهما عن صفيَّة بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها، قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم مُعْتكفًا، فأتيتُهُ أزُورُه ليلًا فحدَّثْتُه، ثم قُمْتُ لأنْقلِبَ، فقام معي لِيَقلِبني، وكان مسْكَنُها في دار أسامة بن زيدٍ فمر رَجُلان من الأنصار، فلما رأيا النبيَّ صلى الله عليه وسلم أسرعا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «على رِسْلِكُما -أي: على هينتكما في المشي- فما هنا شيء تكرهانه، إنّها صفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ»، فقالا: سبحان الله! يا رسول الله! -تعجبًا من ذلك وكبُر عليهما- قال: «إن الشيطان يَجري من الإنسان مَجْرَى الدم، وإني خشيتُ أن يَقْذِفَ في قلوبكما شرًا» أو قال: «شيئًا»[٣].

قال المناوي رحمه الله: «قال الغزالي: فانظر كيف أشفق على دينهما فحرسهما، وكيف أشفق على أمته فعلمهم طريق التحرز من التهم حتى لا يتساهل العالم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول: مِثلي لا يظن به إلا خيرًا إعجابًا منه بنفسه فإن أورع الناس، وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة بل بعين الرضى بعضهم، وبعين السخط بعضهم فيجب التحرز عن تهمة الأشرار»[٤].

---

(١) «تاريخ الخلفاء» (ص:٣٢٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/ ٣٤٩).
(٣) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).
(٤) «فيض القدير» (٢/ ٤٤٦).

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فيه فوائد منها: بيان كمال شفقته ﷺ على أمته ومراعاته لمصالحهم وصيانة قلوبهم وجوارحهم، وكان بالمؤمنين رحيمًا فخاف ﷺ أن يلقي الشيطان في قلوبهما فيهلكهما فإن الظن السوء بالأنبياء كفر بالإجماع، والكبائر غير جائزة عليهم»(١).

وجاء في «آداب الشافعي ومناقبه» للإمام الرازي: «أن ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال للشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -وكان الشافعي في مجلس ابن عيينة-: ما فِقْهُ هذا الحديث يا أبا عبد الله؟ قال: إن كان القومُ اتَّهَمُوا النبيَّ ﷺ كانوا بتُهْمتِهِم إياهُ كُفَّارًا، لكنَّ النبي ﷺ أدَّبَ من بعده -أي علمه وأرشده- فقال: إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا، حتى لا يُظَنَّ بكم ظَنُّ السَّوْء، لا أن النبي ﷺ يُتَّهمُ، وهو أمينُ الله ﷻ في أرضه.

فقال ابن عيينة: جزاك الله خيرًا يا أبا عبد الله، ما يجيئنا منك إلا كلُّ ما نحِبُّه»(٢).

وذكره ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال: «رواه الحاكم».

وقال: «إن النبي ﷺ لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءًا لما تقرر عنده من صدق إيمانهما، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما، الشيطان ذلك لأنهما غير معصومين، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك فبادر إلى إعلامهما حسمًا للمادة، وتعليمًا لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك».

وفي الحديث فوائد منها:

* التحرز من التعرض لسوء الظن والاحتفاظ من كيد الشيطان والاعتذار.

* وهذا متأكد في حق العلماء ومن يُقتدى به فلا يجوز لهم أن يفعلوا فعلًا يوجب سوء الظن بهم وإن كان فيه مخلص لأن ذلك سبب إلى إبطال الانتفاع بعلمهم، ومن ثم

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ١٣١).
(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص:٦٩).

قال بعض العلماء: «ينبغي للحاكم أن يبين للمحكوم عليه وجه الحكم إذا كان خافيًا نفيًا للتهمة، ومن هنا يظهر خطأ من يتظاهر بمظاهر السوء، ويعتذر بأنه يجرب بذلك على نفسه»(١).

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومن من أساء الظن به»، نقله الذهبي في مناقب عمر، ومرّ رضي الله عنه برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة -أي رام أن يضربه بها- فقال: مه يا أمير المؤمنين إنها امرأتي -أي ليست بأجنبية-، فقال: فهلا حيث لا يراك الناس، أورده الذهبي والإسماعيلي كلاهما في مناقب عمر»(٢).

*** يبعدون أنفسهم عن مواضع التهم:**

يريدون السلامة للناس

أخرج البيهقي عن عيسى بن يونس: «كان الأعمش يقود المغيرة إلى إبراهيم فلما انتهى إلى أزقة الكوفة صاح بهم الصبيان: عينين بن اثنين، عينين بين اثنين، فكان بعد ذلك الأعمش إذا انتهى إلى الأزقة خلا عن مغيرة، قَاَل، فقال له الأعمش: نؤجر ويأثمون. فقال: بل نسلم ويسلمون»(٣).

وذكره الجاحظ بلفظ: «قال إبراهيم النخعي لسليمان الأعمش -وأراد أن يُماشيه- إن الناس إذا رأونا معًا قالوا: أعور وأعمش! قال: وما عليك أن يأثموا ونؤجر؟ قال إبراهيم: وما عليك أن يَسْلموا و تسلم»(٤).

وعن مالك بن دينار قال: «بلغني أن معاوية بن أبي سفيان قال للأحنف بن قيس: بم سدت قومك أنت ولست بأتمهم ولا أشرفهم؟ قال: إني لا أتكلف ما كفيتُ، ولا أضيع ما وليتُ، ولو أن الناس كرهوا شرب الماء ما طعمتُه»(٥).

(١) «فتح الباري» (٥/ ٣٥٢).
(٢) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ٢١١).
(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ١٧٤/ ٦٣٨٥).
(٤) «البيان والتبيين» (١/ ٤٤٣).
(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ١٧٤/ ٦٣٨٦).

يكرمون طلاب العلم ويتلطفون معهم ويرفقون بهم

اقتداءً بالنبي الكريم ﷺ، فقد كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه إذا رأى طلبة العلم قال: «مرحبًا بوصية رسول الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يوصينا بكُمْ»، يعني: طلبة الحديث[(١)].

قال المناوي رحمه الله: أي رحبت بلادكم واتسعت وأتيتم أهلًا لا غربًا، فاستأنسوا ولا تستوحشوا، وقد درج السلف على قبول وصيته، فكان أبو حنيفة يكثر مجالسة طلبته ويخصهم بمزيد الإكرام وصرف العناية في التعظيم[(٢)].

واقتداءً بالسلف الصالح - رحمهم الله ـ فقد خرج ابن مسعود رضي الله عنه على أصحابه وهم يتذاكرون، ويتدارسون: علقمةَ، والأسود، ومسروق، وأصحابهم، فوقف عليهم، قال: بأبي وأمي العلماء، بروح الله ائتلفتم، وكتاب الله تلوتم، ومسجد الله عمّرتم، ورحمة الله انتظرتم، ثم أحبكم الله، وأحبّ من أحبكم[(٣)].

وروى محمد بن خالد عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير، قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلى عماله أن أجروا على طلبة العلم الرزق، وفرغوهم للطلب[(٤)].

وقال خطيب الموصل أبو الفضل: «حدثني أبي قال: توجهت من الموصل سنة ٤٥٩ إلى أبي إسحاق الشيرازي -شيخ الإسلام- فلما حضرتُ عنده رحَّب بي، وقال: من أين أنت؟ فقلت: من الموصل، قال: مرحبًا أنت بَلديِّي، فقلت: يا سيدنا؟ أنت من فيروز آباد، قال: أما جمعَتْنا سفينة نوح؟ فشاهدت من حُسن أخلاقه ولطافته، وزهُده ما حبَّبَ إلى لُزومه، فصحبته إلى أن مات»[(٥)].

---

(١) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٨٠).
(٢) «فيض القدير» (٧/ ٣٥٦١).
(٣) «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٢٨٣).
(٤) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٨٦).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٤٦٠).

وعن يحيى بن صالح الوُحاظي، قال: ما رأيتُ رجلًا أكبر نفسًا من إسماعيل بن عيَّاش، كنا إذا أتيناه إلى مزرعته لا يرضى لنا إلا بالخروف والخبيص، قال: وسمعته يقول: ورثت عن أبي أربعة آلاف دينار، فأنفقتها في طلب العلم [(١)].

وعن أبي عثمان الوراق قال: اجتمع أصحاب الحديث عند وكيع، قال: وعليه ثوب أبيض فانقلبت المَحْبَرَةُ على ثوبه، فسكت مَلِيًّا ثم قال: ما أحسن السواد في البياض [(٢)].

وكان لنوفل بن فرات بن مسلم مجلس في مسجد حلب يجلس إليه أهل الأدب، وكان فيمن يغشى مجلسه رجلٌ من أهل السوق.

فكان إذا طلع قال لجلسائه: أعطوا أخاكم حظه من المجلس، فإذا جاء أقبل عليه فقال: كيف أسعاركم، ثم يسأله عن أصناف التجار، ثم يقول لأصحابه: خذوا في حديثكم [(٣)].

يتعاملون بالمروءة

قال أبو محمد أحمد بن الحسن - الجريري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعامل الناس في القرن الأول (وهو بعد المائة من الهجرة) بالدين حتى رق الدين، أي ضعف أمره، وتعاملوا في القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعاملوا في القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ولم يبق - بعد ذلك - إلا الرغبة والرهبة.

ولقد استظرف من قال في ذهاب المروءة:

مررت على المروءة وهي تبكي ... فقلت لها وما تبكي الفتاةُ ؟
فقالت: كيف لا ابكي وأهلي ... جميعًا دون أهل الناس ماتُوا [(١)]

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣/ ١٧٠).
(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ٣٥٠).
(٣) «تاريخ دمشق» (٦٥/ ٢٢٢).
(٤) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ٤٢).

وعن ابن عائشة قال: «سمعتُ أبي يقول: سُئِل الأحنف بن قيس: ما المروءة؟ قال: كتمان السِّرِّ، والتباعد عن الشر».

وقيل لبعض الحكماء: «ما المروءة؟ قال: إنصاف من هو دونَكَ والسمو إلى من هو فوقك».

وقيل لعمرو بن العاص رضي الله عنه: «ما المروءة ؟ قال: أدبٌ بارع، ولسان قاطع»[(١)].

وقال إبراهيم بن محمد المعروف بالإمام: «الكاملُ المروءة من أحرَزَ دينه، ووصل رحِمَهُ، واجتنب ما يُلام عليه»[(٢)].

وقال ربيعة بن أبي عبد الرحمن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المروءةُ ستُّ خصال: ثلاثٌ في الحضر، وثلاثٌ في السفر، فأمّا الثلاث التي في الحضر: فتلاوة القرآن، وعمارة مساجد الله، واتّخاذ الإخوان في الله، وأما الثلاث التي في السفر، فبذلُ الزاد، وحُسْنُ الخلق، وكثرة المزاح في غير معصية»[(٣)].

وسئل علي بن أحمد بن سهل -أبو الحَسن البُوْشَنْجِي- عن المروءة فقال: «ترك استعمال ما هو محرّم عليك مع الكرام الكاتبين، وفي رواية: ترك ما يكره الكرام الكاتبون»[(٤)].

وقال محمد بن عمران التَّيْمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما شيءٌ أشدَّ حملًا عليّ من المروءة. قيل: وأي شيءٍ المروءة؟ قال: لا تعمل شيئًا في السرِّ تستحي منه في العلانية».

وقال ميمون بن ميمون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أوّل المروءة طلاقة الوجه، والثاني التودد، والثالث قضاء الحوائج»[(٥)].

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ١٩٨).
(٢) «تاريخ دمشق» (٧/ ١٤٧).
(٣) «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٥٦).
(٤) «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٢١).
(٥) «عيون الأخبار» (١/ ٣٤٢).

يمزحون ويضحكون دون خلل بالإيمان

سئل ابن عمر رضي الله عنهما: «هل كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال»[١]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله ! إنَّكَ تداعبُنَا ؟ -أي تمازحنا- قال: «إنِّي لا أقولُ إلا حقًّا»[٢]

وعن بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتبادَحون -أي: يترامون- بالبِّطِيخ، فإذا كانت الحقائقُ كانوا همُ الرِّجال[٣]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رَجُلًا اسْتَحْمَل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنِّي حامِلُكَ على وَلَد الناقةِ»، فقال: يا رسول الله! ما أَصْنَعُ بِوَلَدِ الناقة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وهل تَلِدُ الإبلَ إلا النُّوقُ؟!»[٤]

وعن ثابت بن عبيد قال: «ما رأيت أحدًا أجلَّ إذا جلس مع القوم، ولا أفكه في بيته من زيد بن ثابت رضي الله عنه »[٥]. وأفكه: من الفاكهة أي الممازحة والانبساط.

وقال في «عون المعبود»: «وفي هذه الأحاديث إباحة المزاح والدعابة، وكان صلى الله عليه وسلم يداعب أصحابه ولا يقول إلا حقًّا، وأخرج الترمذي من حديث ابن عباس رفعه «لا تمارِ أخاك، ولا تمازِحْهُ»[٦]، والجمع بينهما أن المنهي عنه ما فيه إفراط ومداومة عليه لما فيه من الشغل عن ذكر الله والتفكر في مهمات الدين ويؤدي إلى قسوة القلب

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٣٨٥).

(٢) رواه الترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٦)، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي (١٩٩١)، وصححه الألباني.

(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٦)، وصححه الألباني.

(٦) رواه الترمذي (١٩٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٩٤)، وضعفه الألباني.

والإيذاء والحقد وسقوط المهابة والوقار والذي يسلم من ذلك هو المباح، فإن صادف مصلحة مثل تطييب نفس المخاطب ومؤانسته فهو مستحب»(١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: «من الغلط أن يتخذ المزاح حرفة ويتمسك بأنه صلى الله عليه وسلم قد مزح، فهو كمن يدور مع الريح حيث دار، وينظر إلى رقص الحبشة ويتمسك بأنه صلى الله عليه وسلم أذن لعائشة أن تنظر إليهم»(٢).

قلت: ومثل هذا التوجيه هو الذي يتفق مع ما أخرجه ابن أبي الدنيا بسنده عن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، قال: قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: اتقوا الله، وإيَّايَ والمُزَاحَةَ، فإنها تُورثُ الضغينة، وتَجُرُّ القبيحة، تحدَّثوا بالقرآن، وتجالسوا به، فإن ثقل عليكم، فحديثٌ حسنٌ من حديث الرِّجال(٣).

وكذا ما أخرجه ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ عن سعيد بن العاص رضي الله عنه، أنه قال لابنه: «لا تمازح الشريف فيحقد عليك، ولا الدّنيء فتهون عليه»(٤).

لا يحسد بعضهم بعضًا

والحسد هو الاغتمام بالنعمة يراها لأخيه المسلم، والتمنِّي لزوالها عنه، ثم قد يتمنى مع هذا أن تكون تلك النعمة له دونه، والحاسد غير الغابط؛ لأن الحاسد مَنْ لا يحب الخير لغيره، ويتمنى زواله عنه، والغابط مَنْ يتمنى أن يكون له من الخير مثل ما لغيره، من غير إرادةِ إذهاب ما لغيره، والحسد من شر معاصي القلوب، ومعاصي القلوب أشد إثمًا من كثير من معاصي الجوارح، نظرًا إلى آثارها الخطيرة في السلوك.

---

(١) «عون المعبود» (١٣/ ٢٣٤).
(٢) «فضل الله الصمد» (١/ ٤١١).
(٣) «الصمت وأدب اللسان» (ص: ٢١٠)، وقال الحويني -حفظه الله-: «رجاله ثقات».
(٤) «تاريخ دمشق» (٢٣/ ٩٨).

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من الحسد تحذيرًا شديدًا إذ أخبر أن الحسد والإيمان لا يجتمعان في قلب مؤمن فقال: «ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمان والحسد»(١).

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه فقال: «لا تحاسدوا»(٢).

والحسدُ خلقٌ ذميمٌ، ودنيءٌ، مضرٌ بالبدن، ومفسرٌ للدِّين.

عن الزبير بن العوَّام رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دبَّ إليكم داء الأمم قبلكم، الحسد والبغضاءُ، هي الحالقةُ، لا أقولُ: تَحْلِقُ الشَّعَرَ، ولكِنْ تَحْلِقُ الدِّين»(٣).

والحسدُ أحدُ أصولُ الخطايا والشر.

قال ابن القيم رحمه الله: «أصول الخطايا كلِّها ثلاثةٌ:

الكِبْرُ: وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصارهُ.

والحرصُ: وهو الذي أخرج آدم من الجنَّةِ.

والحَسَدُ: وهو الذي جَرَّأ أحد ابنيْ آدم على أخيه فَمَنْ وُقِيَ شرَّ هذه الثلاثة، فقد وقى الشَّرَّ.

فالكفرُ من الكبر، والمعاصي مِنْ الحِرْص، والبغْي والظلم من الحسد»(٤).

وعلة داء الحسد ترجع إلى إفراط في الأنانية وحب الذات، مع ضعف في الإيمان بكمال حكمة الله تعالى.

الأمر الذي يفضي إلى الاعتراض على الله تعالى في حكمته التي وزع على مقتضاها عطاءه بين خلقه ليبلوهم فيما آتاهم، فضرره من هذه الناحية يمس جانب الإيمان ويؤثر

---

(١) رواه ابن ماجه (٢٧٧٤)، وابن حبان (٤٥٨٧)، وصححه الألباني.
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٣).
(٣) رواه الترمذي (٢٥١٠)، وحسنه الألباني.
(٤) «الفوائد» (ص: ١٤٥).

عليه، فالحاسد يعتقد إحسان الله تعالى إلى أخيه المسلم إساءة إليه، وهذا جهل منه، وقد يكون الحاسد متسخطًا لقضاء الله، وذلك يدنيه من الكفر.

والحاسد بذلك قد أساء الأدبَ مع الله تعالى.

قال الشاعر:

الا قـل لمـن بـات لـي حاسـدًا ... اتـدري علـى مـن اسـات الأدب
اسـات علـى الله في حكمـه ... بانـك لم تـرض لـي مـا وهـب

وقال بعض الحكماء: «مَنْ رضيَ بقضاء الله تعالى لم يُسْخِطْه أحدٌ، ومن قنع بعطائهِ لم يَدْخُلْهُ حَسَدٌ»[1].

والحاسدُ يحمِّل نفسه وقلبه أثقال آلام الحرمان، ويوقد فيهما نيران الغيرة، ويعيش مع نفسه في بركانٍ من التعاسة والشقاء، إن ناره تأكل قلبه، حتى تقتله.

قال علي بن محمد بن فهد أبو الحسين التُّهاميّ الشاعر:

إنّـي لأرحـمُ حاسـديَّ لَحـرِّ مـا ... ضَـمَّتْ صُـدُورُهمُ مـن الأوغـار
نظـروا صـنيع الله بـي فعيـونُهُم ... في جنـةٍ وقلـوبُهُم في نـار[1]

إنه لا يجد لحسرته انتهاء، ولا يؤمل لسقامة شفاء، ومن هنا قال الأحنف بن قيس: لا راحة لحسود.

وقال ذو النون: الحسد داءٌ لا يبرأ، وفي لفظ: جرح وما يبرأ، وقد أحسن من قال:

تجانـب الحـرْصَ ودَعْ عنـك الحسدْ ... ففيهمـا الـذل وإتعـابُ الجسـد[1]

---

(١) ينظر: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (١/ ٧٨٩)، و«شعب الإيمان» (٥/ ٢٦٣).
(٢) «تاريخ الإسلام» أحداث سنة (٤٠٠-٤٢٠) (ص:٤٠٥).
والأوغار: الحقد والغيظ.
(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (١٢/ ٣٤، ٤٠).

قال المنفلوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد جعل الله لكلِّ ذنبٍ عقوبةً مستقلّةً يتألم لها المذنب عند حلول أجلها، فالشارب يتألم عند حلول المرض، والمقامر يتألم يوم نزول الفقر، والسارق يتألم يوم دخول السِّجن.

أما الحاسد فعقوبته حاضرة دائمة، لا تفارقه ساعةً واحدة، إنه يتألم لمنظر النِّعمة كلما رآها، والنِّعمة موجود من الموجودات الثابتة التي لا يلمّ بها إلا التنقُّل من مظهر إلى مظهر، والتحوّل من موقفٍ إلى موقف فهيهات أن يفنى ألمه، أو ينقضي عذابه، حتى تقرّ عينه التي تبصر ويسكن قلبه الذي ينبض»(١)

والحاسد لا سبيل إلى إرضائه؛ لأنه لا يرضى إلا بزوال النعمة عن المحسود.

قال معاوية رضي الله عنه: «كُلُّ الناسِ أقدر على رِضاهُ إلا حاسدَ نَعمةٍ فإنه لا يُرضيه إلا زوالها»، ولذلك قيل: «كُلُّ العداوات ترجى إماتتُها إلا عداوةَ من عادَاك عن حَسَدٍ»(٢)

والحاسد يكفيه من الشر أنه شارك إبليس في الحسد، وفارق الأنبياء في حبهم الخير لكل أحد.

ومن سمات المسلم الحق صفاء النفس من الغشِّ والحسد، ومن الغدر والضغينة وأثر ذلك رفع مكانته عند الله تعالى.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول! أي الناس أفضل؟ قال: «أفضلُ الناس كلُّ مَخْمُوم القلب، صدُوقُ اللسانِ»، قالوا: صدوق اللسان نعرفُهُ، فما مَخْمُومُ القلبِ؟ قال: «التَقيُّ النَقيُّ، لا إثم فيه، ولا بغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حَسَدَ»(٣)

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع حسد في دين ولا

---

(١) «النظرات» (٢/ ١١٢).

(٢) «عيون الأخبار» (٢/ ٤٠٧).

(٣) رواه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٤٨).

دنيا... وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ يعني مما أوتي أحبابهم من دين ودنيا ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ ووجود الحاجة في هذا الموضع: هو الحسد»[١].

ولقد توجه العلماء للحاسد بتعجُّبٍ فقالوا: «اعلم أنك إنما تحسد إخوانك على الدنيا وحطامها، وأما قوام الليل وصوام النهار فلا أراك تحسدهم، فبالله عليك اعرف قدر الدنيا واعلم أنها هموم متراكمة، وغموم متلاطمة، وحساب وعذاب، وهي خرق وتراب، وصور وخراب، فرحم الله امرأ عرف نفسه، وعرف الدنيا وعمل على مقتضى كل بحسبه»[٢].

يصدقون ولا يغشون ولا يخدعون ولا يغدرون

ذلك أن مقتضى الصدق -مع الناس- النصيحةُ والصفاءُ والإنصافُ والوفاءُ، لا الغش والخديعة والمخاتلة والمراوغة والتحايل والإجحاف والغدر.

والخديعة لا تليق بالمؤمنين إذ هي تنافي النصح وسلامة الصدور، والمودة والمحبة، وتنبت الإثم والبغي والغل والحسد والحقد، وقد قال ﷺ: «مَنْ حمل علينا السلاحَ فليسَ منَّا، ومن غَشَّنَا فليس منّا»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرَةِ طعامٍ -الصبرة الكومة المجموعة من الطعام- فأدخلَ يده فيها، فنالت أصابِعُهُ بللًا، فقال: «ما هذا يا صاحبَ الطعام؟» قال: أصابَتْهُ السَّماءُ يا رسول الله! قال: «أفلا جَعَلْتَهُ فوْقَ الطَّعامِ كي يراهُ الناسُ؟ مَنْ غَشّ فليس مني»[٤].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٤١).
(٢) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٢٣).
(٣) رواه مسلم (١٠١).
(٤) رواه مسلم (١٠٢).

ولقد اشتدّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالتنديد بالغِشّ والخديعة والغدر، فلم يكتف بنبذ الغشّاش الغدّار، ورَمْيِه بعيدًا عن مجتمع المسلمين في الدنيا، بل أعلن أن كل غادر سيُحشَر يوم القيامة، وهو يحمل لواء غَدْرَتِهِ، والمنادي ينادي في ساحة العرض الكبير، دالًا عليه، لافتًا إلى غدرته الأنظار، ذلك في قوله: «لكُلِّ غادِرٍ لواءٌ يومَ القيامَةِ، يُقالُ: هذه غَدْرَةُ فُلانٍ». متفق عليه.

فيالخَجْلةِ الغدّارين الذين حسبوا أن غدراتهم طوَتْها الأيام، فإذا هي تُنشر يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، وألويتها مرفوعة بأيديهم، وإن خجلتهم لتزدادُ سوءًا وخزيًا يوم القيامة، حين يجدون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المؤمّل المُرجَّى للشفاعة في هذا الموقف الرهيب، يعلن أن ربّ العزة يقف خصمًا لهم؛ لأنهم اقترفوا جريمة الغدر الفادحة، وإنها لجريمة كبرى، تحجب عن صاحبها:، وتحرمه شفاعة رسوله الكريم: قال الله تعالى: «ثلاثةٌ أنا خَصْمُهُم يومَ القيامة: رجلٌ أعطى بي ثمَّ غَدَر، ورجلٌ باعَ حُرًا فأكل ثَمَنَهُ، ورجُلٌ استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يُعْطِه أجْرَهُ». رواه البخاري.

إن المسلم الحق الذي أرهف الإسلام مشاعره، وفتح نوافذ البصيرة في نفسه، لَيَأنَفَ من الخديعة والغشّ والغدر والكذب مهما جرت عليه هذه الصفات من منافع، ومهما حققت له من مكسب؛ ذلك أن هَدْيَ الإسلام يعدّ أصحاب هذه الصفات من المنافقين، وإن المنافقين لفي الدَّرْك الأسفل من النار، ولا ناصر لهم يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كان مُنافقًا خالصًا، ومَنْ كانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كان فيه خَصْلَةٌ من النِّفاق حتّى يَدَعَها: إذا اؤتُمن خان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهَدَ غَدَر، وإذا خاصَم فَجَر». متفق عليه [(١)].

(١) «شخصية المسلم» (ص:١٦٤)، و«غذاء الألباب» (١/ ١٠١).

ومن هدى السلف في الصدق وعدم الخديعة ما أخرجه ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن زياد بن الربيع اليحمدي، عن أبيه قال: «رأيت محمد بن واسع يبيع حمارًا له، بسوق مرو، فقال له رجل: يا أبا عبد الله أترضاه لي ؟ قال: لو رضيته لم أبعه»[(١)].

وجاء رجل إلى ميمون يخطب إليه ابنته، فقال: «لا أرضاها لك، قال: ولم؟ قال: لأنها تحب الحُلي والحلل، قال: عندي من هذا ما تريده: قال: فالآن الذي لا أرضاك لها»[(٢)].

وساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا بسنده عن عمرو بن ميمون: «حدثني أبي: أن أخًا لبلال رضي الله عنه -هو خالد بن رباح- كان ينتمي إلى العرب ويزعم أنه منهم، فخطب امرأة من العرب، فقالوا: إن حضر فلان زوجناك قال: فحضر بلال فشهد وقال: أنا بلال ابن رباح وهذا أخي، وهو امرؤ سوء في الخلق، وإن شئتم أن تزوجوه، وإن شئتم تَدَعوا فدعُوا. فقالوا: من تكن أخاه نزوّجه فزوجوه»[(٣)].

وقال محمد بن جُحادة: «كان زاذان -أبو عمر الكندي- تاجرًا يبيع الثياب، فكان إذا جاءه الرجل أراه شرّ الطرفين»[(٤)].

لا يذيعون الفاحشة بين الناس ويعملون على نظافة المجتمع

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «القائل الفاحشة، والذي يشيع بها -أي يذيع الفاحشة- في الإثم سواء»[(٥)].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥٩/ ٩٥).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٢٦٩).
(٣) «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٦).
(٤) «سير السلف الصالحين» (٣/ ٧٦٩).
(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٤)، وحسنه الألباني.

وعن شُبيل بن عوف قال: كان يقال: من سمع بفاحشة فأفشاها، فهو فيها كالذي أبداها.

وعن عطاء بن أبي رباح أنه كان يرى النَّكال على من أشاع الزنا.

يقول: «أشاع الفاحشة»[١].

وقال علي رضي الله عنه: «لا تكونوا عُجُلًا مذاييع».

والمراد الذين يشيعون الفاحشة.

وعن علقمة بن أبي علقمة، عن أمه، عن عائشة رضي الله عنها، أنه بلغها أن أهل بيت في دارها كانوا سكانًا فيها عندهم نَرْدٌ [لعبة وضعها أرد شير بن بابك، أحد ملوك الفرس، وهي لعبة ذات صندوق وحجارة وفصَّين، وتعرف عند العامّة بـ (الطاولة)]، فأرسلت إليهم: لئن لم تخرجوها لأخرجنكم من داري، وأنكرت ذلك عليهم[٢].

وعن ربيعة بن كلثوم بن جبر قال: حدثني أبي قال: خطبنا ابن الزبير فقال: «يا أهل مكة، بلغني عن رجال من قريش يلعبون بلعبة يقال لها: النرد شير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠] وإني أحلف بالله لا أوتى برجل لعب بها إلا عاقبته في شعره وبشره وأعطيت سَلَبه لمن أتاني به»[٣].

وعن أبي موسى الأشْعَريّ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَعِب بالنَّرْدِ، فقد عصى اللهَ ورسولَه».

وعن بُريدةَ، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَنْ لَعِب بالنَّرْدَشير، فكأنّما غَمَس يدهُ في لحم خِنْزيرٍ ودَمِهِ»[٤].

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٢٥، ٣٢٦)، وصححه الألباني.

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧٤)، وحسنه الألباني.

(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٧٥)، وحسنه الألباني.

(٤) رواه أبو داود (٤٩٣٨، ٤٩٣٩)، وحسن الألباني الأول، وصحح الثاني.

فلله درهم! من أجل ذلك لم تُؤْلفِ المعصية في زمنهم، ولم تأنس قلوبهم بها.

قال ابن النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد تقوم كثرة رؤية المنكرات مقام ارتكابها في سلب القلب نور التمييز والإنكار، لأن المنكرات إذا كثر على القلب ورودها وتكرر في العين شهودها ذهب عظمتها من القلوب شيئًا فشيئًا، إلا أن يراها الإنسان فلا يخطر بباله أنها منكرات، ولا يميز بفكره أنَّها معاصي لما أحدث تكرارها من تألف القلب لها.

ولقد حكى أبو طالب المكيّ عن بعضهم أنه مرَّ يومًا في السوق فرأى بدعة فبال الدَّم من شدّة إنكاره لها بقلبه، وتغير مزاجه لرؤيتها، فلما كان اليوم الثاني مَرَّ فرآها، فبال دمًا صافيًا، فلما كان اليوم الثالث مرَّ بها فرآها فبال بوله المعتاد: لأن حدّة الإنكار التي أثرت في البدن ذلك الأثر ذهبت، فعاد المزاج إلى حاله الأول، وصارت البدعة كأنَّها مألوفة عنده معروفة، وهذا أمر مستقر، لا يمكن جحوده، والله أعلم.

ولهذا كان الإمام العارف أبو الحسن الزيات: يقول: والله لا أبالي بكثرة المنكرات والبدع، وإنما أخاف من تأنيس القلب بها؛ لأن الأشياء إذا توالت مباشرتها أنست بها النفوس وإذا أنست النفوس بشيءٍ قلَّ أن تتأثر به»[1].

وذكر ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الفساد يصير بكثرة المباشرة هينًا على الطبع، ويسقط وَقْعهُ واستعظامه له، ومهما طالت مشاهدة الإنسان الكبائر من غيره احتقر الصغائر من نفسه، كما أن الإنسان إذا لاحظ أحوال السلف في الزهد والتعبد، احتقر نفسه، واستصغر عبادته فيكون ذلك داعية إلى الاجتهاد وبهذه الدقيقة يعرف سر قول القائل في المقدمة: عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة ومما يدل على سقوط وقع الشيء من القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلمًا قد أفطر في رمضان، استعظموا ذلك، حتى يكاد يفضي إلى اعتقادهم فيه الكفر، وقد يشاهدون من يؤخر الصلاة عن أوقاتها، فلا ينفرون عنه نفورهم عن تأخير الصوم، مع أن ترك صلاة واحدة تخرج إلى الكفر، ولا سبب لذلك إلا أن الصلاة تتكرر، والتساهل فيها يكثر، وكذلك لو لبس الفقيه ثوبًا من حرير، أو خاتمًا من ذهب؛ لاشتد إنكار الناس لذلك.

---

(١) «تنبيه الغافلين» (ص:٧٨).

وقد يشاهدونه في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب الناس، فلا يستعظمون ذلك، والغيبة أشد من لبس الحرير، ولكن لكثرة سماعها، ومشاهدة المغتابين، سقط عن القلوب وقعها، فافطن لهذه الدقائق واحذر مجالسة الناس، فإنك لا تكاد ترى منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا، وفي غفلتك عن الآخرة، وتهون عليك المعصية، وتضعف رغبتك في الطاعات، فإن وجدت مجلسًا يذكر الله فيه، فلا تفارقه فإنه غنيمة المؤمن[(١)].

يسكتون من لا يعلم وينظفون الرؤوس من الأفكار الضالة

أخرج ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ، عن سليمان بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن رجلًا يقال له صَبيغ ابن عسل، ويقال: ابن عُسيل، قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر وقد أعدّ له عراجين النخل، فقال: منْ أنت ؟ فقال: أنا عبد الله صَبيغ، فأخذ عمر عرجونًا من تلك العراجين فضربه، قال: أنا عبد الله عمر، فجعل له ضربًا حتى دمّى رأسه، قال: يا أمير المؤمنين حسبك، قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي»[(٢)].

قال ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد قال بعض أهل العلم: لو سكت من لا يعلم لاسترحنا».

وأنا أقول: لو كان له منْ يردعُه، يكفّه ويمنعُه، ويقرعه -أي يدفعه- ويسكته قهرًا، ويصمته قَسْرًا -أي يكرهه ويُجبِرُه- أو كان من يصرفه عن شنيع الجهالات، وبديع الضلالات بالتأديب والقَضْب -أي القطع- والتريب، والتبكيت والتأنيب لرجونا أن يعفى الناس بذلك عما ينالهم من الضرر أو كثير منه من جهته، وإلى الله المشتكى، وهو المستعان على كلِّ حادثة وبلوى[(٣)].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص:١٢٢).
(٢) «تاريخ دمشق» (٢٥/ ٢٧٩).
(٣) «تاريخ دمشق» (٢٥/ ١٩٠).

يبغضون عمل العصاة، ويشفقون عليهم ولا يسبونهم

مرّ أبو الدرداء رضي الله عنه على رجل قد أصاب ذنبًا فكانوا يسبونه، فقال: «أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: نعم، قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله؛ فإذا تركه فهو أخي»[(١)].

وذكر ابن حجر الهيثمي رحمه الله في ذلك: «قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء:٢١٦]، ولم يقل: إني بريء منكم، وإلى هذا أشار أبو الدرداء لما قيل له: ألا تبغض أخاك وقد تغير؟ فقال: إنما أبغض عمله، وإلا فهو أخي».

وفي صحيح البخاري: «لا تكونوا عونًا للشيطان على أخيكم».

ومن إعانته ترك التلطف بأخ عاص، فإن التلطف به يعيده إلى صلاحه بسرعة وعدم تمكن الشيطان منه... وإن كانت هفوته في حقك فلا خلاف أن عفوك واحتمالك أولى بل كل ما أمكن له حمل صحيح تعيّن إعذاره فيه[(٢)].

فحينما يبغض المسلمُ المبطلين، وأهل الشر، ومرتكبي الكبائر من الإثم ومعادي الحق والخير والفضيلة، فإنما يبغضهم لهذه الصفات التي فيهم، وليس يبغضهم لذواتهم، فهم بالنظر إلى ذواتهم خلق من خلق الله، وعبادٌ من عباد الله، يحب لهم الخير، ويرجو لهم الخير، ويسعى في إصلاحهم، ويشفق عليهم للمصير الوخيم الذي يدفعون أنفسهم إليه، لكنهم لمّا حملوا الأمراض الوبائية التي حملوها، وتعذر علاجهم، لأنهم رفضوا بإرادتهم كل وسائل العلاج، كان لابد من معاملتهم بالبغض والكراهية لذلك، ومتى صح أي واحد منهم من مرضه الوبائي الخطير، عاد إلى منزلته الأصلية، وهي منزلة الأخوة، واتجه قلب المؤمن له بالمحبة[(٣)].

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ٢٨٧)، و«إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٢٧).
(٢) «أسنى المطالب» (ص:٢٤٧).
(٣) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٢٥٢).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

يدعو صالحهم لطالحهم -الطالح: الفاسد- وطالحهم لصالحهم، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد صلى الله عليه وسلم قال: اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه، وانفعنا به.

وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال: اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته[١].

ينصحون ولاة الأمر ويصدقونهم ولا يغشونهم ولا يداهنونهم ويدعون لهم

فعن تميم الداريِّ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحةُ» قلنا: لِمن؟ قال: «لله ولكتابِهِ ولرسولِهِ ولأئمة المسلمين وعامَّتِهِم»[٢].

قال الإمام الذهبي رحمه الله عند قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة»: «فتأمل هذه الكلمة الجامعة، وهو قوله: «الدين النصيحة»، فمن لم ينصح لله وللأئمة وللعامّة كان ناقص الدين، وأنت لو دُعيت: يا ناقص الدين لغضبت، فقل لي: متى نصحت هؤلاء ؟ كلا والله، بل ليتك تسكتُ، ولا تنطقُ، أو لا تحسِّن لإمامك الباطل، وتُجرِّئه على الظلم وتَغُشُّه»[٣].

وقال النووي رحمه الله: «وأما النصيحة لأئمة المسلمين، فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه، وأمرهم به وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم»[٤].

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٧٣).

(٢) رواه مسلم (٥٥).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٥٠٠).

(٤) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٣٣).

وقال ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل لهُ وزيرَ صِدْقٍ، إن نسيَ ذكَّرَهُ، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزيرَ سوءٍ، إن نسيَ لم يُذكّره، وإذا ذكرَ لم يُعِنْهُ»[١].

وأخرج البيهقي بسنده عن ابن محيريز -عبد الله الجمحي المكي- قال: «من جلس على الوسائد وجبت عليه النصيحة»[٢].

ولقد ضرب السلف -رحمهم الله- في هذا الباب المثل الأعلى:

قال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «دخل عطاء بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجِّه في خلافته، فلما بَصُر به عبد الملك، قام إليه فسلَّم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد: حاجتك ؟ قال: يا أمير المؤمنين ! اتَّقِ الله في حرمِ الله، وحرم رسوله ﷺ فتعاهَدْه بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار؛ فإنك بهم جلستَ هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور -الثغر: الموضعُ يُخَافُ هجوم العدوّ منه- فإنهم حِصنُ المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفُلْ عنهم ولا تُغْلِقْ دونهم بابك، فقال له: أفعِل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبدُ الملك، وقال: يا أبا محمد! إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها فما حاجتُك؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا، وأبيك الشرف، هذا، وأبيك السُّؤْدُدُ»[٣].

وكتب المنصور إلى الأوزاعي: «أما بعد: فقد جعل أمير المؤمنين في عنقك ما جَعَلَ الله لرعيته قبلك في عُنقه، فاكتبْ إليّ بما رأيت فيه المصلحةَ ممَّا أحببت، فكتب إليه: أما بعد؛ فعليك بتقوى الله، وتواضعْ يَرْفَعْكَ الله يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير

(١) رواه أبو داود (٢٩٣٢)، وصححه الألباني.
(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (١٣/ ١٠٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤).

الحق، واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لن تزيد حقَّ الله عليك إلا عِظَمًا، ولا طاعته إلا وجوبًا»[(١)].

وقال يحيى بن خالد لابن السماك: «إذا دخلت على هارون أمير المؤمنين فأوجز، ولا تكثر عليه، فدخل عليه، وقام بين يديه، فقال: يا أمير المؤمنين إن لك من بين الله مُقامًا، وإن لك من مُقامك منصرفًا، فانظر أين منصرفك: إلى الجنة أم إلى النار، فبكى هارون حتى كاد أن يموت»[(٢)].

وعن أحمد بن عاصم -أبي عبد الله الأنطاكي- قال: «قال هارون الرشيد لسفيان: أحب أن أرى الفضيل، فقال له: أذهب بك إليه، فاستأذن سفيان على الفضيل، فقال له: من هذا؟ قال: قولوا له هذا سفيان، فقال: قولوا له يدخل، فقال: ومنْ معي؟ قال: ومن معك، قال: فلمّا دخلوا عليه، قال له سفيان: يا أبا علي هذا أمير المؤمنين، فقال: وإنك لهو يا جميل الوجه، أنت الذي ليس بين الله وبين خلقه أحد غيرك، أنت الذي يُسأل يوم القيامة كلُّ إنسان عن نفسه، وتسأل أنت عن هذه الأمّة، قال: فبكى هارون»[(٣)].

وقال الأصمعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «بعث إليّ الرشيد، وقد زخرف مجالسه وبالغ فيها وفي بنائها، وصنع فيها طعامًا كثيرًا، ثم وجّه إلى أبي العتاهية فأتاه فقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم الدنيا، فأنشأ يقول:

عش ما بدا لك سالمًا ... في ظل شاهقة القصور

فقال: أحسنت، ثم ماذا ؟ فقال:

يُسعى عليك بما اشتهيت ... لدى الرواح وفي البكور

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٢٥).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٨).
(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (١٣/ ١١٨)، و«تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٨).

فقال: ثم ماذا ؟ فقال:

فـــإذا النفـــوس تقعقعـــت ... في ضـــيق حـــشرجة الـــصدور
فهنـــاك تعلـــمُ موقنًـــا ... مـــا كنـــت إلا في غـــرور

فبكى هارون، فقال الفضيل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسرّه فأحزنته، فقال هارون: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا عمى»[1].

وأخرج البيهقي عن إبراهيم بن بشار قال: «سمعت الفضيل يقول: بلغني أن خالد بن صفوان دخل على عمر فقال له عمر بن عبد العزيز: عظني يا خالد، قال: إن الله ﷻ لم يرض أحدًا أن يكون فوقك، فلا ترض أن يكون أحدٌ أولى بالشكر منك، قال: فبكى عمر حتى غُشي عليه، ثم أفاق فقال له: يا خالد لم يرض أن يكون أحد فوقي فوالله لأخافنّه خوفًا، ولأحذرنّه حذرًا، ولأرجونّه رجاءً، ولأحبنّه محبةً، ولأشكرنه شكرًا، ولأحمدنّه حمدًا يكون ذلك كله أشدَّ مجهودي، وغاية طاقتي، ولأجتهدنّ في العدل والنَّصَفَةِ -أي يعطي الغير من الحق ما يستحقه لنفسه- والزهد في فاني الدُّنيا لزوالها، والرغبة في بقاء الآخرة لدوامها، حتى ألقى الله ﷻ فلعلّي أنجو مع النّاجين، وأفوز مع الفائزين، وبكى حتى غُشِي عليه، قال: وتركتُه مغشيًا عليه وانصرفت»[2].

فلله درهم، إنهم ليعلمون أن صلاح الأئمة فيه صلاح البلاد والعباد.

قال ابن مسعود ﷺ: «لن تزالوا بخير ما صلحت أئمتكم».

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال عمر ﷺ: «إن الناس لم يزالوا بخير ما استقامت لهم ولاتهم وهداتهم»[3].

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٢٥).
(٢) «شعب الإيمان» (٦/ ٣٩).
(٣) «شعب الإيمان» (٦/ ٤٢).

ومن هنا قال أبو عثمان -سعيد بن إسماعيل الواعظ الزاهد- أحد رواة حديث «الدين النصيحة»: «فانصح للسلطان وأكثر له من الدعاء بالصلاح والرشاد بالقول والعمل والحكم فإنهم إذا صلحوا صلح العباد بصلاحهم وإياك أن تدعوا عليهم باللعنة فيزدادوا شرًا ويزداد البلاء على المسلمين ولكن ادع لهم بالتوبة فيتركوا الشر فيرتفع البلاء عن المؤمنين»[(١)]

ولله درهم في عدم مداهنتهم.

عن أبي الشعثاء قال: قيل لابن عمر رضي الله عنهما: إنا ندخل على أمرائنا فنقول القول: فإذا خرجنا قلنا غيره، قال: كنا نعُدُّ ذلك على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من النفاق[(٢)]

وقال ابن الجوزي رحمه الله: ومن تلبيس إبليس على الفقهاء: مخالطتهم الأمراء والسلاطين ومداهنتهم وترك الإنكار عليهم مع القدرة على ذلك، وربما رخصوا لهم فيما لا رخصة لهم فيه لينالوا من دنياهم عرضًا فيقع بذلك الفساد لثلاثة أوجه:

الأول: الأمير، يقول: لو لا أني على صواب لأنكر عليّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيبًا وهو يأكل معي.

والثاني: العاصي، إنه يقول: لا بأس بهذا الأمير، ولا بماله، ولا بأفعاله فإن فلانًا الفقيه لا يبرح عنده.

والثالث: الفقيه، فإنه يفسد دينه بذلك[(٣)]

وليعلم منْ نصحَ السلطان أن أعداءه كثيرون.

قال خالد بن صفوان رحمه الله: «من صحب السلطان بالصّحة والنصيحة كان أكثر عدُوًا ممّن صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يجتمع لي على الناصح عدو الوالي وصديقه

---

(١) «شعب الإيمان» (٦/ ٢٦).

(٢) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٦)، والأثر صحيح وهو عند ابن ماجه، والنسائي في «الكبرى». أفاده المحقق.

(٣) «تلبيس إبليس» (ص:١١٨).

بالعداوة والحسد، فصديق الوالي ينافسه -أي ينافس الناصح- في منزلته، وعدو الوالي يعاديه لنصيحته»[(١)]

ومَنْ نصح السلطان فليطالع ما سبق بيانه في النصيحة والرفق في الأمر والنهي.

قال أبو غدة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإذا توجَّهت هِمَّتُك: إلى نصح السلطان، فلا تَنْسَ ما رسمه الإمامُ سفيان الثوري، سيدُ زمانه رضي الله عنه في هذا الصَّدَد، قال: لا يأمر السلطان بالمعروف إلا رجلٌ عالمٌ بما يأمُر، عالمٌ بما ينهى رفيق بما يأمر، رفيقٌ بما ينهي، عَدْلٌ فيما يأمر، عدلٌ فيما ينهى»[(٢)]

ولله درُ ابن النحاس حيث ذكر جُملًا ممن أمر الملوك والولاة بالمعروف ثم قال: «فمن أخلص لله النية أثَّر كلامه في القلوب القاسية فليَّنها، وفي الألسُن الذربة -أي: البذيئة الحادة- فقيدها، وفي أيدي السلطة فعقلها، وأما زماننا هذا فقد قيد الطمعُ ألسُن العلماء، فسكتوا إذ لم تساعد أقوالهم أفعالهم، ولو صدقوا الله لكان خيرًا لهم.

فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه ما استولى عليهم من حب المال والجاه وانتشار الصيت ونفاذ الكلمة، ومداهنة المخلوقين وفساد النيات في الأفعال والأقوال، وإذا أرد واحد منهم أن ينكر على واحدٍ من الرعية لم يستطع ذلك، فكيف يستطيع الإنكار على الملوك والتعرض للمهالك ومفارقة ما استولى على قلبه من حب المال والجاه.

اللهم استر فضايحنا وتولّ مصالحنا وخذ بأزمة قلوبنا إليك، واستعملنا فيما يرضيك يا أرحم الراحمين»[(٣)]

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٨/ ٨٠).
(٢) «رسالة المسترشدين» (ص:١١٩).
(٣) «تنبيه الغافلين» (ص :٥١).

يطيعون ولاة الأمور ويلتمسون كثرة المحاسن وييئسون من الكمال

امتثالًا لأمر الله تعالى الذي أمر بطاعة الأئمة والسلاطين والقضاة، فيما يأمرون به وينهون عنه ما لم تكن معصية، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: المراد بأولي الأمر مَنْ أوجب الله طاعته من الولاة والأمراء، هذا قول جماهير السلف والخلف من المفسرين والفقهاء وغيرهم، وقيل: هم العلماء، وقيل: الأمراء والعلماء»[١].

وامتثالاً لأمر النبي ﷺ.

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجَّةِ الوداع، فقال: «اتقوا الله ربَّكمْ وصلوا خمْسَكُمْ، وصوموا شهركمْ، وأدوا زكاة أموالكمْ، وأطيعوا ذا أمركمْ، تدخلوا جنة ربكمْ»[٢].

وقال ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعصِ الأمير فقد عصاني».

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأن الله تعالى أمر بطاعة رسول الله ﷺ، وأمر هو ﷺ بطاعة الأمير فتلازمت الطاعات».

وقال ﷺ: «عليكَ السَّمْعَ والطاعةَ في عُسْرِكَ ويُسْرِكَ، ومَنْشطِكَ ومَكْرهِكَ وأَثَرَةٍ عليكَ»[٣].

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (١٢/ ١٨٧).
(٢) رواه الترمذي (٦١٦)، وصححه الألباني.
(٣) رواه مسلم (١٨٣٥، ١٨٣٦).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة كما صرح به في الأحاديث الباقية فتحمل هذه الأحاديث المطلقة لوجوب طاعة ولاة الأمور على موافقة تلك الأحاديث الباقية المصرحة بأنه لا سمع ولا طاعة في المعصية، والأَثَرَةُ: بفتح الهمزة والثاء، ويقال بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء، ثلاث لغات: وهي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا، ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم، وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وبسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم».

والسلف -رحمهم الله- كانوا يلتمسون إمامًا دَيّنا عاقلًا، لتسعد به البلاد والعباد فإن لم يكن راموا إمامًا كثير المحاسن قليل المساوئ ويعلمون أن الكمال محال.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الخليفة المستنجد بالله: «الإمام إذا كان له عقلٌ جيدٌ ودين متينٌ، صَلُحَ به أمرُ الممالك، فإن ضَعُفَ عقلهُ وحَسُنَت ديانته حمله الدينُ على مُشاورة أهل الحَزْمِ، فتسدَّدت أمورُه، ومشت الأحوال، وإن قلَّ دينه، ونَبُل رأيُه، تعبت به البلادُ والعبادُ، وقد يَحمِلُه نُبْل رأيه على إصلاح مُلْكِه ورعيَّته للدنيا لا للتقوى، فإن نقص رأيُه، وقل دينه وعقلُه كَثُر الفسادُ، وضاعت الرعية، وتَعِبوا به إلا أن يكون فيه شجاعةٌ، وله سطوةٌ وهيبةٌ في النفوس، فينجبرُ الحالُ، فإن كان جبانًا، قليل الدِّين عديمَ الرأي، كثير العَسْف -أي الظلم والاستبداد- فقد تعرض لبلاءٍ عاجل وربما عُزِل وسُجِن إن لم يقتل، وذهبت عنه الدنيا، وأحاطت به خطاياه، وندم -والله- حيثُ لا يُغنى الندمُ، ونحن آيسون اليوم من وجود إمام راشدٍ من سائر الوجوه، فإن يسَّر الله للأمَّةِ بإمامٍ فيه كثرةُ محاسن وفيه مساوئ قليلة، فَمَنْ لنا له، اللهم فأصلح الرَّاعي والرعيَّة، وارحم عبادَكَ ووفِّقْهم، وأيد سلطانَهم، وأعنه بتوفيقك»[1].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤١٨).

يحملون هموم الأمة ويقدمون مصالح المسلمين ويحفظون أموالهم، ويردون المظالم إلى أهلها

ساق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن عطاء بن أبي رباح، قال: «حدثتني فاطمةُ امرأة عمر ابن العزيز أنها دخلت عليه، فإذا هو في مُصَلاه يدُهُ على خدِّه، سائلة دموعه، فقلتُ: يا أمير المؤمنين ! ألشيءٍ حدث ؟ قال: يا فاطمةُ ! إني تقلَّدت أمرَ أمّه محمد صلى الله عليه وسلم فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض فعلمتُ أن ربيِّ سيسألني عنهم، وأن خَصْمَهُمْ دونَهم -محمدٌ صلى الله عليه وسلم- فخشيتُ ألا تثبتَ لي حُجَّة عند خصومته فَرَحِمْت نفسي فبكَيْتُ»[(١)]

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال القاضي بهاءُ الدين بنُ شدّادٍ: قال لي السلطانُ صلاح الدين في بعض محاوراتِه في عقدِ الصُّلح: أخاف أنْ أصالحَ، وما أدري أيش يكونُ منّي، فيقوى هذا العدوُّ، وقد بقيَتْ لهم بلادٌ، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المسلمين، وترى كلّ واحد من هؤلاء -يعني إخوانه وأولادَهَم- قد قَعَد في رأس تَلِّهِ -يعني قلعته- ويقول: لا أنزلُ، ويهلك المسلمون»[(٢)]

وساق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن يحيى بن أبي غنيَّة، عن حفص بن عُمَر بن أبي الزُّبير، قال: «كتب عُمرُ بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: أن أدِقَّ قلمك، وقارِبْ بَيْنَ أسْطُرِكَ، فإني أكرهُ أن أُخْرِج من أموال المسلمين ما لا ينتفعون به»[(٣)]

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٢٨٩).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٢).

وقال يحيى بن حمزة: «حدَّثنا عمر بن مهاجر أن عُمَرَ بن عبد العزيز كان تُسْرَجُ عليه الشمعةُ ما كان في حوائج المسلمين، فإذا فرغ، أطفأها وأسرج عليه سِرَاجه»(١)

وقال الليث رَحِمَهُ اللَّهُ: «بدأ عمرُ بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ بأهل بيته، فأخذ ما بأيديهم، وسمّى أموالهم مظالِمَ، فَفزعت بنو أميّة إلى عمَّته فاطمة بنت مروان فأرسلت إليه: إني قد عناني أمْر، فأتته ليلًا، فأنزلها عن دابتها، فلما أخذت مجلسها، قال: يا عمّة! أنت أولى بالكلام، قالت: تكلَّم يا أمير المؤمنين، قال: إنّ الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم رحمةً، ولم يبعثه عذابًا واختار له ما عنده، فترك لهم نهرًا شُربُهُم سواءٌ، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله، ثم عمر، فعملَ عملَ صاحبه، ثم لم يزل النهرُ يشتقُّ منه يزيدُ ومروان وعبدُ الملك، والوليدُ، وسليمان، حتى أفضى الأمر إليّ، وقد يبسَ النهر الأعظم، ولن يروي أهله حتى يعودَ إلى ما كان عليه، فقالت: حسبُك، فلستُ بذاكرةٍ لك شيئًا، ورجعت فأبلغتهم كلامَه»(٢)

يتعففون عما في أيدي الناس

لأن المسلم الحق عفيف مستغن، لا يتطلّع إلى المسألة، إذا ألمّ به ضيقٌ تذرع بالصبر، وضاعف من الجهد، وحرص على ألا يقف موقف المستعطي المستجدي المستدرّ أكفَّ المحسنين، ذلك أن هَدْيَ هذا الدين يربأ بالمسلم أن يضع نفسه في هذا الموقف، ويُهيبُ به أن يستعفّ ويستغني ويصبر، وسيعينه الله، ويهبه الغنى والصبر والعفاف.

قال صلى الله عليه وسلم: «من يَسْتَعفِف يعُفَّهُ الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومن يَتَصبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وما أُعْطِيَ أحدٌ عطاءً هو خيرًا وأوسع من الصَّبْرِ»(٣)

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٦).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٢٩).
(٣) متفق عليه.

وكما حثَّ الإسلام على العمل لكسب الرزق، فقد ذمّ المسألة، وذمّ استجداء صدقات الناس وأعطياتهم، إلا عند الحاجة الماسة، ودفع المسلمين إلى أن يصونوا نفوسهم عن ذلك، ويسموا بها عن المذلة، ويحفظوا لها كرامتها، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف عن المسألة: «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»(١).

وأوضح صلى الله عليه وسلم أن الغنى الحقيقي إنما هو غنى النفس فقال: «ليس الغنى عن كثرة العرَض، ولكنّ الغنى غنى النفس»(٢).

وعلى هذا درج السلف الصالح -رحمهم الله- فصانوا ماءَ وجوههم، ولم يريقوه لأجل أمر دُنيوي.

ساق أبو نعيم في «الحلية» بسنده إلى أبي كثير بن يحيى، قال: «قدم سليمان بن عبد الملك المدينة، وعمر بن عبد العزيز عامله عليها، قال: فصلى بالناس الظهر ثم فتح باب المقصورة واستند إلى المحراب، واستقبل الناس بوجهه، فنظر إلى صفوان بن سليم عن غير معرفة، فقال: يا عمر من هذا الرجل ما رأيت سمتًا أحسن منه ؟ قال: يا أمير المؤمنين هذا صفوان بن سليم، قال: يا غلام كيس فيه خمسمائة دينار، فأتى بكيس فيه خمسمائة دينار، فقال لخادمه: ترى هذا الرجل القائم يصلي فوصفه للغلام حتى أثبته، قال: فخرج الغلام بالكيس حتى جلس إلى صفوان فلما نظر إليه صفوان ركع وسجد ثم سلّم فأقبل عليه، فقال: ما حاجتك ؟ قال: أمرني أمير المؤمنين - وهو ذا ينظر إليك وإليّ - أن أدفع إليك هذا الكيس فيه خمسمائة دينار، وهو يقول: استعن بهذه على زمانك، وعلى عيالك، فقال صفوان للغلام: ليس أنا بالذي أرسلت إليه، فقال له الغلام: ألست صفوان بن سليم؟ قال: بلى! أنا صفوان بن سليم، قال: وإليك أرسلت،

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

قال: اذهب فاستثبت فإذا استثبت فهلمّ، فقال الغلام: فأمسك الكيس معك وأذهب، قال: لا! إن أمسكت فقد أخذت، ولكن اذهب فاستثبت، وأنا ها هنا جالس، فولى الغلام، وأخذ صفوان نعليه وخرج، فلم يُرَ بها، حتى خرج سليمان من المدينة»(١)

وقال أبو الحسن المَيْمُوني: حدثنا أبي قال: «لما رأيت قدر عمِّي عمرَ بنِ ميمون عند المنصور -أمير المؤمنين- قلتُ له: لو أنك سألت أمير المؤمنين أن يقطعك قطيعة، فسكت فألححتُ عليه فقال: يا بني! إنك لتسألني أن أسأله شيئًا قد ابتدأني هو به غير مرَّةٍ، فلم أفعل»(٢)

وقال محمد بن أبي حاتم: «سمعتُ البخاري يقولُ: خرجتُ إلى آدم بن أبي إياس فتخلَّفَتْ عني نفقتي حتى جعلت أتناولُ الحشيشَ، ولا أخبر بذلك أحدًا، فلما كان اليوم الثالث، أتاني آتٍ لم أعْرِفْه فناولني صُرَّة دنانير، وقال: أنفق على نفسك»(٣)

إنهم صانوا أنفسهم عن مسألة الناس أمور الدنيا، فعزوا ولم يذلوا، وقد قال بشر ابن الحارث رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت المعافى بن عمران يقول: عز المؤمن استغناؤه عن الناس، وشرفه قيامه بالليل»(٤)

وعن محمد بن حامد قال: «قلت لأبي بكر الوراق: علمني شيئًا يقربني إلى الله، ويقربني من الناس، فقال: أما الذين يقربك من الله فمسألته، وأما الذي يقربك من الناس فترك مسألتهم»(٥)

وقال ابن حجر الهيتمي: «ولا تطمع فيما بأيديهم فتستعجل الذلّ ولا تنال شيئًا»(٦)

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٦٠)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ٨١٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٤٧.)
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٤٨).
(٤) «صفة الصفوة» (٢/ ٣٠٥).
(٥) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٩٦).
(٦) «صلة الأقارب» (ص:٢٧٣).

وقال الشاعر الأديب أبو الفتح، علي بن محمد بن الحُسين البُستي:

صُنْ حُرَّ وجْهِكَ لا تَهتِكْ غِلالتَه ... فكلُّ حُرٍّ لحُرِّ الوجهِ صَوّانُ

قال أبو غدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حُرُّ الوجه: محاسنُه وكرامَتُه.

والغِلالَةُ بكسر الغين: ثوب رقيق كالقميص يُلبَسُ على الجسد تحت الثياب الغليظة.

والمراد هناك: صُنْ حياءَك وماءَ وجهك، ولا تُرِقْهُ لأجلِ أمرٍ دُنيويٍّ»(١)

وقال أبو معاوية -رجل من ولد كعب بن مالك رضي الله عنه-: «لقد رأيتني أنضِحُ أول النهار، وأضربُ آخر النهار على بطني -أي لكسب طعامِ بطني- بالمِعْول في المعدن.

قال: لقد لقيت مَؤُنَة -أي كُلفةً شديدة- قال: أجل، إنا طلبنا الدراهم من أيدي الرجال ومن الحجارة، فوجدناها من الحجارة أسهل علينا»(٢)

يأخذون الميسور ويتركون المعسور

والمسلم التقي الواعي ميسِّر لا يعرف التعسير، لأن خلق المؤمنين التيسير في الأمور كلها وهذا ما ارتضاه الله تعالى لعباده إذ قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ومن هنا جاء الهدي النبوي الكريم حاضًا المسلمين على التيسير ناهيًا إياهم عن التعسير.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يسِّروا ولا تُعسِّروا، وسكِّنوا ولا تنفروا» متفق عليه.

والتسكين: اتخاذ السكينة وهي الطمأنينة.

---

(١) «حاشية أبي غدة على قصيدة عنوان الحِكَم» (ص:٣٨).
(٢) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص:١٢٧).

«ولا تنفروا» أي لا تحملوا غيركم على النفور مما تكلفونهم من الأعمال[(١)]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمْرَين قَطُّ إلا أخَذَ أيْسرَهُما، -وفي رواية: إلا اختار أيْسَرَهما- ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه». متفق عليه.

فيه استحباب الأخذ بالأيسر والأرفق ما لم يكن حرامًا أو مكروهًا، إنها النظرة النبوية العالية الحصيفة الخيرة بضعف الناس وتفاوت استعداداتهم للصعود والارتقاء والصبر، فما كان يناسبهم شيء كالتيسير، ولا يؤذيهم وينفّرهم شيء كالتعسير، ومن هنا اختار الهَدْي النبوي الكريم التيسير في إطار العمل المشروع الحلال، وجعله سنة في المسلمين لتخلو حياتهم من جفاف التعسير وعنته وثقله على النفوس[(٢)]

وساق ابن عساكر: عن إبراهيم بن هشام قال: حدثني أبي عن جدِّي، قال: أُتي عمر بن عبد العزيز بِغِلْمَة من أولاد المَهالِبة لم يبلغوا الحِنْث، وعنده رجاء بن حَيْوة الكِنْدي ورياح بن عُثمان المُرّي، فقال عمر: يا رياح ما تقول في هؤلاء الغِلْمة ؟ قال: أقول ما قال نوح النبي صلى الله عليه وسلم في الغلبة: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

قال: فلم يوافقه فيما قال، والتفت إلى رجاء بن حَيْوة فقال: ما تقول في هؤلاء الغِلْمة يا رجاء؟ قال: وما سبيلك على هؤلاء الغِلْمه، لم يبلغوا الحِنْث، ولم تجب عليهم الأحكام.

فأخذ بقول رجاء وخلى سبيلهم، فلما خرج رجاء ورياح من عند عمر قال رياح: «يا رجاء بن حَيْوَة! إن لله رجالًا خلقهم للشر، وهو منهم -يريد نفسه- وخلق رجالًا للخير وأنت منهم»[(٣)]

---

(١) «فضل الله الصمد» (١/ ٤٧٢).
(٢) «شخصية المسلم» (ص:٢٦٥).
(٣) «تاريخ دمشق» (٢٠/ ٢٠١).

يخالطون الناس ويصبرون على أذاهم

والمسلم الحق العامل يخالط الناس ويصبر على أذاهم؛ لأنه صاحب قضية، ورائد رسالة، ولسان دعوة، ولابد لمن تصدّى لهذه المهمات الجسام من أن يوطّن نفسه على التضحيات في سبيل تلك القضية، والصبر على تكاليف الرسالة، وتحمل تبعات الدعوة، ومنها الصبر على آراء الناس الفجّة، وسوء تصرفاتهم، وخطل ظنونهم وتصوراتهم، وجفاء طبعهم وبطء استجابتهم للحق، وتثاقلهم إلى الأرض، والدوران حول المصلحة والذات، إلى غير ذلك مما يبدر من البشر من تفاهات يضيق بها الدعاة ذرعًا، فإذا هم يميلون في لحظات السأم والضيق والإعياء إلى الانزواء واعتزال الناس، ومن هنا جاء الهدى النبوي العالي يشدّ من عزمات المؤمنين، ويربط على قلوبهم، ويثبت منهم الأقدام، فيعلن أن الصابرين في درب الدعوة الشائك الطويل خير من الذين لا يصبرون، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن الذي يُخالطُ الناس، ويَصْبرُ على أذاهم، خيرٌ من الذي لا يُخالِط الناس، ولا يَصْبرُ على أذاهم»[(١)]

قال الجنيد: «مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة، وإنما كان ذلك لأن مكابدة العزلة انشغال بالنفس خاصة وردٌّ لها عما تشتهيه، بخلاف مرارة الخلطة بالناس مع اختلاف أخلاقهم وشهواتهم وأغراضهم وما يبدوا منهم من الأذى، وما يحتاج إليه من الحلم والصفح»[(٢)]

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والأنبياء من قبله آية في الصبر على رعونات الناس وتخرّصاتهم -أي كذبهم وافتراءهم- وتفاهاتهم، ما أحوج الدعاةَ إلى الوقوف

---

(١) رواه الترمذي (٢٥٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٨)، وصححه الألباني.

(٢) «فضل الله الصمد» (١/ ٤٠٦).

عندها كلما نفد صبرهم، وضاقت صدورهم وبرّح بهم الأذى والعدوان، ومن نماذج ذلك الصبر الكبير ما رواه الشيخان من أن النبي ﷺ قسم قِسمةً كبعض ما كان يقسم، فقال رجل من الأنصار: والله إنها لقِسْمَةٌ ما أريد بها وجهُ الله ﷻ وبلغَتْ تلك القالةُ الظالمةُ مسامع الرسول الكريم فشَقّ ذلك عليه، وتغيّر وجهه وغضب ثم قال: «قد أُوذِيَ مُوسى بأكثرَ مِن ذلك فَصَبَرَ».

بهذه الكلمات القليلة سكت عن الرسول الكريم الغضب، وانقشع الغيظ، وهدأت النفسُ الكريمة السَّمْحَةُ الصَّفوحُ.

إنه خلق الأنبياء والدعاة الصادقين في كل زمان ومكان، وهو الصبر على أذى الناس وتخرّصاتهم وأقاويلهم، وبدونه لا تستمر دعوة، ولا يثبت دعاة [١]

ولله در علمائنا الذين استنبطوا بشفافيتهم أن من كمال العناية الربانية أن يجري الله تعالى الأذى على أصفيائه للترقي في المقامات وحصول التجرد الكامل لرب الأرض والسماوات.

قال المناوي رَحِمَهُ اللهُ عند حديث: «ما أوذيَ أحدٌ ما أوذيتُ في الله»[٢]: «ما أوذي أحدٌ ما أوذيت في الله، أي في مرضاته أو من جهته وبسببه حيث دعوت الناس إلى إفراده بالعبادة ونهيت عن إثباتهم الشريك، وذلك من أعظم اللطف به وكمال العناية الربانية به ليتضاعف له الترقي في نهايات المقامات.

قال ابن عطاء الله: إنما جرى الأذى على أصفيائه لئلا يكون لأحد منهم ركونًا إلى الخلق، غيرة منه عليهم، وليزعجهم عن كل شيء حتى لا يشغلهم عنه شيء»[٣]

---

(١) «شخصية المسلم» (ص:٢٦١).
(٢) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٢٢).
(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥٣٢٣).

لا يحتقرون الناس

امتثالًا لأمر النبي ﷺ حيث قال: «المسلمُ أخُو المسلم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى ههنا»، ويشير إلى صَدْرِه ثلاث مرَّاتٍ، «بِحَسْبِ امرِئٍ من الشرِّ أن يَحْقِرَ أخاهُ المُسْلِمَ»(١)

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يَحْقِرُهُ: أي لا يحتقره، ولا يستصغره ويستقله وكيف يليق بمسلم أن يحتقر أخاه، وقد قال ﷺ: «ليس لأحد على أحدٍ فضلٌ إلا بالدِّينِ أو عملٍ صالح، حَسْبُ الرَّجُلِ أن يكُونَ فاحشًا بذيًا بخيلًا جبانًا»(٢)

ذكر المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم:٣٢]، ثم قال: «فينبغي للإنسان أن لا يحتقر أحدًا فربما كان المحتقر أطهر قلبًا وأزكى عملًا وأخلص نيه، فإن احتقار عباد الله يورث الخسران، ويورث الذل والهوان»(٣)

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينبغي أن لا تستصغر مسلمًا حيًا أو ميتًا فتهلك لاحتمال أنه عند الله خير منك، بل وقد يختم لك والعياذ بالله تعالى بسوء، ولذا قيل: من ظنَّ أنه خير من الزبلة كانت الزبلة خيرًا منه»(٤)

وقال ﷺ: «إذا قال الرَّجُل: هلك الناسُ، فهو أَهْلَكُهُم»(٥)

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).
(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان»، وصححه الألباني.
(٣) «فيض القدير» (١٠/ ٥٢١٨).
(٤) «أسنى المطالب» (ص:٢٧٢).
(٥) رواه مسلم (١٣٩).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «معناه: لا يزال الرجل يعيب الناس ويذكر مساوئهم، ويشتغل بمطاعنهم، ويقول: فسد الناس وهلكوا ونحو ذلك، فهو أهلكُهُم، أي أسوأ حالًا منهم بما يلحقه من الإثم في عيبهم والوقيعة فيهم، وربما دعاه ذلك إلى العجب بنفسه ورؤية نفسه بأنه خير منهم، وهذا إنما هو فيمن قاله على سبيل الإزراء بالناس واحتقارهم، وتفضيل نفسه عليهم، وتقبيح أحوالهم، فأما من قال ذلك شفقة، لما يرى في نفسه وفي الناس من النقص في أمور الدين، فلا بأس عليه»(١).

قال أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الإمام مالك -راوي الحديث-: إذا قال ذلك تَحَزُّنًا لما يرى في الناس -يعني في أمر دينهم- فلا أرى به بأسًا، وإذا قال ذلك عُجبًا بنَفْسِه وتصاغُرًا للناس فهو المكرُوهُ الذى نُهِيَ عنْهُ».

لا يعيبون الناس

لانشغالهم بعيوب أنفسهم.

قال عون بن عبد الله بن عتبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أحسب أحدًا يفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غفلها عن نفسه، ولو اهتم بعيب نفسه ما تفرّغ لعيب أحدٍ ولا لذمّه»(٢).

وقال ابن الكواء للربيع بن خُثَيْم الثوري: «ما نراك تعيبُ أحدًا ولا تذمّه، قال: ما أنا عن نفسي براضٍ فأتفرغ من ذنبي إلى حديث الناس»(٣).

وقال عبد الله بن محمد بن شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَمْنَعُني من عيبِ غيريْ الذيْ ... اعرفُهُ عندي من العَيْبِ
عيْبي لهُمْ بالظّنِّ مِنّي لهُم ... ولستُ من عَيْبي في رَيْبِ(٤)

---

(١) ينظر: «فضل الله الصمد» (٢/ ١١١).
(٢) «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٦١)، و«الحلية» (٤/ ٢٤٩)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ٨٦٢).
(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٦)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ٧٦٢).
(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٩).

وقال المحاسبي رَحِمَهُ اللهُ: «واشتَغِلْ بإصلاح نفسِك عن عيب غيرك، فإنه كان يُقال: كفى بالمرءِ عيبًا أن يتبين له من الناس ما يخفى عليه من نفسه، أو يمقُتُ الناس فيما يأتي مثلَهُ، أو يُؤذي جليسَهُ، أو يقول في الناس ما لا يعنيه»(١)

*** لا يعيبون الناس خوفًا من عاقبة ذلك في الآخرة.**

عن معاذ بن أنس الجُهَنيِّ رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ومَنْ رَمَى مسلمًا بشيءٍ -أي قذفه بشيءٍ من العيوب- يُرِيدُ شيْنَهُ به -أي عيبه بذلك الشيء- حبَسَهُ الله على جِسْرِ جَهَنَّم -أي أوقفه- حتى يخرج ممّا قال»(٢)

والمعني: حتى ينقى من ذنبه ذلك بإرضاء خصمه، أو بشفاعةٍ، أو بتعذيبٍ بقدر ذنبه.

وساق ابن أبي الدنيا بسنده عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللهُ قال: «كنا نُحدّثُ أن أكثر الناس خطايا أفرغهم لذكر خطايا الناس»(٣)

*** لا يعيبون الناس:**

فإن الانشغال بعيب الناس والتغافل عن عيوب النفس من علامة الشقاوة، وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ أن في أقضية الله تعالى وأقداره التي يُجْرِيها على عباده باختيارهم وإرادتهم حِكمٌ لا يعلمها إلا الحكيم العليم -سبحانه- منها: أنه يوجبُ له الإمساك عن عيوب الناس، والفكر فيها، فإنه في شُغْل بعيب نفسه، فطوبى لمن شَغَله عيبه عن عيوب الناس، وويل لمن نسي عيبه وتفرَّغ لعيوب الناس، هذه من علامة الشقاوة، كما أن الأوّل من أمارات السّعادة(٤)

---

(١) «رسالة المسترشدين» (ص:٨٤).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٨٣)، وحسنه الألباني، وينظر: «عون المعبود» (١٣/ ١٥٥).
(٣) «الصمت وأدب اللسان» (ص:١٠٤)، وقال الحويني -حفظه الله-: «إسناده قوي».
(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٢٩٧).

*** لا يعيبون الناس: لأن عيبهم دليل على كثرة عيوب النفس.**

قال جعفر بن أبي عثمان الطيالسي: «قال بعض الحكماء: عاب رجلٌ رجلًا عند بعض أهل العلم، فقال له: قد استدللْتُ على كثرة عيوبك بما تُكثُر من عيوب الناس؛ لأن الطالب للعيوب، إنما يطلبها بقدر ما فيه منها»(١).

*** لا يعيبون الناس: حتى لا يعابوا.**

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد روي عن بعض السَّلف أنه قال: أدركتُ قومًا لم يكن لهم عيوبٌ فذكروا عيوب الناس، فذكر الناسُ لهم عيوبًا، وأدركتُ أقوامًا كانت لهم عيوبٌ، فكفوا عن عيوب الناس، فنسيت عيوبهم»(٢).

وروى ابن مُقْلة -محمد بن علي بن الحسن- عن ثعلب:

إذا ما تَعيبُ الناس عابوا فأكثروا ... عليك وابدوا منك ما كنت تستر
فلا تَعيبَنْ خلقًا بما فيك مثله ... وكيف يعيب العورَ من هو أعورُ(٣)

*** لا يعيبون الناس: فمن الذي ليس فيه عيب؟**

قال الأصمعي: «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: قيل لبُزُرجَمْهر الحكيم: هل من أحدٍ ليس فيه عيب؟ قال: لا، إن الذي لا عيب فيه لا ينبغي له أن يموت أبدًا»(٤).

فإن كان يشين أخاك ما تعيبه به وتأخذه عليه، فإن هذا يشينك كذلك، ويعيبك، وأنت لا تزيل ذلك بل أنت متلوث به وبأمثاله(٥).

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٦).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩١).
(٣) «تاريخ الإسلام» حوادث سنة (٣٢١-٣٣٠) (ص:٢٤١).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٨).
(٥) «فضل الله الصمد» (١/ ٣٦٠).

لا يمـــارون النـــاس

امتثالًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أنا زعيمٌ ببَيتٍ في رَبَض الجنّة لمن ترك المراءَ وإن كان مُحِقًّا»(١)

«أنا زعيمٌ» أي ضامن وكفيل، «ببَيتٍ» أي بقصر، «في رَبَض الجنّة» ما حوله خارجًا عنها تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، «لمن ترك المراءَ» أي الجدال كسرًا لنفسه كيلا يرفع نفسه على خصمه بظهور فضله(٢)

اقتداءً به صلى الله عليه وسلم: فعن السائب بن أبي السائب رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعلُوا يثنُونَ عليَّ ويُزَكُّوني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أعْلَمُكُم» -يعني به- قلتُ: صدقْتَ بأبي أنت وأمي، كُنتَ شريكي فنِعْمَ الشريكُ، كنتَ لا تُداري، ولا تُماري»(٣)

قال الخطابي: يريد لا تخالف ولا تمانع، وأصل الدرء الرفع يريد لا تدافعني، فلا تمنعني من التصرف، يصفه صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق والسهولة في المعاملة.

وقوله: لا تماري يريد الجدال والخصومة.

وسيرًا على نهج السلف الصالح -رحمهم الله-:

قال عبد الرحمن بن أبي ليلى رحمه الله: «ما ماريْتُ أخي أبدًا؛ لأني أرى إن ماريته، إما أن أكذبه و إما أن أغضبه».

وقال بلال بن سعد: «إذا رأيت الرجل لجوجًا ممارِيًا فقد تمت خسارته»(٤)

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني.
(٢) «عون المعبود» (١٣/ ١٠٨).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٦)، وصححه الألباني، وانظر «عون المعبود» (١٣/ ١٢٥).
(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٥٣).

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «إذا أحببت أخًا فلا تماره -أي لا تجادله ولا تنازعه- ولا تشارّه، بتشديد الراء، أي: لا تفعل معه شرًا تحوجه إلى فعل مثله معك. وروي مخففًا من الشِراء أي لا تعامله»[(١)]

وقيل لميمون بن مِهْران رحمه الله: «مالك لا يفارقُك أخٌ لك عن قِلًى؟ أي عن بغض، قال: إني لا أشاريه، ولا أماريه».

وعن عمر بن مُهاجر قال: سمعت عمر بن عبد العزيز رحمه الله قال: «إذا سمعتَ المِراءَ فأقصِرْ»[(٢)]

وقال مَعْروفُ بنُ الفَيْرُزان -أبو محفوظ العابدُ-: إذا أراد الله بعبد خيرًا، فتح له بابَ العمل، وأغلق عنه باب الجَدَل، وإذا أراد بعبدٍ شرًا فتح له باب الجدل وأغلق عنه باب العمل»[(٣)]

وقال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «وأشد أسباب القطيعة من الإخوان المماراة والمناقشة، إذ التقاطع يقع أولًا بالآراء ثم بالأقوال ثم بالأبدان»[(٤)]

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٥)، وصححه الألباني موقوفًا على معاذ بن جبل، وينظر: «فضل الله الصمد» (١/ ٥٣٦).

(٢) انظر: «الصمت وأدب اللسان» (ص:١٠١، ص: ١٠٨)، وقال الحويني -حفظه الله في كل منهما-: «رجاله موثقون».

(٣) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٨٣)، و«اقتضاء العلم العمل» (ص:٧٨).

(٤) «أسنى المطالب» (ص:٢٤٣).

لا يسبون الناس ولا يشتمونهم ولا يردون على من شتمهم

فقد حرم الإسلام على المسلم أن يرتع في عرض أخيه، قال ﷺ: «كُلُّ المسلِم على المسلِم حرامٌ، دمُهُ ومالهُ وعرضُهُ»(١).

وحكم بالفسق على مِنْ سب مسلمًا، فقال ﷺ: «سِبابُ المسلم فُسُوقٌ، وقتاله كُفْرٌ»(٢).

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «السب في اللغة الشتم، والتكلم في عرض الإنسان مما يعيبه، والفسق في اللغة الخروج، والمراد به في الشرع الخروج عن الطاعة، وأما معنى الحديث فسب المسلم بغير حق حرام بإجماع الأمة، وفاعله فاسق كما أخبر النبي ﷺ»(٣).

وقال ﷺ: «إنّ مِن أرْبى الرِّبا الاسْتِطالةَ في عِرْضِ المُسلم بغير حقٍّ»(٤).

وفي رواية: «أربى الرِبَا شَتْمُ الأعراض»(٥).

وأخبر ﷺ أن شتم الناس سبب في الإفلاس الحقيقي الأخروي، فقال: «أتدرُون ما المفلس ؟» قالوا: المُفلسُ فينا من لا درهمَ له ولا متاع، فقال: «إنّ المفلسَ من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاة، ويأتي قد شتمَ هذا، وقذف هذا، وأكلَ مال هذا، وسفك دم هذا وضَرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤)، والعِرْض -بالكسر-: النَّفْسُ والحَسَبُ.
(٢) رواه مسلم (٦٤).
(٣) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٤٦).
(٤) رواه أبو داود (٤٨٧٦)، وصححه الألباني.
(٥) ينظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٤٣٣).

من خطاياهُم فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النار»[(١)]

وأخبر ﷺ أن منْ سبَّ الناس فقد عرض نفسه للهلاك، فقال: «سابُّ المؤمِنِ كالمُشْرِف على الهَلَكَة».

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي يكاد أن يقع في الهلاك الأخروي، وأراد في ذلك المؤمن المعصوم والقصد به التحذير من السب»[(٢)]

وأخبر ﷺ أن السَّب من قبح القول وسقط الكلام فقال: «المستبّان شيطانان، يتهاتران ويتكاذبان»[(٣)]

قال ابن الأثير في «النهاية»: «أي يتقاولان ويتقابحان في القول، من الهِتْر -بالكسر- وهو الباطل والسقط من الكلام». اهـ.

وأمر ﷺ أصحابه أن لا يسبوا أحدًا ولا يردوا على من سبهم، فقال لجابر ابن سُلَيم رضي الله عنه: «لا تَسُبَّن أحدًا»، قال جابر: «فما سببت بعدَهُ حُرًّا، ولا عبدًا، ولا بعيرًا، ولا شاةً».

وقال له النبي ﷺ في الحديث نفسه: «وإن امْرُؤٌ شتمك وعَيَّرك بما يَعْلَمُ فيك، فلا تُعَيِّرْهُ بما تعْلَم فيه، فإنما وبالُ ذلك عليه»[(٤)]

واختار لأصحابه أكمل الحالين وأرفع الدرجتين، فعن سعيد بن المُسَيِّب رَحِمَهُ اللَّهُ، أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ جالسٌ ومعه أصحابُهُ، وقع رجلٌ بأبي بكر فآذاه -وفي رواية: أن رجلًا كان يسُبُ أبا بكر- فَصَمَت عنه أبو بكر، ثم آذاه الثانية، فصمت عنْهُ أبو بكر، ثم آذاه الثالثةَ فانتصر منه أبو بكر، فقامَ رسول الله ﷺ حين انتصر

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).
(٢) «فيض القدير» (٧/ ٣٤٨٨)، وينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٨٧٨).
(٣) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤٢٧)، وصححه الألباني.
(٤) رواه أبو داود (٤٠٨٤)، وصححه الألباني.

أبو بكر، فقال أبو بكر: أَوَجَدْتَ عليّ يا رسول الله! فقال رسولُ الله ﷺ: «نزل ملكٌ من السماء يُكذِّبه بما قال لك، فلما انتصرتَ وقع الشيطانُ، فلم أكُنْ لأجلسَ إذ وقع الشيطان»(١).

فالانتصار جائز للعوام، وتركه أولى للخواص؛ قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٣٩-٤٠].

وقال ﷻ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وأبو بكر رضي الله عنه وإن كان قد انتقم لبعض حقه وصبر عن بعضه، إلا أن المناسب لمرتبته من الصديقية أن لا يرضى لنفسه بأوكس النَّصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، وهو ما استحسنه له النبي ﷺ.

وقد سار على ذلك السلف الصالح -رحمهم الله- فهذا أسماء بن خارجة يقول: «ما شتمت أحدًا قط؛ لأنه إن شتمني كريمٌ فأنا أحق مَنْ غَفَرَها، وتجاوز عنها، أو لئيمٌ فلا أجعل عرضي له غرضًا يهدفه بسهام شتمه»(٢).

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَنْبُلُ الرجلُ حتى يكون فيه خصلتان: العفّةُ عمّا في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم»(٣).

وفي ترجمة عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ: «أسمعه رجل كلامًا، فقال له: أردتَ أن يستفزّني الشيطان بعزِّ السلطان فأنال منك اليوم ما تناله منّي غدًا، انصرف رحمك الله»(٤).

وقال الأصمعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أسمع رجلُ الشعبيَّ كلامًا، فقال له الشعبي: إن كنت

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٩٦)، وصححه الألباني.
(٢) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٣١).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٠٥).
(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٢٦).

صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك»(١).

وعن عبد الله بن بكر المزَني قال: «جاء رجل فشتم الأحنف، فسكت عنه، وأعاد فسكت، فقال: والهَفَاه ! ما يمنعُه من أن يَرُدَّ عليّ إلا هواني عليه»(٢).

واستطال رجلٌ على أبي معاوية الأسود فقال: «أستغفر الله من الذنب الذي سُلِّطت به عليّ»(٣).

وساق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن علي بن المديني: «سمعت سفيان يقول: كان ابن عياش المنتُوف يقع في عمر بن ذرّ ويشتمه، فلقيه عمر، فقال: يا هذا لا تُفْرطْ في شتمنا وأبْقِ للصلح موضعًا، فإنا لا نكافئ مَنْ عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه»(٤).

وعن عبد الغفار بن القاسم قال: «كان علي بن الحسين رَحِمَهُ اللَّهُ خارجًا من المسجد فلقيه رجل فسبه فثارت عليه العبيد والموالي، فقال علي بن الحسين: مهلًا عن الرجل: ثم أقبل على الرجل فقال: ما ستر عنك من أمرنا أكثر: ألك حاجة نعينك عليها؟ فاستحيا الرجل فألقى عليه خميصة كانت عليه، وأمر له بألف درهم، فكان الرجل بعد ذلك يقول: أشهد أنك من أولاد الرسول»(٥).

وعن العباس بن هشام، عن أبيه، حدَّثني شيخٌ من أهل المدينة، قال: أقبل أبو حُميد بن داود بن قيس بن السائب المخزومي على عبد الله بن صَفْوَان بن أميّة يشتمه ويقع فيه، وهو جالس في المسجد وحوله بنوه وأهله، فقال: عزمتُ على رجلٍ منكم أن يجيبه، ثم انصرف، فقالوا: لم نرَ مثل تركك هذا يشتمك، فأمر له بصلة مكانه، فأقبل بعد

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٢٦).
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه.
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٨٩).
(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٣٢٨).

ذلك فقال: أشتمك وتَصِلُني ؟ قال: تريد أن تُزيل الجبال ؟ [(١)]

وعن الحسن بن عيسى، قال: «سمعت ابن المبارك يقول: بلغني أن عيسى ابن مريم عليه السلام مرَّ بقوم، فشتموه، فقال خيرًا، ومرَّ بآخرين، فشتموه ,زادوا، فزادهم خيرًا، فقال الحواريون: كلما زادوك شرًا زدتهم خيرًا كأنك تغريهم بنفسك. فقال عيسى عليه السلام: كل إنسان يعطي ما عنده» [(٢)]

وعن يونس بن عُبيد قال: «شتم رجل الأحنف بن قيس قال: فقام الأحنف إلى منزله فاتّبعه الرجل يسبّه ويشتمه حتى بلغ منزله، فالتفت إليه الأحنف قال: حسبك الآن، ثم دخل» [(٣)]

وعن عطية بن قيس، قال: «كان رجل يتبع عَوْف بن مالك يشتمه، فجلس وعليه بُرْنُسٌ، فجعل يشتمه، فأدخل رأسه في البُرْنُسِ، فنام، فلما رأى أنه يشتم رجلًا نائمًا انصرف عنه» [(٤)]

لا يحاكون الناس تنقصًا لهم

فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن المُحاكاة الدالة على التنقيص من الغيبة، ونهى عنها.

عن عائشة رضي الله عنها قال: حَكَيْتُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم رجُلًا، وفي رواية: إنسانًا، فقال: «ما أُحِبُّ أنِّي حكيتُ إنسانًا وأنّ لي كذا وكذا» [(٥)]

قال المناوي رحمه الله: «ما أُحِبُّ أنِّي حكيتُ إنسانًا» أي: فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله منقصًا له، يقال: حكاه وحاكاه، قال الطيبي: وأكثر ما تستعمل المحاكاة في القبح.

---

(١) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٤٣).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٣٣١).
(٣) «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢٢٩).
(٤) «تاريخ دمشق» (٥٠/ ٣٧)، والبُرْنُس: كل ثوبٍ رأسُهُ منه ملتزقٌ به.
(٥) رواه أبو داود (٤٨٧٥)، والترمذي (٢٥٠٢)، وصححه الألباني.

«وَأَنَّ لِي كذا وكذا» أي: ولو أعطيت كذا وكذا من الدنيا، أي: شيئًا كثيرًا منها بسبب ذلك فهي جملة حالية واردة على التعميم والمبالغة».

قال النووي: «ومن الغيبة المحرمة المحاكاة بأن يمشي متعارجًا أو مطاطيًا رأسه أو غير ذلك من الهيئات»(١).

وقال في «عون المعبود»: «وحكيت للنبي ﷺ إنسانًا، أي فعلت مثل فعله تحقيرًا له، يقال: حكاه وحاكاه، وأكثر ما تستعمل المحاكاة في القبيح».

«ما أُحِبُّ أَنِّي حكيتُ إنسانًا» أي ما يسرني أن أتحدث بعيبه، أو ما يسرني أن أحاكيه بأن أفعل مثل فعله أو أقول مثل قوله على وجه التنقيص»(٢).

وعن الأعمش، عن إبراهيم بن يزيد بن الأسود النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إني لأرى الشيء مما يعاب فما يمنعني من عيبه إلا مخافةَ أن أبتلى به»(٣).

لا يروعون الناس

فعن عبد الله بن السَّائب عن أبيه عن جَدِّه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يَأخذَنَّ أحدُكُم متاعَ أخيه لاعبًا ولا جادًا -وفي لفظ: لَعِبًا ولا جِدًّا- ومَنْ أخذ عصا أخيه فلْيَرُدَّها»(٤).

ووجه النهي عن الأخذ جدًّا ظاهر لأنه سرقة، وأما النهي عن الأخذ لعبًا فلأنه لا فائدة فيه بل قد يكون سببًا لإدخال الحزن والأذى على صاحب المتاع.

---

(١) «فيض القدير» (١٠/ ٥٢٨٣).
(٢) «عون المعبود» (١٣/ ١٥١).
(٣) «صفة الصفوة» (٢/ ٤١).
(٤) رواه أبو داود (٥٠٠٣)، والترمذي (٢١٦٠)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤١)، وحسنه الألباني.

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، قال: «حدَّثنا أصحابُ محمد ﷺ أنهم كانوا يسيرونَ مع النبي ﷺ فنامَ رجَلٌ منهُم، فانطلق بعضهم إلى حبْلٍ مَعَهُ، فأخذه فَفَزِعَ، فقالَ رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لمسلمٍ أن يُرَوِّعَ مُسْلِمًا» أي: يخوفه، ولو هازلًا، لما فيه من الإيذاء»[١]

يدارون الناس

والمداراة: هي ملاطفة من يخافُ شره، فإذا بُلِيَ الإنسان بذي خلق سيءٍ أو بُلِيَ بفاجر، أو عدوٍ، فينبغي أن يجامله ويتقيه؛ ليدفع بذلك شرَّهُ وأذاه، فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر ويميل إليه فيكون سببًا لاستمالة قلبه.

ومداراة الخلق مجلبة للود والألفة وهي من الحكمة وليست مداهنة، ولا نفاقًا بل هي حكمة واستصلاح.

قال محمدُ بن الحَنَفيَّةِ: ليسَ بحَكيم من لا يُعاشرُ بالمعروف، منْ لا يَجِدُ من مُعاشَرَتِهِ بُدًّا، حتّى يجعلَ الله له فرجًا، أو قال: مَخْرَجًا. وأنشد المتنبي:

ومن نكدِ الدنيا على الحُرِّ أن يرى ... عدوًا له ما مِنْ صَداقتِهِ بُدُّ

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «خالط الناس وزايلهم، ودينك لا تَكْلُمَنْهُ».

قال الخطابي: «يريد خالطهم ببدنك وزايلهم بقلبك، وليس هذا من باب النفاق، ولكن من باب المدارة».

قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ: «كانوا يقولون: المداراة نصف العقل، وأنا أقول: هي العقل كله»[٢]

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٠٤)، وصححه الألباني.
وينظر: «عون المعبود» (١٣/ ٢٣٦)، و«فضل الله الصمد» (١/ ٢٩١).
(٢) «الآداب الشرعية» (٤/ ١٢١)، وزايَلْتُه: فارَقْتُهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المداراةُ صِفَةُ مَدْح، والمداهَنَةُ صفَةُ ذمّ، والفرق بيْنهُما: أن المُدَاري يتلطفُ بصاحبه، حتى يستخرجَ منه الحقَّ، أو يَرُدَّهُ عن الباطل.

والمُداهِنُ يتلطفُ به ليقرَّهُ على باطلِهِ ويَتْرُكَهُ على هواهُ، فالمُداراةُ لأهل الإيمان، والمُداهنةُ لأهلِ النفاقِ»(١)

فالفرق بين المداراة والمداهنة الغرض الباعث على الإغضاء، فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى فيه إصلاح أخيك بالاغضاء فأنت مدارٍ، وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فإنت مداهن(٢)

وقد قال الله تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت:٣٤] أي: قريب.

وقال تعالى: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢](٣)

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة، أي: يدفعون بالسلام عليهم والملاينة معهم في الكلام بالخلق الجميل ما جبلوا عليه من فحشهم وأذاهم»(٤)

*** يدارون الناس اتباعًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:**

فعن عروة بن الزبير أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته أنه استأذَنَ على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلٌ فقال: «ائذنوا له فبئس ابن العشيرة»، أو «بئس أخو العشيرة»، فلما دخلَ ألان له الكلام، فقلتُ: يا رسولُ الله، قلتَ: ما قلتَ، ثم ألنتَ له في القول ؟ فقال: «أي عائشة، إن شرَّ الناس منزلة عند الله من تركهُ -أو وَدَعَه- الناسُ اتِّقاءَ فُحشه»(٥)

---

(١) «الروح» لابن القيم (ص:٢٠٨)، نقلًا عن «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٥٩).
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص:١١١).
(٣) «الروح» لابن القيم (ص:٢٠٨) نقلًا عن «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٥٩).
(٤) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ٢٣٨).
(٥) رواه البخاري (٦١٣١).

والمعنى: إنني إنما تركت الانقباض في وجهه اتقاء فحشه.

ألان له القول بعدما قال لينجذب أهلهُ إلى الإسلام، فهو من السياسة الدينية، وليس هو من قبيل ما يظهر الشخص خلاف ما يبطن وهو يمدحه بعد ذلك حتى يكون مناقضًا لقوله الأول، وإنما بذل له حسن عشرته وطلاقة وجهه، والرفق في مكالمته تطييبًا لخاطره، واتقاءً لشر منع قومه من الدخول في الدين ولا خلاف في جواز ذلك بل حسنه بل ندبه، وإنما الممنوع المداهنة (١).

وعن ابن أبي مُلَيْكة: «أن النبي صلى الله عليه وسلم أُهْدِيت له أقبية من ديباجٍ مُزَرَّدَةٌ بالذهبِ، فقسمَها في أناسٍ من أصْحابِه، وعزلَ منها واحدًا لِمَخْرَمة بن نوفلٍ، فجاء ومعهُ ابنُهُ المِسْوَرُ بنُ مخرَمَةَ، فقام على الباب، فقال: ادْعُهُ لي، فسمع النبيُّ صلى الله عليه وسلم صوتَهُ فأخذ قباءً فتلقَّاهُ به، واسْتَقْبَله بأزْرَارِهِ، فقال: «يا أبا المِسْور خبأتُ هذا لك، يا أبا المسورِ خبأتُ هذا لك»، وكان في خُلُقِهِ شيءٌ» (٢)

أي: كان سيء الخلق وفي لسانه بذاءة.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «دعاه أبا المسور وكأنه على سبيل التأنيس له بذكر ولده الذي جاء بصحبته، وإلا فكنيته في الأصل أبو صفوان وهو أكبر أولاده...

قال ابن بطَّال: يستفاد منه استئلاف أهل اللَّسَن (٣)، ومن في معناهم بالعطية والكلام الطيب.

وقال ابن بطَّال: المداراةُ من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول -وذلك من أقوى أسباب الألفة- وظنّ بعضهم

---

(١) «فضل الله الصمد» (٢/ ٥٠٢).

(٢) رواه البخاري (٣١٢٧، ٥٨٠٠، ٦١٣٢).

(٣) قال في «لسان العرب»، و«النهاية في غريب الحديث»: «وفي حديث عمر وذكر امرأةً فقال: «إن دخلت عليك لَسِنَتْكَ»، أي: أخذتك بلسانها، يصفها بالسَّلاطة وكثرة الكلام والبَذَاءِ».

أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوبٌ إليها والمداهنَةَ محرمةٌ، والفرقُ: أن المداهنة من الدِّهَانِ وهو الذي يظْهر على الشيء، ويستُرُ باطِنَهُ، وفسرها العلماء بأنها مُعاشرةُ الفاسقِ وإظهارُ الرِّضا بما هو فيه من غير إنكارٍ عليه.

والمداراةُ: هي الرفقُ بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فِعْلِهِ وتركِ الإغلاظِ عليه حيثُ لا يظهرُ ما هو فيه.

والإنكارُ عليه بلُطفِ القول والفعل، ولاسيَّما إذا احْتِيجَ إلى تألُّفِهِ ونحو ذلك»[١]

وقيل للإمام العلامة ابن عقيل كما في «الفنون»: أسمع وصية الله ﷻ يقول: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]، وأسمع الناس يعُدُّون من يظهر خلاف ما يبطن منافقًا، فكيف لي بطاعة الله تعالى والتخلص من النفاق؟

فقال: النفاق هو إظهار الجميل وإبطان القبيح وإضمار الشر مع إظهار الخير؛ لإيقاع الشر، والذي تضمنتهُ الآية إظهار الحَسَن في مقابلة القبيح: لاستدعاء الحسن.

قال في «الآداب»: «فخرج من هذه الجملة أن النفاق إبطان الشر وإظهار الحسن لإيقاع الشر المضمر، ومن أظهر الجميل والحسن في مقابلة القبيح، ليزول الشر فليس بمنافق لكنه يستصلح، ألا تسمع إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

فهذا اكتساب استمالة، ودفع عداوة، وإطفاءٌ لنيران الحقائد، واستنماء الود، وإصلاح العقائد، فهذا طلب المودات واكتساب الرجال.

والتودد إلى الناس مطلوب شرعًا مستحسن طبعًا.

---

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٦٤٧).

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

مـا دُمْـتَ حيًـا فـدارِ النـاسَ كُلَّهُـمُ ... فإنمـا أنـت في دارِ المُـداراة

مـن يـدْرِ داري ومَـنْ لم يـدْرِ سوفَ يُرى ... عمَّـا قليـل نـديمًا للنَّـدامَاتِ

وقال محمد بن أبي سعيد بن شرف القيرواني رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن تُلقـك الغربـة في معـشر ... قـد جبـل الطبـع علـى بغـضهم

فـدارهم مادمـت في دارهـم ... وأرضـهم مـا دمـت في أرضـهم (١)

* يـدارون النـاس:

اقتداءً بالسلف الصالح فقد كانوا يدارون الناس لدفع الشر واستجلاب الود، قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويذكر عن أبي الدرداء رضي الله عنه: «إنا لنكْشِرُ في وجوه أقوام وإنَّ قلوبنا لتلعنهم» (٢)

وقال أحدهم:

لقـد اسْمَعُ القـولَ الـذي كـاد كُلَّمـا ... تذكِّرنيـه الـنَّفْسُ قلـبي يُـصدَّعُ

فأبْـدي لمـن أبـداه مـني بـشاشةً ... كـأنيَ مـسرورٌ لمـا منـه أسْـمَعُ

ومـا ذاك مـن عجْـب بـه غـير أنـني ... أرى أنَّ تَـرْكَ الـشرِّ للـشرِّ أقطـعُ (١)

وقال أكثم بن صيفي: من شَدَّدَ نَفَّرَ، ومن تراخى تَأَلَّف، والسرور في التغافل.

وقيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبشر، قال: دفع ضغينة بأيسر مؤنة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول.

---

(١) «غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب» (١/ ١٦١).

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٦٤٧)، وقال في «النهاية»: «الكَشْر: ظهور الأسنان للضَّحِكِ وكاشره! إذا ضحك في وجهه وباسطه».

(٣) «لباب الآداب» (ص:٣٢٢).

وقال بعض الحكماء: «منْ عَرف الناس داراهم، ومن جهِلَهُم ماراهم»(١)

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن الخَوَر إظهار العداوة للعدو، ومن أحسن التدبير التلطف بالأعداء إلى أن يمكن كسر شوكتهم، ولو لم يمكن ذاك كان اللطف سببًا في كف أكفهم عن الأذى وفيهم من يستحي لحسن فعلك: فيتغير قلبه لك.

وقد كان جماعة من السلف إذا بلغهم أن رجلًا قد شتمهم أهدوا إليه وأعطوه فهم بالعاجل يكفون شره، ويحتالون في تقليب قلبه، ويقع بذلك لهم مهلة لتدبير الحيَل عليه إن أرادوا»(٢)

وقال الماوَرْدي رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا كان للإنسان عَدْوٌّ وقد اسْتَحْكَمَتْ شَحْناؤُهُ، واسْتَوعَرَتْ سَرَّاؤُهُ، واسْتَخْشَنَتْ ضَرَّاؤهُ، فهو يتربَّص بدوائرِ السُّوء انتهاز فُرْصةٍ ويتجرَّعُ بمهانةِ العَجْزِ مرارةَ غُصَّةٍ، فإذا ظَفِرَ بنائبةٍ ساعدها، وإذا شاهد نِعْمَةً عاندها، فالبُعْدُ عن هذا حذَرًا أسلمُ، والكفُّ عنه مُتاركَةً أغْنَمُ؛ لأنه لا يُسْلَمُ من عواقب شرِّه، ولا يُفْلتُ من غوائِلِ مَكْرِهِ إلا بالبُعْدِ عنه، أو مُدَارَاتِهِ. وقد قال لقمانُ لابنِهِ: يا بُنيَّ: كَذَبَ من قال إن الشرّ بالشَّرِّ يُطفأُ، فإن كان صادقًا فليُوقِدْ نارين ولينْظُرْ هلْ تُطْفِئُ إحْداهُما الأخرى، وإنما يطفِئُ الخيرُ الشرَّ كما يطفِئُ الماءُ النار»(٣)

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعطى الحسنُ بنُ علي رضي الله عنهما شاعِرًا فقيل له: لِمَ تُعْطِي مَنْ يقولُ البُهْتانَ ويعصِي الرَّحمن ؟ فقال: إن خَيْرَ ما بذَلْتَ من مالكِ ما وقَيْتَ بهِ من عِرْضك، ومن ابتغى الخَيْرَ اتَّقى الشَّرَّ»(٤)

---

(١) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٥٧)، و(٤/ ١٢٣).
(٢) «صيد الخاطر» (ص:٣٤٨).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص:٢٢٣) نقلًا عن «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٥٩).
(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١) نقلًا عن «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٦٤).

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ:

لمَّا عَفَوْتُ ولم أحْقِدْ على أحَدٍ		أرَحْتُ نَفْسِيَ مِن همِّ العَدَاواتِ
إنِّي أُحَيِّي عَدُوِّي عِنْدَ رُؤيَتِهِ		لأدْفَعَ الشَّرَّ عَنِّي بالتَّحِيَّاتِ
وأُظْهِرُ البِشْرَ للإنسانِ أُبغِضُهُ		كأنَّما قد حَشَا قَلْبِي مَحَبَّاتِ
النَّاسُ داءٌ وداءُ النَّاس قُرْبُهُمُ		وفي اعتزالِهِمُ قَطْعُ المَوَدَّاتِ[(١)]

وقال العامري: «المداراة اللين والتعطف، ومعناه أن من ابتلى بمخالطة الناس معاملة ومعاشرة فآلان جانبه وتلطف ولم ينفرهم كتب له صدقة».

قال ابن حبان: «المداراة التي تكون صدقه للمداري تخلقه بأخلاقه المستحسنة مع نحو عشيرته ما لم يشنها بمعصية، والمداراه محثوث عليها مأمور بها، ومن ثم قيل: اتسعت دار من يداري وضاقت أسباب من يماري»[(٢)]

يضبطون الأمر ويجتنبون سوء الظن

الظن: هو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله ومن خلائق المسلم الحق أنه لا يظن بالناس ظن السَّوْء، ولا يسمح لنفسه أن يطلق لها عنان الخيال والتصورات التي تصم الناس بالعيب، وتنسب إليهم التّهم، وهم منها بُرَآءُ، وذلك عملًا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، والظنّ المأمور باجتنابه هنا هو اتهام الناس بجريمة ما، أو بارتكاب منكر من المنكرات بغير دليل راجح، وإذا اتهام بالأوهام والشكوك، وهي الظنون التي لا تقوى على الإدانة.

ولقد اشتد الهدي النبويّ الكريم في التحذير من الظن ورجم الناس بالغيب بعيدًا

---

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص:٢٢٣) نقلًا عن «نضرة النعيم» (٨/ ٣٣٦٤).
(٢) «فيض القدير» (٥/ ٥١٩).

عن الحقيقة واليقين، فقال النبي ﷺ: «إيّاكُمْ والظنَّ، فإنَّ الظنَّ أكْذَبُ الحديث» متفق عليه.

قال في «عون المعبود»: ««إياكم والظنَّ» أي: احذروا اتباع الظن، أو احذروا سوء الظن، والظنّ تهمةٌ تقع في القلب بلا دليل، «فإن الظن أكذبُ الحديث» أي: حديث النفس، لأنه يكون بإلقاء الشيطان في نفس الإنسان»(١).

ولقد عدّ النبي ﷺ الظنّ أكذب الحديث و المسلم الحق الصادق لا يَجْري على لسانه حديث فيه رائحة الكذب، فكيف يقع في أكذب الحديث !؟

وتتبع الظنون بالمؤمنين يفضي إلى إصدار أحكام جائرة ضدهم، ومن شأنه أن يُفسد العلاقات الاجتماعية، ويولِّد الأحقاد والعداوات، وهو من البواعث على رذيلة الغيبة، ومن مقطعات أواصر الأخوة الإيمانية، ولكن هذا لا يعني الغفلة وترك الحذر، فالغفلة وترك الحذر ورطة، واتباع الظنون التي لا تقوى على إثبات القضية رعونة وطيش وتسرّع في الأحكام، وظلم للمؤمنين وعدوان على كرامتهم وأعراضهم التي يجب أن تظلّ مصونة، إلا أن يُدانوا بإثبات شرعي.

ولما كان لسوء الظن من الآثار الوخيمة التي تعود بالتقاطع والتباغض بين الظانِّ والمظنون به، والتي تفرق المجتمع وتشتته؛ سد السلف -رحمهم الله- باب الظنون السيئة، وضبطوا أمورهم واتهموا نظرهم.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أراد أن يسلم من الغيبة فليسد على نفسه باب الظنون، فمن سلم من الظن: سلم من الغيبة»(٢).

وكان بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا رأي شيخًا قال: «هذا خير مني عَبَدَ الله

---

(١) «عون المعبود» (١٣/ ١٧٧)، وينظر: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٢٣٨)، و«شخصية المسلم» (ص:٢٠٧)، و«مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة» (ص:١١٨).

(٢) «العوائق» (ص:٤٢).

قبلي، وإذا رأى شابًا قال: هذا خير مني ارتكبت من الذنوب أكثر مما ارتكب، وكان يقول: عليكم بأمر إن أصبتم أجرتم، وإن أخطأتم لم تأثموا، وإياكم وكل أمر إن أصبتم لم تؤجروا، وإن أخطأتم أثمتم، قيل: ما هو؟ قال: سوء الظن بالناس، فإنكم لو أصبتم لم تؤجروا وإن أخطأتم أثمتم»(١).

وهذا سد لباب الظنون من السلف الصالح الذين استروحوا نسمات هذا الهدي نقية صافية من كل شائبة وكدر(٢).

وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كل أحدٍ حقيقٌ -حين ينظر في أمور الناس- أن يتَّهِمَ نظرهُ بعين الرِّيبة، وقلبه بعين المقت، فإنهما يُزيِّنان الجُوْر، ويحملان على الباطل، ويُقبِّحَان الحَسَن، ويُحسّنان القبيحَ»(٣).

وقال أيضًا: «حقٌّ على العاقلِ أن يَتَّخِذَ مِرْآتين: فينظرَ منْ إحداهُما في مساوئ نفسِه، فيتصاغَر بها، ويُصْلِحَ ما استطاع مِنْها، وينظُرَ من الأخرى في محاسنِ الناس، فيُحَليهُمْ بها، ويأخذ ما استطاع منْهَا»(٤).

وهـذا تحرّزٌ في الكـلام والأحكام ممن لم يغب عن حسِّه وفكره قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء:٣٦].

فإذا هو وقّاف عند هذا النهي الحكيم، لا يتكلم إلا بعلم، ولا يحكم إلا بيقين.

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي العالية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كنا نؤمر أن نختم على الخادم، ونكيل ونعدَّها، كراهية أن يتعودوا خلُق سوء، أو يظن أحدُنا ظن سوء»(٥).

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ٢٥٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٣٥).
(٢) «رسالة المسترشدين» (ص:١٤١).
(٣) «الأدب الكبير» (ص:٣٦).
(٤) «الأدب الصغير» (ص:٦٤).
(٥) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٦٧)، وصححه الألباني.

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «إني لأعدُّ العُراق -العظْمُ الذي أُكِلَ لحمُه- على خادمي، مخافة الظن» أي: أن أسيء به الظن[١].

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يعد قطعات اللحم لما كان خادمه يجيء من السوق، فلما جلس للطعام كان يأمر خادمه بالجلوس معه، فسئل مرة: إنك تعد قطعات اللحم إذا جاء بها الخادم ثم لا تدعه حتى يأكل معك؟ فقال: ذلك أنقى للصدر، فلا يذهب الوهم إلى أنه أخذ منه شيئًا، يقولون: لأن قلوبنا بالختم والكيل والعد تطمئن بالحفظ، وينحسم طمع العبيد و الخدم فلا يجترئون على السرقة والخيانة، فهم يصانون عن ذنب، ونحن نصان عن سوء الظن بهم.

فرحم الله السلف الذين صانوا أنفسهم عن سوء الظن بالضبط والحذر.

يحفظون السر

فإن من قَبِلَ من الناس أن يُودِع سرَّ أخيه عنده فقد أعطى أخاه عهدًا بأن لا يفشيه للناس، فوجب عليه الوفاء بعهده، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

أي: كان مسئولًا عند الله عن حفظه والوفاء به.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بالحديثِ ثمَّ الْتَفَتَ، فهي أمانة»[٢].

فجعل النبي صلى الله عليه وسلم حديث السِّرِّ حكمه حكم الأمانة فلا يجوز إضاعتها بإشاعته.

قال ابن رسلان: «لأن التفاته إعلام لمن يحدثه أنه يخاف أن يسمع حديثه أحد،

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٦٨)، وصححه الألباني، وينظر: «فضل الله الصمد» (١/ ٢٣٤).
(٢) رواه أبو داود (٤٨٦٨)، وحسنه الألباني.

وأنه قد خصه بسره، فكان الالتفات قائمًا مقام اكتم هذا عني أي خذه عني واكتمه وهو عندك أمانة»[(١)]

*** وحفظ السرِّ دليل رجولة المرء، وقوة شخصيته، ومتانة خلقه.**

وقد قال أحمد بن عطاء بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس كلّ من يَصْلُح للمُجالسَة يَصْلُحُ للمؤانسَةِ، وليس كلّ من يَصْلُحُ للمؤانسة يُؤتَمَنُ على الأسرار»[(٢)]

وقيل لأعرابي: «كيف كِتمانك للسر، قال: ما قلبي له إلا قبر»[(٣)]

ولقد كان حفظ السر خلقًا بارزًا من أخلاق السلف -رحمهم الله- وعادة حميدة من أجمل عاداتهم.

روى الإمام البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه حين تأيّمت بنتُه حفصة -أي صارت بلا زواج وكان زوجها قد توفي- قال: «لقيت عثمان بن عفان رضي الله عنه فعرضتُ عليه حفْصَةَ، فقلتُ: إن شئتَ أنكحتُكَ حفصة بنت عمر: قال سأنظر في أمري، فلبثتُ لياليَ، ثم لقيني، فقال: قد بدا لي أن لا أتزوج يومي هذا، فلقيت أبا بكر الصِّديق رضي الله عنه فقلت: إن شئتَ أنكحتُكَ حفصةَ بنت عمر، فصمت أبو بكر رضي الله عنه فلم يرجع إليّ شيئًا، فكنتُ عليه أوجَدَ مني على عثمان -أي أكثر غضبًا وتألّمًا- فلبثتُ لياليَ ثم خطبها النبي صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر فقال: لعلَّك وجَدت عليّ -أي غضبت - حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك شيئًا ؟ فقلتُ: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنتُ علمتُ أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكرها، فلم أكُن لأفشي سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو تركَها النبي صلى الله عليه وسلم لقبلتها».

---

(١) ينظر: «عون المعبود» (١٣/ ١٤٨).
(٢) «تاريخ الإسلام» باب: «أحداث سنة: ٣٥١-٣٨٠» (ص:٤١٢).
(٣) «عيون الأخبار» (١/ ٨٢).

*** ولم تقتصر فضيلة حفظ السر على الرجال من السلف، بل شملت النساء والأطفال.**

عن أنس رضي الله عنه قال: «أتى عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأنا ألعبُ مع الغِلْمانِ، فسلَّمَ علينَا، فبعثني إلى حاجةٍ، فأبطأْتُ على أمّي، فلمّا جئتُ قالت: ما حَبسَكَ؟ قلتُ: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجةٍ، قالت: ما حاجتُهُ؟ قلتُ: إنها سرٌّ، قالت: لا تُحَدِّثَنَّ بسرِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا»[(١)]

لقد رأت أم أنس ابنها حريصًا على حفظ سرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فعزَّزَتْ فيه هذا الحِرْص، إذ طلبت منه ألا يخبر بسرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدًا، ولم يدفعها حب الاطلاع إلى استدراج ابنها الصغير، لتعرف ذلك السرّ الذي طواه عنها، وهذه هي تربية الإسلام، وهذا هو المستوى الرفيع الذي رفعت إليه الإنسان، رجلًا كان أو امرأة أو طفلًا.

ومن الأسرار التي يجب حفظها، وعدم إفشائها ما يكون بين الرجل وامرأته، فهو أولًا حق المرأة في عدم إفشاء ما يكون منها لزوجها، وهو ثانيًا حقّ الآداب الإسلامية العامة التي توصي بستر مثل هذه الأمور، فالمرء مستأمن عليها من جهتين: جهة الآداب الإسلامية، وجهة صاحب الحقِّ الخاص.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ من أشرِّ الناس عندَ الله منْزلةً يومَ القيامةِ الرجلَ يُفضي إلى امرأتهِ وتُفْضي إليه ثم ينشرُ سِرَّها»[(٢)]

وحكم المرأة في هذا مثل حكم الرجل، فالنصوص الإسلامية لها صفة العموم، ما لم يكن الأمر من خصائص أحدهما، وللعلاقات الزوجية في نظر الإسلام قداسة، فما يضمه البيت من شؤون العِشْرَة بين الرجل وامرأته، يجب أن يُطْوى في أستار مسبلة، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب. والسفهاء من العامة يُثَرْثِرُونَ بما يقع بينهم وبين أهلهم من أمور.

---

(١) رواه مسلم (٢٤٨٢).
(٢) رواه مسلم (١٤٣٧).

وهذه وقاحة حرمها الله تعالى.

ومن معاني الأمانة أن تحفظ حقوق المجالس التي تشارك فيها، فلا تدع لسانك يفشي أسرارها، ويسرد أخبارها.

فكم من حبال تقطعت، ومصالح تعطلت، لاستهانة بعض الناس بأمانة المجلس، وذكرهم ما يدور فيه من كلام منسوبًا إلى قائله أو غير منسوب.

وحرمات المجالس تصان، ما دام الذي يجري فيها مضبوطًا بقوانين الأدب وشرائع الدين، وإلا فليست لها حرمة.

وعلى كل مسلم شهد مجلسًا يمكر فيه المجرمون بغيرهم ليلحقوا به الأذى، أن يسارع إلى الحيلولة دون الفساد جهد طاقته[(١)].

يجالسون الأخيار ولا يصحبون الأشرار

فقد قال النبي ﷺ: «ومَثَلُ الجليسِ الصَّالح، كَمَثَلِ صاحب المِسْك، إن لم يُصْبك منه شيءٌ أصابَكَ من ريحِهِ، ومثَلُ جليسِ السُّوءِ، كَمَثَلِ صاحِبِ الكير، إنْ لمْ يُصبْكَ من سوادِهِ، أصابك مِنْ دخانِهِ»[(٢)].

وقال ﷺ: «لا تُصاحِبْ إلا مؤْمِنًا، ولا يأْكُلْ طعامَكَ إلا تَقِيٌّ»[(٣)].

وقال شعيب بن حرب رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تجلس إلا مع رجلين: رجل جلست إليه يعلِّمك خيرًا فتقبل منه، أو رجل تعلّمه خيرًا فيقبل منك، والثالث اهْرب منه»[(٤)].

---

(١) ينظر: «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٣٦٠)، و«خلق المسلم» (ص:٥١)، و«شخصية المسلم» (ص: ٢٠٩).

(٢) رواه أبو داود (٤٨٢٩)، وصححه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

(٤) «صفة الصفوة» (٣/ ٤)، و«العزلة والانفراد» (ص:٨٢).

وعن يحيى بن جعدة قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لولا ثلاث لأحببت أن أكون قد لحقت بالله: لولا أن أسير في سبيل الله، أو أضع جبيني لله ساجدًا، أو مجالسة قوم يلتقطون طيب الكلام كما يلتقط طيب التمر»(١).

وعن داود بن أبي هند قال: «جالست الفقهاء، فوجدت ديني عندهم، وجالست أصحابَ المواعظ فوجدتُ الرِّقَّةَ في قلبي، وجالست كبار الناس، فوجدت المروءة فيهم وجالست شرار الناس، فوجدت أحدهم يطلق امرأته على شيء لا يساوي شعيرة»(٢).

وعن الحسن بن علي الخلاّل رحمه الله قال: «قال بعض الحكماء: مجالسة أهل الدِّيانة تجلو عن القلوب صدأ الذُّنوب، ومجالسة ذوي المروءة تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تنتج ذكاء القلوب»(٣).

وقال الأصمعي عن أبيه: «كان يقال: الصَّاحب رُقعَةٌ في قميص الرجل، فلْينظر بما يَرْقَعُهُ»(٤).

وكان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رحمه الله يجالس أسلم مولى عمر، فقال له رجل من قريش: «تدع قريشًا وتجالس عبد بني عديّ؟ فقال عليّ: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع»(٥).

قال الماوردي رحمه الله: «إن من جالس الأخيار: أحبَّ أن يقتدي بهم في أفعالهم، ويتأسّى بهم في أعمالهم، ولا يرضى لنفسه أن يقصر عنهم، ولا أن يكون في الخير دونهم، فتبعثه المنافسة على مساواتهم، وربما دعته الحَميَّة إلى الزيادة عليهم، والمكاثرة لهم،

---

(١) «الزهد الكبير» للإمام وكيع (ص:٣١٥).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٠٣).
(٣) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ١٦٠).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٨٥).
(٥) «الطبقات الكبرى» (٥/ ١١١).

فيصيرون سببًا لسعادته، وباعثًا على استزادته، والعرب تقول: لولا الوِئام، لهلك الأنام، أي لو لا أن الناس يرى بعضهم بعضًا فيُقتدى بهم في الخير لهلكوا»[١].

ولذلك قال بعض البلغاء: «من خير الاختيار: صحبة الأخيار، ومن شر الاختيار، مودة الأشرار، وهذا صحيح؛ لأن للمصاحبة تأثيرًا في اكتساب الأخلاق، فتصلح أخلاق المرء بمصاحبة أهل الصلاح، وتفسد بمصاحبة أهل الفساد».

وأنشد بعض أهل الأدب، لأبي بكر الخوارزميّ:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يَفسُدُ

عَدْوى البليد إلى الجليد سريعةٌ ... والجمر يُوضَعُ في الرماد فيَخمُدُ

وأوصى حكيم ولده، فقال: «عليك بصحبة من إذا صاحبته زانك، وإن احتجت إليه مانك، وإن استعنت به أعانك، وإن خدمك صانك».

وقال ذو النون: «عليك بصحبة من تسلم منه في ظاهر الغيب، كسلامتك منه في المشاهدة»[٢].

ولا يصحبون الأشرار، فقد قال النبي ﷺ: «الرجل على دين خَليله، فلينظر أحدُكُمْ منْ يُخالِلُ»[٣].

وعن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال عمر: «اعتزل ما يؤذيك، وعليك بالخليل الصالح، وقلّ ما تجده، وشاور في أمرك الذين يخافون الله عز وجل»[٤].

وقال محمد بن علي بن الحسين بن أبي طالب رحمه الله: أوصاني أبي فقال: لا تصحبن خمسة ولا ترافقهم في الطريق: لا تصحبن فاسقًا، فإنه بايعك بأكلةٍ فما دونها، قلت: يا أَبَهْ

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص:٨٧-٨٨).
(٢) «تاريخ دمشق» (١٨/ ٨٧ و ١٩/ ٣٠٧).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني.
(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (١٦/ ٤٧١).

وما دونها؟ قال: يطمع فيها ثم لا ينالها، ولا تصحبنّ البخيل فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه، ولا تصحبن كذابًا فإنه بمنزلة السراب، يبعد منك القريب ويقرب منك البعيد، ولا تصحبن أحمقَ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك، ولا تصحبن قاطع رحم فإني وجدته ملعونًا في كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع»[(١)]

وقال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «منظومة الآداب»:

ولا تَصْحَب الحمْقى فَذُوا الجهل إن يَرُمْ   يَـرُمْ صـلاحًا لأمـر يـا أخـا العَـزْمِ يُفْـسِدِ

والأحمق هو قليل العقل، والحمق: ارتكاب الخطأ على بصيرة يظنه صوابًا، وقيل: وضع الشيء في غير موضعه مع العلم بقبحه، وقيل: استحسان ما تستقبحه العقلاء.

وأشار بقوله: يُفسِد إلى ما رواه الدينوري في المجالسه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لا تواخ الفاجر فإنه يزين لك فعله ويحب لو أنك مثله[(٢)]

فيجب على الإنسان أن لا يصحبَ إلا مَنْ له دينٌ وتقوى، وينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرة الأشرار، ويترك مصاحبة الفجّار، ويهجُرَ من ساءَتْ خُلّتُهُ وقبُحَتْ بين الناس سيرتُهُ: قال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]. فأثبت الله تعالى المماثلة بيننا وبين البهائم وذلك إنما هو في الأخلاق خاصةً فليس أحدٌ من الخلقِ إلا وفيه خُلُقٌ مِنْ أخلاق البهائم، ولهذا تجدُ أخلاق الخلائق مختلفةً فإذا رأيت الرجلَ جاهلًا في خلائقهِ، غليظًا في طبائعِه، قويًا في بدنه لا تُؤْمَنُ ضغائِنُهُ، فألحقْهُ بعالَمِ النمورة، والعرب تقول: أجلُّ من نمِر، وإذا رأيت الرجل هجامًا على أعراض الناس فقد ماثلَ عالَمَ الكلاب.

فإن دأب -عادة- الكلب أن يجفُوَ مَنْ لا يجفُوه، ويؤذيَ مَنْ لا يؤذيه، فعاملْهُ بما

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ١٨٤)، و«سير السلف الصالح» (٣/ ٩١٤).
(٢) «غذاء الألباب» (٢/ ٣٧٦).

كنتَ تعاملُ به الكلبَ إذا نَبَحَ، ألسْتَ تذهبُ وتتركُهُ؟ وإذا رأيت إنسانًا قد جُبِلَ على الخلافِ إن قلت: نعم، قال: لا، وإنْ قلت: لا، قال: نعم، فألحقْهُ بعالم الحمير فإنَّ دَأْبَ الحمارِ إن أدْنَيْتَهُ بَعُدَ، وإن أبعدتَهُ قَرُبَ، فلا تنتفعُ به ولا يُمكنُكَ مفارقتُهُ، وإن رأيت إنسانًا يهجمُ على الأموال والأرواح فألْحقْهُ بعالم الأسودِ، وخُذْ حِذرَكَ منه كما تأخُذ حِذرَك من الأسدِ، وإذا بُلِيْتَ بإنسانٍ خبيثٍ كثير الرَّوغانِ فألحِقْهُ بعالم الثعالب، وإذا رأيت من يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرِّقُ بين الأحبةِ فألحقْهُ بعالم الظِّرْبَانِ، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرُّقِ الجماعة: مشى بينهم ظربانٌ فتفرقوا، وإذا رأيْتَ إنسانًا لا يسمعُ الحكمة والعلمَ، وينفرُ من مجالسةِ العلماء، ويألف أخبار أهل الدنيا فألحقْهُ بعالم الخنافس، فإنَّهُ يعجبُها أكلُ العُذْرات -القاذورات- وملامسةُ النجاساتِ، وتنفر منْ ريح المسكِ والوردِ، وإذا شمَّتِ الرائحة الطيبة ماتت لوقتها، وإذا رأيتَ الرجل يصنعُ بنفسِه كما تصنعُ المرأة لبَعْلها يبيضُ ثيابَهُ ويعدلُ عمامَتَهُ، وينظرُ في عِطْفَيْهِ فألحقْهُ بعالمِ الطَّواويس، وإذا بُليتَ بإنسان حقودٍ لا ينسى الهفواتِ ويُجازي بعد المُدَّةِ الطويلة على السَّقطات، فألحقه بعالم الجمال، والعربُ تقول: أحقدُ مِنْ جمل، فتجنب قُرْبَ الرجلِ الحقود.

وعلى هذا النمط فلْيحترِز العاقلُ من صحبة الأشرار، وأهل الغدر ومَنْ لا وفاءَ لهم فإنه إذا فعل ذلك سَلِمَ من مكائِدِ الخلق وأراحَ قلبَهُ وبدنَهُ، والله أعلم[(١)]

وقال محمد بن سلام الجمحي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعض الحكماء: ثلاثة أشياء تميت القلب: مجالسة الأنذال، ومجالسة الأغنياء، ومجالسة النساء»[(٢)]

وقال عون بن عبد الله بن عتبة رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنت أجالس الأغنياء، فكنت من أكثر الناسِ همًّا وأكثرهم غمًّا، أرى مركبًا خيرًا من مركبي، وثوبًا خيرًا من ثوبي فأهتم، فجالست الفقراء فاسترحت»[(٣)]

---

(١) «المستطرف» (١/ ٢١٤).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٥٠٠).
(٣) «سير السلف الصالحين» (٣/ ٨٦١).

يصحبون من ينذرهم ويخوفهم لا من يؤمنهم ويغريهم

سأل رجلٌ الحسنَ فقال: يا أبا سعيد: كيف نصنعُ بمجالسة أقوام يُخوِّفوننا حتى تكادُ قلوبُنا تطير ؟ فقال: والله لأن تصحبَ أقوامًا يُخوِّفونك حتى تُدرك أمْنًا خيرٌ لك من أن تصحب أقوامًا يُؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف[١]

عن محمد بن عبد العزيز، قال: أخبرنا ابن عائشة، قال: قال بعض حكماء العرب: مَنْ أحبّك نهاك، ومن أبغضك أغراك[٢]

وقال ابن الوزير اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفي نوابغ الكَلِم، وبدائع الحكَم: عليك بمن يُنذر الإبسالَ والإبلاس -والإبلاس: هو الانكسار والحُزن- وإياك ومَنْ يقول: لا باسَ ولا تاسَ»[٣]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الرشيد لشيبان: عظني، قال: لأن تصحب مَنْ يخوفك حتى يدركك الأمن؛ خيرٌ لك من أن تصْحَبَ من يؤمنك حتى يدركك الخوف، فقال الرشيد فسِّرْ لي هذا، قال: من يقول لك: أنت مسؤول عن الرعية فاتق الله أنْصَحُ لك ممن يقول: أنتم أهل بيت مغفور لكم، وأنت قرابة نبيكم -عليه الصلاة والسلام- فبكى الرشيد حتى رحمه منْ حوله»[٤]

---

(١) «الداء والدواء» (ص:٣٨).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٦/ ٦٩).
(٣) «العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم» (١/ ٢٢٤).
(٤) «تاريخ الخلفاء» (ص:٣٣٧).

يستكثرون من الإخوان ويأنسون بهم ويختارون الخلص منهم

قال وهب بن منبه رَحِمَهُ اللهُ: «استكثر من الإخوان ما استطعت، فإنك إن استغنيت عنهم لم يضرّوك وإن احتجت إليهم نفعوك»(١).

وعن غالب القطّان قال: «جئت إلى الحسن بكتاب عبد الملك بن أبي بشر فقال: اقرأه، فقرأته فإذا فيه دعاء، فقال الحسن: رُبَّ أخ لك لم تَلِدْه أمّك»(٢).

وقال عبد الله بن طاهر رَحِمَهُ اللهُ: «المال غادٍ ورائحٌ والسلطان ظلٌّ زائل، والإخوان كنوزٌ وافرة»(٣). وقال بعض الحكماء: «ليس للإنسان أن ينعم إلا بمودات الإخوان».

وقال آخر: «الازدياد من الإخوان زيادة في الآجال، وتوفير لحسن الحال، وقيل لأعرابي: ما الغبطة ؟ قال: الكفاية ولزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان»(٤).

وكان يقال: «أعجزُ الناس مَنْ فَرَّط في طلب الإخوان، وأعجز منه من ضيع منْ ظَفِر به منهم، وكان يقال: الرجل بلا إخوان كاليمين بلا شِمالٍ»(٥).

وقال سفيان رَحِمَهُ اللهُ: «لربما لقيتُ الأخ من إخواني فأقيم شهرًا عاقلًا بلقائه»(٦).

وعن سلمى مولاة أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب -رحمها الله-، قالت: «كان يدخل إليه إخوانه فلا يخرجون من عنده حتى يطعمهم الطعام الطيب، ويكسوهم الثياب الحسنة، ويهب لهم الدراهم، قالت: فأقول له بعض

(١) «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٢٨٦).
(٢) «الطبقات الكبرى» (٦/ ٥٢٣).
(٣) «تاريخ دمشق» (٣١/ ١٥٨).
(٤) «المحاسن والأضداد» (ص:٦٤) و(ص:١٠٨).
(٥) «عيون الأخبار» (٢/ ٥/ ٦).
(٦) «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» (ص:٧٦).

ما تصنع، فيقول: يا سلمى ما يؤمل في الدنيا بعد المعارف والإخوان»[(١)]

وكان السلف -رحمهم الله- يختارون من الإخوان الخلص منهم، إخوان السر والعلانية لا الإخوان الذين قال عنهم الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «يجيء في آخر الزمان أقوامٌ يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة»[(٢)]

وكالذين وصفهم علي بن فضّال بن علي بن غالب بقوله:

وإخواني حَسِبْتُهُمُ دُرُوعًا	فكانوها ولكنْ للأعادي
وخِلْتُهم سهامًا صائباتٍ	فكانوها ولكن في فؤادي
وقالوا قد صَفَتْ منا قلوبٌ	لقد صدقوا ولكنْ عن وِدادي[(١)]

يعظمون أهل السنة ويصحبونهم

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «إذا رأيت رجلًا من أهل السنة فكأنما رأيت رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا رأيت رجلًا من أهل البدعة فكأنما رأيت رجلًا من المنافقين»[(٤)]

وقال أيوب السختياني رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة مات فكأنما أفقد بعض أعضائي»[(٥)]

وعن سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ قال ليوسف بن أسباط: «يا يوسف إذا بلغك عن رجل بالمشرق أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام وإذا بلغك عن الآخر بالمغرب أنه صاحب سنة فابعث إليه بالسلام، فقد قل أهل السنة والجماعة»[(٦)]

---

(١) «صفة الصفوة» ١/ ٣٣٣.
(٢) «سير السلف الصالحين» ٣/ ١٠٣٣.
(٣) «تاريخ الإسلام» باب: «أحداث سنة: ٤٧١-٤٨٠» (ص:٢٧١).
(٤) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٤٢).
(٥) «حلية الأولياء» (١٠/ ٣).
(٦) «تلبيس إبليس» (ص:١١-١٢).

قال معتمر بن سليمان: «دخلت على أبي وأنا منكسر، فقال لي مالك؟ قلت مات صديق لي فقال: مات على السنة ؟ قلت: نعم، قال: تحزن عليه؟!»(١)

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «استوصوا بأهل السنة خيرًا فإنهم غرباء»(٢)

قال السِّلَفِيُّ -شيخ الإسلام- أبو طاهر أحمدُ بنُ محمدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فلا تَصْحَبْ سِوَى السُّنِّيِّ دِينًا ... لِتَحْمَدَ مَا نَصَحْتُكَ فِي المَآلِ
وجانِبْ كُلَّ مُبْتَدِعٍ تَرَاهُ ... فما إن عِنْدَهُمْ غَيرُ المُحَالِ
ودع آراء أهْلِ الزَّيْغِ رأسًا ... ولا تَغْرُرْكَ حَذْلَقَةُ الرُّذالِ
فلَيسَ يَدومُ للبِدْعيِّ رايٌ ... ومِنْ أينَ المَقَرُّ لذي ارْتِحَالِ(٣)

يرفعون مؤن التحفظ بين الأخوة ولا يسألون عنهم فلربما صادفوا عدوا

قال هشام بن عبد الملك بن مروان -الخليفة-: «ما بقي على شيء من لذات الدنيا إلا وقد نِلتُه إلا شيئًا واحدًا: أخ أرفعُ مؤنة التحفُّظِ منه»(٤)

وعن عبد الله بن الوليد قال: «قال لنا جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ: يدخل أحدكم يده كيس صاحبه فيأخذ ما يريد؟ قال: قلت: لا، قال: فلستم إخوانًا كما تزعمون»(٥)

وعن جبير بن نفير، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «إذا أحببت أخًا -أي: لا تعرفه ولم يظهر منه ما تكره- فلا تماره -أي: لا تجادله ولا تنازعه- ولا تشارّه -بتشديد الراء:

(١) المرجع نفسه.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٣٤).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٥٢).
(٥) «صفة الصفوة» (١/ ٣٣٣).

أي لا تفعل معه شرًا تحوجه إلى فعل مثله معك، وروي مخففًا من الشراء أي لا تعامله- ولا تسأل عنه، فعسى أن توافي له عدوًا فيخبرك بما ليس فيه، فيفرق بينك وبينه»(١)

يتباذلون في الله تعالى

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال اللهُ تعالى: وجَبَتْ محبتي للمتحابِّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»(٢)

قال المناوي رحمه الله: «والمتباذلين فيّ» أي: بذل كل واحد منهم لصاحبه نفسه وماله في مهماته في جميع حالاته، كما فعل الصديق رضي الله عنه ببذل نفسه ليلة الغار وماله.

وقال العلائي: أن يبذل كل منهما ماله لأخيه متى احتاجه لغرض دنيوي(٣)

وقال محمد بن عليّ بن الحسن بن شقيق: سمعت أبي يقول: «كان ابن المبارك إذا كان وقت الحج اجتمع إليه إخوانه من أهل مرو فيقولون: نصحبك يا أبا عبد الرحمن، فيقول لهم: هاتوا نفقاتكم، فيأخذ نفقاتهم فيجعلها في صندوق ويقفل عليها ثم يكتري لهم ويخرجهم من مرو إلى بغداد فلا يزال ينفق عليهم ويطعمهم أطيب الطعام وأطيب الحلواء، ثم يخرجهم من بغداد بأحسن زي وأكمل مروءة، حتى يصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم فإذا صاروا إلى المدينة قال لكل رجل منهم: ما أمَرَكَ عيالك أن تشتري لهم من المدينة، من طرفها! فيقول: كذا، ثم يخرجهم إلى مكة فإذا وصلوا إلى مكة فقضوا حوائجهم قال لكل رجل منهم: ما أمرك عيالك أن تشتري لهم من متاع مكة ؟ فيقول: كذا وكذا، فيشتري لهم ويخرجهم من مكة فلا يزال ينفق عليهم حتى يصيروا إلى مرو فإذا وصلوا إلى مرو جصص أبوابهم ودورهم -أي وضع عليها الجصّ وهو

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٥)، وصححه الألباني موقوفًا، وانظر: «فضل الله الصمد» (١/ ٥٣٦).
(٢) رواه مسلم (٢٥٦٧).
(٣) «فيض القدير» (٨/ ٤٣٠١) و(٨/ ٤٣٠٥).

مادة تستعمل في طلاء البيوت وتزيينها- فإذا كان بعد ثلاثة أيام صنع لهم وليمة وكساهم فإذا أكلوا وشربوا دعا الصندوق ففتحه ودفع إلى كل رجل منهم صرته بعد أن كتب عليها اسمه»[1]

وقال محمد بن سَلاّم الجُمَحِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال جرير بن عبد الله البَجَلِيّ رضي الله عنه وسأله رجلٌ حاجةً، فقضاها، فعاتبه بعض أهله، فقال: المال ودائع الله في الدنيا، ونحن وكلاؤها، فمن غوثان -جوعان- نشبعه، ومن ظمآن نرويه؟»[2]

وعن أبي مودود قال: «كان عامر بن عبد الله بن الزبير يتحين العباد وهم سجود: أبا حازم وصفوان بن سليم، وسليمان بن شحم، وأشباههم فيأتيهم بالصرة فيها الدنانير والدراهم، فيضعها عند نعالهم بحيث يحسون بها ولا يشعرون بمكانه.

فيقال له: ما يمنعك أن ترسل بها إليهم ؟ فيقول: أكره أن يتمعر وجه أحدهم إذا نظر إلى رسولي وإذا لقيني»[3]

يحبون الصالحين في الله ويستجلبون بذلك الحب والود

إن من أبرز صفات المسلم الصادق حُبَّهُ لإخوانه وأصدقائه حُبًّا ساميًا مجردًا عن كل منفعه، بريئًا من أي غرض، نقيًا من كل شائبة، إنه الحبُّ الأخويّ الصادق، الذي استمد صفاءه وشفافيته من مشكاة الوحي وهَدْي النبوّة، فكان نسيجَ وَحْدِهِ في العلاقات البشرية، وكانت آثاره في سلوك الإنسان المسلم فريدة في تاريخ المعاملات، ذلك أن الرابطة التي تربط المسلم بأخيه مهما كان جنسه ولونه ولغته هي رابطة الإيمان بالله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠] وأخوة الإيمان أوثقُ روابطِ النفوس، وأمتنُ عُرَى القلوب، وأسمى صلات العقول والأرواح.

---

(١) «صفة الصفوة» (٢/ ٢٨١).
(٢) «تهذيب الكمال» (٤/ ٥٤٠).
(٣) «صفة الصفوة» (١/ ٣٤٣).

فلا عجب أن تثمر تلك الأخوة الفريدة نمطًا من الحب عجيبًا في سُموّه ونقائه وعُمقه ودَيمُومَتِه، يسمّيه الإسلامُ الحبَّ في الله، ويجد المسلمُ الصادق فيه حلاوة الإيمان.

قال ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجَدَ حلاوةَ الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممّا سواهُما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّهُ إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعْدَ أن أنقذَهُ الله منه كما يكرهُ أن يُقْذَفَ في النار». متفق عليه.

وللمتحابين في الله منزلة عالية أعدها الله لهم في الجنة، حيث جعلهم الله تعالى في زمرة السبعة المُصطَفَيْن الأخيار، الذين أظلَّهم في ظله، وشملهم برحمته وبرّه.

قال ﷺ: «سبعة يُظلُّهُمُ الله في ظله، يوم لا ظِلَّ إلا ظلُّهُ: الإمام العادلُ، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبُه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منْصِبٍ وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلمَ شمالُهُ ما تنفقُ يمينُهُ ورجلُ ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه». متفق عليه.

وحسب المتحابِّينَ في الله شرفًا أن ربّ العزة يحفلُ بهم في ساحة الحشر يوم القيامة فيقول: «أين المتحابُّون بجلالي؟ اليوم أظِلُّهم في ظِلّي يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلّي» رواه مسلم.

وحسبهم ما أعد الله تعالى لهم من المكانةَ والنعيم ما يليق بسمّوهم في الدنيا وارتفاعهم على شواغلها وحطامها، نجد ذلك فيما رواه معاذ عن النبي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: المتحابُّونَ في جلالي لهم مَنابرُ من نورٍ، يغبطُهُمُ النبيُّون والشُهداءُ»[1]

*** ومحبة الصالحين في الله توجب محبة الله تعالى ورضاه.**

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن رجلًا زارَ أخًا له في قريةٍ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٩٠)، وصححه الألباني، وانظر: «شخصية المسلم» (ص:١٣٣).

أخرى، فأرصدَ الله تعالى على مَدْرَجتِهِ ملكًا -أي أقعده يرقبه على طريقه- فلما أتى عليه قال: أين تُريد؟ قال: أريدُ أخًا لي في هذه القرية، قال: هلْ لك عليه من نِعْمَةٍ تَرُبُّها عليه؟ -أي تقوم بإصلاحها وتنهض إليه بسبب ذلك- قال: لا، غير أني أحببتُهُ في الله تعالى، قال: فإني رسولُ الله إليكَ بأن الله قد أحبَّك كما أحبَبْتَهُ فيه» (١)

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قال الله تعالى: وجَبَت محبتي للمتحابّين فيَّ، والمتجالسين فيَّ، والمتباذلين فيَّ» (٢)

*** ومحبة الصالحين في الله تلحقك بهم في مراتبهم العليّة يوم القيامة.**

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! كيف تقولُ في رجلٍ أحبَّ قومًا ولم يلحقْ بهم؟ -أي بالصحبة أو العلم أو العمل أو بمجموعها- فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المرء مع من أحبَّ»». متفق عليه.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: «الرجل يحب القومَ ولمَّا يلحق بهم، قال: «المرء مع من أحب»». أخرجه البخاري.

قال الوزير ابن هبيرة رحمه الله: «في هذا الحديث دليل على أنه سيلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أحبهم إلى يوم القيامة إن شاء الله».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أعرابيًا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: متى الساعةُ؟ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أَعْدَدْت لها؟» قال: ما أعْدَدْتُ لها كبيرَ صلاةٍ ولا صيامٍ ولا صدقةٍ، ولكني أُحِبُّ الله ورسولَهُ، قال: «أنت مع من أحببت».

قال النووي رحمه الله: «فيه فضل حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين، وأهل الخير، الأحياء والأموات ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم إذ لو عمله لكان منهم ومثلهم».

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٧).

(٢) رواه مالك، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٠١١).

قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال بشر الحافي، رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي: «يا بشر أتدري لِمَ رفعك الله بين أقرانك؟»: قلت: لا يا رسول الله، قال: «لاتباعك سنتي، وخدمتك للصالحين، ونصحيتك لإخوانك، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي، هو الذي بلغك منازل الأبرار»[(١)]

*** ومحبة الصالحين في الله دليل على محبة الله تعالى.**

قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه وولايته وعداوته»[(٢)]

فمن علامة محبة الله تعالى ورسوله: أن يحب من يحبهم الله ورسوله.

وقال في «غذاء الألباب»: «وإذا قويت محبة الله في القلب قويت محبة أوليائه.

ومحبة الله تعالى توجب محبة الأنبياء والرسل والمتبعين لهم بإحسان جملة وعمومًا لله عَزَّ وَجَلَّ وبغض الكفار جملة وعمومًا لله عَزَّ وَجَلَّ»[(٣)]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليس شيء يحب لذاته إلا الله وحده، وكل ما سواه مما يُحَبُّ، إنما محبته تَبَعٌ لمحبة الرب -تبارك وتعالى- كمحبة ملائكته وأنبيائه وأوليائه فإنها تبع لمحبته -سبحانه- وهي من لوازم محبته، فإن محبة المحبوب توجب محبة ما يحبه -فإذا رأينا شخصًا يحب ما يكرهه الرب تعالى ويكره ما يحبه، علمنا أن فيه من معاداته بحسب ذلك، وإذا رأينا شخصًا يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه، وكلما كان الشيء أحب إلى الرب كان أحب إليه وآثر عنده، وكلما كان أبغض إليه كان أبغض إليه وأبعد منه- علمنا أن فيه من موالاة الرب بحسب ذلك»[(٤)]

---

(١) «الاعتصام» (١/ ٩١).
(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٥٤٧).
(٣) «غذاء الألباب» (٢/ ٣٧٨).
(٤) «الجواب الكافي» (ص:٢٦٣).

وقد ساق الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن عطاء بن السائب قال: «سمعت أبا عبد الله الجدلي قال: أوحى الله ﷻ إلى داود: أحبني وأحب من يحبني»[(١)]

وقال رجل لمسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «إني أحبك في الله، قال: إنك أحببت الله فأحببت من يحب الله عز وجل»[(٢)]

وقد احتسب السلف -رحمهم الله- موافقة الله تعالى في محبة أولياءه الصالحين من أعظم القربات.

قال ابن السماك رَحِمَهُ اللَّهُ عند موته: «اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك»[(٣)]

وقال مسلم بن يسار رَحِمَهُ اللَّهُ: «مرضت مرضة فلم أجد شيئًا أوثقَ في نفسي من قوم كنت أحبهم لا أحبهم إلا لله عز وجل»[(٤)]

وقال أيضًا: «ما شيء من علمي إلا وأنا أخاف أن يكون قد دخله ما أفسده عليّ، ليس الحب في الله ﷻ فإني لا أجدني أحب إلا في الله»[(٥)]

*** ومن أحبّ شخصًا لله فمن السنة أن يخبره بذلك، لتتوثق بينهما وشائج الأخوة الإيمانية، وليرعى كل منهما حقوق هذه الأخوة القائمة على الحب في الله.**

عن المِقْدَام بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ، فَلْيُخْبِرْهُ أنه يحبه»[(٦)]

---

(١) «الزهد» للإمام أحمد (ص:٩١).
(٢) «الزهد» للإمام أحمد (ص:٤٢٠).
(٣) «صفة الصفوة» (٣/ ١١٦).
(٤) «الزهد» للإمام أحمد (ص:٣٠٤).
(٥) «حلية الأولياء» (٢/ ٣٣٢).
(٦) رواه أبو داود (٥١٢٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٤٢)، وصححه الألباني.

قال الخطابي: «معناه الحث على التودد والتألف، وذلك أنه إذا أخبره أنه يحبه استمال بذلك قلبه واجتلب به وده، وفيه أنه إذا علم أنه محب له وواد له قبل نصيحته ولم يرد عليه قوله في عيب إن أخبره به عن نفسه أو سقطة إن كانت منه وإذا لم يعلم ذلك منه لم يؤمن أن يسوء ظنه فيه فلا يقبل منه قوله، ويعمل ذلك منه على العداوة والشنآن»(١)

لقد كان الرسولُ الكريمُ -صلوات الله وسلامه عليه- يدرك ما لهذا الحبّ النقيّ من أثر في بناء المجتمعات والأمم، فكان لا يدع مناسبة تمرّ إلاّ ويدعو المسلمين إلى التحابب ويأمرهم أن يعلنوا هذا التحابب، لتفتح مغاليقُ القلوب، وتشيعُ المودّةُ والصفاء بين الصفوف.

فعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا كان عند النبي صلى الله عليه وسلم، فمرّ رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، إني لأحبُّ هذا، فقال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قال: لا، قال: «أَعْلِمْهُ»، فَلَحِقَهُ فقال: إني لأُحِبُّك في الله، فقالَ: أَحَبَّكَ اللهُ الذي أحببتني له»(٢)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك بنفسه معلمًا المسلمين كيف يبنون مجتمع المحبة والتوادّ والتآخي، وذلك حينما أخذ بيد معاذ، وقال: «يا معاذُ ! والله إنيّ لأحبُّكَ، والله إني لأحِبُّكَ».

«أوصيكَ يا معاذُ! لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كل صلاةٍ! تقولُ: اللهُمَّ أَعِنِّي على ذِكْرِكَ، وشكْرِك، وحسن عبادتِكَ»(٣)

فأعلم الرسولُ صلى الله عليه وسلم معاذًا بما يجد في قلبه من محبّته له(٤)

---

(١) «عون المعبود» (١٤/ ٢٢).

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «المشكاة» (٥٠١٧).

(٣) رواه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

(٤) ينظر: «شخصية المسلم» (ص:١٣٣)، و«الأخلاق الإسلامية» (٢/ ٢٦٦).

يقتصدون في الحب والبغض والانقباض والانبساط

عن محمد بن عبيد الكندي، عن أبيه قال: «سمعت عليًا رضي الله عنه يقول لابن الكواء -عبد الله بن أبي أوفى-: هل تدري ما قال الأول؟ أحبِبْ حبيبك هونًا ما، عسى أن يكون بغيضَكَ يومًا ما، وأبغض بغيضك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما»(١)

أي لا تسرف في الحب فإن الإفراط داعٍ إلى التقصير، إذ ليس بعد الكمال إلاّ الزوال، وكذلك البغض، فعسى أن يصير الحبيب بغيضًا والبغيض حبيبًا، فلا تكن مسرفًا في الحب فتندم، ولا في البغض فتأسف يومًا من الأيام؛ لأن القلب يتقلب فيندم أو يستحي.

قال بعضهم:

ولا يكُنْ حُبُّكَ دومًا كَلَفَا   ولا يُرى بُغْضُكَ يَوْمًا تَلفَا

وقال بعض الحكماء: «لا تكن في الإخاء مكثرًا ثم تكون فيه مدبرًا، فيعرف سرفك في الإكثار بجفائك في الإدبار».

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «لا يكن حبك كلفًا -الكَلَفُ: الولوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة- ولا يكن بغضك تلفًا -أي تحب تلف صاحبك أي هلاكه- فقلت: كيف ذاك، قال: إذا أحببت كلفتَ كلف الصبيّ، وإذا أبغضت أحببت لصاحبك التلف»(٢)

*** وأما اقتصادهم في الانقباض والانبساط.**

فقد قال ابن المقفع رحمه الله: «الْبِس للناس لباسَيْنِ ليس للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عيش ولا مُرُوءةَ إلا بهما: لباس انقباض وانحجاز من الناس، تلبَسُهُ للعامّة، فلا يلقَوْنَك إلا مُتَحَفِّظًا متشدِّدًا متحرِّزًا مستعدًّا.

---

(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢١)، وحسنه الألباني موقوفًا ومرفوعًا.
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢٢)، وصححه الألباني.

ولباس انبساط واستئناس، تَلبَسُهُ للخاصّة الثقات من أصدقائك، فتلقاهم بذات صدرك وتُفْضي إليهم بمَصون حديثك وتضع عنك مؤونة الحَذَر والتحفظ فيما بينك وبينهم.

وأهل هذه الطبقة الذين هم أهلها: قليلٌ من قليل حقًّا؛ لأن ذا الرأي لا يُدخِل أحدًا من نفسه هذا المدْخَل إلا بعد الاختبار، والتكشُّف، والثقة بصدق النصيحة ووفاء العهد»(١)

وقال أكثم بن صيفيّ: «الانقباض من الناس مكسبة للعداوة، وإفراط الأنس بالناس مكسبة لقرناء السوء»(٢)

وقالوا: «ولا تجالس العامةَ فإنْ فعلتَ فآدابُ ذلك تركُ الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظِهِمْ»(٣)

يصاحبون العلماء والصالحين ويجالسونهم

امتثالًا لتوجيه النبي ﷺ الصريح لمصاحبة الصالحين ومجالستهم والابتعاد عن مصاحبة أهل السوء ودعاة الشرِّ والفساد، حيث قال: «لا تُصَاحِبْ إلا مؤمنًا، ولا يأكُلْ طعامَك إلا تقِيٌّ»(٤)

وذلك لأن الصاحب كما يقولُ الناس في حكمهم: ساحب؛ فإن كان صالحًا سحب صاحبه إلى الخير والصلاح، وإن كان سيئًا فاسدًا خبيثًا سحب صاحبه إلى مواقع السوء والفساد والخبث.

وقد حسن الشاعر في قوله:

عن المرء لا تسألْ وسل عن قرينه ... فكل قرينٍ بالمقارن يقتدي

(١) «الأدب الكبير» (ص:٨٢).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٦٠).
(٣) «المستطرف» (١/ ٢١٢).
(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وحسنه الألباني.

وحذر النبي ﷺ في الحديث من صحبة من ليس بتقي، وزجر عن مخالطته ومؤاكلته، فإن المطاعمة توقع الألفة والمودة في القلوب ولما كانت الطباعُ سراقةً والخليل يسرق من طباع خليله وأخلاقه ونفسه وفكره ما لا يسرق منه أي شخص آخر.

قال ﷺ. «الرَّجُلُ على دينِ خَليلِه، فلْيَنْظُرْ أحَدُكُم منْ يُخَالِلْ»(١)

وقد مثل النبي ﷺ الجليسَ الصالحَ بحامل المسك، في مجالسته الاسترواح والعطاء والعطر والسرور، وجليسَ السوءِ بنافخ الكير، في مجالسته وهج اللهب والدخان والنَّتْنِ والكآبة، فقال: «إنما مَثَلُ الجَليس الصالح والجَليس السُّوءِ، كحامِلِ المسْكِ ونافخِ الكيرِ، فحاملُ المِسْكِ إما أنْ يُحْذِيَك، وإما أن تَبْتَاعَ منه، وإما أن تجدَ منهُ ريحًا طيِّبةً، ونافخُ الكيرِ، إما أن يَحْرِقَ ثيابَكَ، وإمَّا أن تَجِدَ منه ريحًا خَبيثةً»(٢)

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديث النهي عن مجالسة مَنْ يتأذى بمجالسته في الدين والدنيا، والترغيب في مجالسة مَنْ ينتفع بمجالسته فيهما»(٣)

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة»(٤)

فالجليس الصالح ينفع جليسه في كلّ حال، إنه كحامل المسك، إذا لم تشتر منه ولم يمنحك منه عطيّة استمتعت من مجالسته بريح طيبة.

وهكذا من يجالس أهل العلم والفضل والصلاح، فإمّا أن يسألهم ويأخذ منهم علمًا

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وحسنه الألباني.
وينظر: «عون المعبود» (١٣/ ١٢٣)، و«الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ١٩٧).
(٢) رواه البخاري (٢١٠١، ٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).
(٣) «فتح الباري» (٥/ ٤٠٧).
(٤) «شرح النووي على مسلم» (١٦/ ١٤٦).

أو نصيحة، وإمّا أن يبدأوه بتعليم أو نصيحة ولو لم يسألهم، وإمّا أن يجدهم على عمل صالح فينتفع منهم بالاقتداء بهم وإمّا أن يجمع كلَّ ذلك، وفي كلّ ذلك خير عظيم.

أمَّا جليس السوء فإنه يؤذي جليسه على كلّ حال، فهو كالحدّاد الذي ينفخ في كيره إذا لم يَطِرْ شيء من شرار ناره على ثيابك فيحرقها، وجدت من حديده وناره وكلّ ما يحيط به ريحًا منتنه مؤذية.

وهكذا من يصاحب أو يجالس أهل السوء والفحش والمعصية، فهو إمّا أن ينساق معهم إلى مواقع الإثم التي هم فيها، فتمسه نار المعصية، وإما أن يجد ما يؤذيه من قول أو عمل أو قدوة سيّئة[1].

*** يصاحبون العلماء والصالحين ويجالسونهم.**

ليأخذوا من هديهم وسمتهم.

قيل لابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أين تريد؟ قال: إلى البصرة، فقيل له: من بقي؟ فقال: ابنُ عون آخذ من أخلاقه، آخذ من آدابه».

وقال عبد الرحمن بنُ مهدي: «كنا نأتي الرجلَ ما نريدُ علمه ليس إلا أنْ نتعلَّمَ من هَدْيه وسمْته ودلّه»، وكان عليُّ بن المدينيِّ وغير واحد يحضرون عند يَحيى بن سعيد القطان ما يريدون أن يسمعوا شيئًا إلا أن ينظروا إلى هَدْيه وسمته.

قال الشاعر:

إذا أعجبتك طباعُ امرىءٍ ... فَكُنْهُ يَكُنْ منك ما يُعْجِبُكْ
فليس على الجُودِ والمكرمات ... حجابٌ إذا جئْتَهُ يَحْجُبُكْ[2]

وساق ابن عساكر بسنده إلى بشر بن الوَليد -قاضي المَصِّيصه-، قال: «قيل لإبراهيم ابن أدْهَم: ألا تحدث فقد كان أصحابك يحدثون؟ قال: كان همي هديُ العلماء وآدابهم»[3].

---

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ١٩٦)، و«شخصية المسلم» (ص:٢٢٤).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (٢/ ٢٥٥).
(٣) «تاريخ دمشق» (٦/ ٢٦٤).

وبسنده عن محمد بن يحيى قال: قال لي عبد الرزاق: «كان أحمد بن حنبل إذا صلّى يذكّرني شمائل السَّلف»[(١)]

وبسنده عن محمد بن عُبَيد الطنّافسي كان يقول لأصحاب الحديث: «ألا تكونون مثل عيسى بن يونس؟ كان إذا أقبل إلى الأعمشَ ومعه الشباب والشيوخ ينظرون إلى هدْيه وسمته»[(٢)]

*** يصاحبون العلماء والصالحين ويجالسونهم.**

ففي صحبتهم تطيب الحياه.

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «بصحبة الصالحين تطيب الحياةِ، والخير مجموع في القرين الصالح إن نسيت ذكّرك، وإن ذكَرْتَ أعانك»[(٣)]

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «بنفسي العلماء، وجدتُ صلاح قلبي في مجالستهم هم بغيتي في أرض غريبة، وهم ضالتي التي إذا لم أجدهم»[(٤)]

وقال صالح المري: «سمعت الحسن البصري يقول: الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء»[(٥)]

*** يصاحبون العلماء والصالحين ويجالسونهم.**

ليصيبوا الخير والهُدى والرشاد.

قال ابن عبد القوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «منظومة الآداب»:

وخَالِطْ إذا خَالَطْتَ كلَّ مُوَفَّقٍ ... من العلَمَا أهْل التُّقي والتَّعَبُّد

يُفيدُكَ مِنْ علم وينْهَاكَ عنْ هوى ... فصاحِبْهُ تُهدى مِنْ هُداه وتَرشد

---

(١) «تاريخ دمشق» (٥/ ٢٩٦).

(٢) «تاريخ دمشق» (٥١/ ٢٦).

(٣) «صفة الصفوة» (٤/ ٢٦١).

(٤) «تاريخ دمشق» (٦٤/ ٢٧٠).

(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٥٣).

يقول: إذا خالطت أحدًا من أبناء زمانك، وعاشرت شخصًا من إخوانك وأخدانك فخالط مُوفَّق من الله -سبحانه- لطرق الخيرات مهتد لسبل السعادات مسدد في الحركات والسكنات، لما فيه من سعادتك ونجاتك، وأن يكون ذلك الموفق من العلماء المتصفين بالعلوم الشرعية أهل التقى والخضوع والذل والخشوع، فمن كانت هذه صفته فصاحبه ولازمه فإن يفيدك من علمه وينهاك عن متابعة الهوى وتُهْدى مِنْ هُداه وتنتفعُ بتقواه[(١)]

وقال زكريا بن زياد النحوي: «كان أشياخنا يقولون: جالس العلماء فإنك إن أصبت حمدوك، وإن أخطأت علموك، وإن جهلت لم يعنفوك، ولا تجالس الجهال؛ فإنك إن أصبت لم يحمدوك، وإن أخطأت لم يعلموك وإن جهلت عنفوك، وإن شهدوا لك لم ينفعوك»[(٢)]

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن بسطام بن مسلم قال: سمعت معاوية ابن مرة، أنه قال: «يا بني! جالس الصالحين من عباد الله فإنك ستصيب بمجالستهم خيرًا، ولعله أن يكون في آخر ذلك أن تنزل الرحمة عليهم وأنت فيهم فتصيبك معهم»[(٣)]

ومن أجل هذا قال الشاعر:

بعشرَتِكَ الكرامَ تُعَدُّ مِنهم ... فلا تُرَيَنْ لغيرِهِمُ أُلُوفَا

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «زاد المعاد» قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: «أربعةٌ تزيدُ في العقل: ترك الفضول من الكلام، والسواكُ، ومجالسةُ الصالحين، ومجالسةُ العلماء»[(٤)]

---

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٣٧٠-٣٧٤).
(٢) «أخبار القضاة» (٣/ ١١٣).
(٣) «شعب الإيمان» (٩٠٦٢).
(٤) «حاشية أبي غده على رسالة المسترشدين» (ص:١٢١).

*** يصحبون العلماء والصالحين ويجالسونهم.**

لأنهم يذكِّرون بالله تعالى ويرقِّقون القلوب.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر رضي الله عنه -بعدَ وفاةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم- لِعُمَرَ: «انطلق بنا إلى أمِّ أيْمَنَ نزورُها، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزورُها، فلما انتهَيْنَا إليها بَكَتْ، فقالا لها: ما يُبْكيكِ؟ ما عند الله خيرٌ لرسُولِهِ، فقالتْ: ما أبْكِي أن لا أكونَ أعْلَمُ أن ما عندَ الله خيرٌ لرسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن أبكِي أنَّ الوَحْيَ قد انْقَطَعَ من السماءِ فهيَّجَتْهُما على البُكاء، فجعلا يبْكِيَان معَها»[١]

وهذه بعض النماذج من أولئك الذين كانت رُؤْيتهُم تذكِّرُ بالله تعالى، وينتفعُ الناس بهدْيهم وسمْتِهم ومشاهدتهم.

منهم: عمرو بن ميمون تابعي جليل، قال تلميذه أبو إسحاق السّبيعي: كان إذا رُؤي ذُكِرَ الله تعالى.

ومنهم: محمد بن سيرين البصير تابعي جليل، قال تلميذاه: هشامُ بن حسان الأزْدِي، وأيوبُ بن كَيْسَان السِّخْتياني: كان إذا مَرَّ في السُّوق، فما يراه أحدٌ إلا ذكر الله تعالى.

ومنهم: محمد بن واسع البصري، قال جعفر بن سليمان: كنت إذا وجدتُ في قلبي قسوة، غدوتُ إلى وجه محمد بن واسع البصري كأنه ثَكْلَى[٢]

ومنهم: عبد الله بن شَوْذب الخراساني، قال تلميذُه: كثيرُ بن الوليد: كنت إذا نظرتُ إلى عبد الله بن شَوْذَب ذكرتُ الملائكة.

ومنهم: محمد بن المنكدر البصري، قال الإمام مالك: وكنتُ كلما أجدُ في قلبي

---

(١) رواه مسلم (٢٤٥٤).

(٢) الثّاكل والثّكلان: الذي فقد ابنًا أو عزيزًا، فشعر بالحزن الشديد، والمؤنث ثاكِلَة وثكْلَى، والجمع ثكالى، معجم الطلاب.

قسوةً أتى محمدَ بن المنكدر، وكان يجتمع عنده الصالحون ليقتبسوا من هَدْيه وصلاحه، فأنظرُ إليه نظرة، فأتَّعظُ بنفسي أيامًا.

ومنهم: الفضيل بن عياض: قال خالد بن رباح: قال لي عبد الله بن المبارك: إذا نظرتُ إلى الفضيل جَدَّدَ لي الحُزنَ ومَقَتُّ نفسي، ثم بكى.

وقال الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «لمجلسٌ كنت أُجالِسُه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أوثق في نفسي من عَمِلِ سَنَة»[1].

وقد ساق البيهقي في «الجامع لشعب الإيمان» عن أبي بكر الهجيمي البصري، قال: «سمعت سهل بن عبد الله وقد سأله رجل فقال: يا أبا محمد إلى من تأمرني أجلس؟ قال: إلى من تكلمك جوارحه لا من يكلمك لسانه».

وقال الأستاذ أبو علي الحسن بن محمد الدقاق رحمه الله: «من لم يعظك لحظه لم يعظك لفظه»[2].

وساق الذهبي رحمه الله في «سير أعلام النبلاء»: «قال ابن عيينة رحمه الله: حجَّ صفوان بن سُليم فذهبتُ بمنى فسألت عنه، فقيل: إذا دخلت مسجد الخيف فأتِ المنارة، فانظر أمامها قليلًا شيخًا، إذا رأيته علمت أنه يخشى الله تعالى فهو صفوان بن سُليم فما سألت عنه أحدًا حتى جئت كما قالوا، فإذا أنا بشيخ كما رأيتُه علمتُ أنه يخشى الله، فجلست إليه، فقلتُ: أنت صفوان بن سُليم، قال: نعم»[3].

وقد جلى ابن الجوزي رحمه الله حقيقة الانتفاع بسمت العلماء والصالحين وأثره في ترقيق القلوب، فقال: رأيت الاشتغال بالفقه وسماع الحديث لا يكاد يكفي في صلاح القلب، إلا أن يمزج بالرقائق والنظر في سير السلف الصالحين.

---

(١) «تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة رحمه الله على رسالة المسترشدين» من (ص:١٠٢) إلى (ص:١٠٧).
(٢) «الجامع لشعب الإيمان» (٩٠٤٥).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٣٦٦).

لأنهم تناولوا مقصود النقل، وخرجوا عن صور الأفعال المأمور بها إلى ذوق معانيها المراد بها، وما أخبرتك بهذا إلا بعد معالجة وذوق لأني وجدت جمهور المحدثين وطلاب الحديث هِمة أحدهم في الحديث العالي وتكثير الأجزاء.

وجمهور الفقهاء في علوم الجدل وما يغالب به الخصم، وكيف يرقُّ القلب مع هذه الأشياء؟ وقد كان جماعة من السلف يقصدون العبد الصالح للنظر إلى سمته وهديه؛ لا لاقتباس علمه.

وذلك أن ثمرة علمه هديه وسمته، فافهم هذا وامزج طلب الفقه والحديث بمطالعة سير السلف والزهاد في الدنيا ليكون سببًا لرقة قلبك [(١)]

ومن هنا فقد ساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن عبد الله بن بُسر المازني صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال: المتّقون سادة، والعلماء قادة، ومجالسهم عبادة [(٢)]

يوقرون العلماء والصالحين ويُجِلّونهم ويكرمونهم لقدرهم عند الله تعالى

فقد ذُكِر لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم رَجُلانِ: أَحَدُهُمَا عابدٌ، والآخرُ عالمٌ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فَضْلُ العالم على العابِدِ كَفَضْلِي على أَدْنَاكُمْ».

أي: نسبة شرف العالم إلى شرف العابد كنسبة شرف الرسول صلى الله عليه وسلم إلى شرف أدنى أصحابه، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله وملائِكَتَهُ وأهلَ السَّمَاواتِ والأَرَضِينَ، حتّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا وحتّى الحوت؛ لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّمِ الناسِ الخَيْرَ»، «ليصلون» أي يدعون بالخير [(٣)]

---

(١) «صيد الخاطر» (ص:١٦٥).
(٢) «تاريخ دمشق» (٢٩/ ١٠٨).
(٣) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني.

وقال الفُضَيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «عالمٌ عَامِلٌ معلِّمٌ، يُدْعى كبيرًا في مَلَكُوتِ السَّماواتِ». والمعنى: أن أهل السماوات يدعونه كبيرًا لكبر شأنه لجمعه العلم والعمل والتعليم[(١)]

وقال سفيان الثوري: «أرفع الناس منزلة من كان بين الله وبين عباده، وهم الأنبياء والعلماء»[(٢)]

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة أحمد بن محمد الدَّينوري البغدادي الفقيه: «وكان يرق عند ذكر الصالحين، ويبكي ويقول: للعلماء عند الله قدر فلعلّ الله أن يجعلني منهم»[(٣)]

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الملك الصالح نور الدين محمود زنكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكان حنفي المذهب، يحب العلماء، والفقراء، ويكرمهم، ويحترمهم، ويحسن إليهم وكان مهيبًا وقورًا، شديد الهيبة في قلوب الأمراء، ومع هذا إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له، ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا مستكثرًا يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[(٤)]

وقال الأصمعي: «دخل عطاءُ بن أبي رباح على عبد الملك وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجِّه في خلافته، فلما بَصُر به عبدُ الملك، قام إليه، فسلّم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد: حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين! اتَّقِ اللهَ في حَرَمِ الله، وحَرَم رسوله، فتعاهدْه

(١) «تحفة الأحوذي» (٧/ ٣٧٩-٣٨٠).
(٢) «شرح ثلاثيات الإمام أحمد» (١/ ٤١).
(٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ١٩١).
(٤) «البداية والنهاية» (١٢/ ٨١٩).

بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار، فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور، فإنهم حصنُ المسلمين، وتفقد أمور المسلمين، فإنك وحدك المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك، فلا تَغْفَلْ عنهم، ولا تُغْلِقْ دونهم بابَك، فقال له: أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبد الملك، وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائجَ غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتُك؟ قال: ما لي إلى مخلوقٍ حاجة، ثم خرج، فقال عبد الملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السُّؤدُدُ»(١)

وقال عمرُو بن الحارث -العلامة الحافظ-: «الشرف شرفان: شرف العلم، وشرف السلطان، وشرف العلم أشرفهما»(٢)

*** لأن العلماء قائمون مُقامَ الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى وهداية الناس وإرشادهم:**

قال ﷺ: «إن العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، إنما وُرِّثوا العِلْمَ، فمن أخذ به، أخذ بحظٍ وافرٍ»(٣)

قال الدكتور مصطفى البغي حفظه الله: «أي هم الذين يخلفونهم فيما يتركونه من الدعوة إلى الله تعالى والعلم والهداية والرشاد»(٤)

وقد ساق ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده: «وقال يحيى بن أكثم: قال لي الرشيد: ما أنبل المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، قال: فتعرف أجل مني؟ قلت: لا، قال: لكني أعرفه، رجل في حلقة يقول: حدَّثنا فلان عن فلان قال: قال رسول الله ﷺ، قلت: يا أمير المؤمنين هذا خير منك وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، وولي عهد

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٨٤).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٥٢).
(٣) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، والنسائي (١٥٨)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني.
(٤) «مختصر سنن ابن ماجه» (ص:٣١).

المسلمين؟ قال: نعم، ويلك، هذا خير منّي؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبدًا، نحن نموت ونفنى والعلماء باقون ما بقي الدهر»(١).

*** يوقرون العلماء والصالحين ويجلونهم ويكرمونهم اقتداءً بالسلف الصالح.**

ساق ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي معاوية الضرير رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «أكلت مع الرشيد هارون طعامًا يومًا، فصبّ على يدي رجلٌ لا أعرفه، فقال الرشيد: يا أبا معاوية، هل تدري مَنْ يصبّ على يديك ؟ قلت: لا، قال: أنا، فقلت: أنت يا أمير المؤمنين ؟ قال: نعم إجلالًا للعلم»(٢).

وساق الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أشعث بن شعبة المصِّيصي، قال: «قَدِمَ الرشيد الرَّقة، فانجفل الناسُ خلفَ ابن المبارك، وتقطعت النِّعالُ، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أمُّ ولد لأمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فقالت: ما هذا ؟ قالوا: عالم من أهل خُراسان قدِمَ، قالت: هذا والله المُلك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشرط وأعوانٍ»(٣).

وقال أحمد بن سعيد اللحياني: سمعت أبا عُبيْد القاسم بن سلاّم يقول: «ما أتيت عالمًا قط فاستأذنتُ عليه، ولكن صبرت حتى يخرج إليَّ وتأوّلت قول الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات:٥]»(٤).

وقال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سمعت أحمد بن حنبل وذكر عنده إبراهيم بن طهمان وكان متكئًا من عِلَّةٍ فاستوى جالسًا وقال: لا ينبغي أن نذكر الصالحين فنتكيء»(٥).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٩).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ١٨).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٨٤).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٤/ ٤٩٠).
(٥) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).

وقال طاووس بن كيسان: «إن من السنة أن تُوَقِّر العالِم»[(١)]

وقال أحمد بن سنان: «كان عبد الرحمن بن مهدي لا يتحرَّكُ في مجلسه ولا يُبرى قلمٌ، ولا يقوم أحد كأنما على رؤوسهم الطير أو كأنهم في صلاة»[(٢)]

وعن عبد الرحمن بن حَرْمَلَة الأسْلَمي قل: «ما كان إنسان يجترئ على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء حتى يستأذنه كما يُستأذَنُ الأمير»[(٣)]

وعن أيوب قال: «كان الرجلُ يَجْلسُ إلى الحسن ثلاث سنين، فلا يسألُهُ عن شيء هيبة له»[(٤)]

وقال ابن الخياط يمدح الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَدَعُ الجوابَ فلا يُراجَع هَيْبَةً ... والسائلون نواكِسُ الأذْقَان
نور الوقار وعزُّ سلطان التُّقى ... فهو المَهِيب وليس ذا سُلطانِ[(٢)]

وقال الشافعي: «كنتُ أتصفَّحُ الورَقَ بين يدَيْ مالك برفْقٍ لئلا يسمع وقْعَها، وقال الربيع -تلميذ الإمام الشافعي-: والله ما اجترأتُ أن أشرب الماءَ والشافعيُّ ينظر»[(٦)]

وفي مناقب الإمام أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ للموفّق الخوارمي: «رُوي عن أبي حنيفة أنه قال: ما مَدَدتُ رجلي نحو دار أستاذي حمّاد إجلالًا له، وكان بين داري وداره سبْعُ سِكَك، وما صلّيتُ صلاةً منذ مات حمّاد إلاّ استغفرتُ له مع والدَيّ، وإني لأستغفر لمن تعلّمتُ منه أو علّمني علمًا»[(٧)]

---

(١) «حرمة أهل العلم» (ص:٢٠٣)، ونقل حفظه الله عن: «جامع بيان العلم» (١/ ٤٥٩).
(٢) «حرمة أهل العلم» (ص:٢٠٥)، ونقل عن: «تذكرة الحفاظ» (١/ ٣٣١).
(٣) «الجامع لأخلاق الرَّاوي وآداب السامع» (١/ ١٨٤-١٨٥).
(٤) المرجع نفسه.
(٥) المرجع نفسه.
(٦) «حاشية أبي غدة على رسالة المسترشدين» (ص:٢٠٢-٢٠٣).
(٧) «حاشية أبي غدة على رسالة المسترشدين» (ص:٢٠٢-٢٠٣).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قلتُ لأبي: أيَّ رجلٍ كان الشافعي، فإني سمعتُك تُكثر من الدعاء له؟ فقال: يا بُنَيَّ! كان الشافعيُّ كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر: هل لهذين مِن خَلف؟ أو عنهما مِن عِوض؟!»(١)

وقد قال العلماء في حديث: «إن الملائكة لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالب العلم»، قيل معناه: أنها تتواضع لطالبه توقيرًا لعلمه، كقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ أي تواضع لهما(٢).

يتأدبون مع العلماء

فلا يقعون في أعراض العلماء.

قال ابن عساكر رَحِمَهُ اللهُ: «واعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء -رحمة الله عليهم- مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة؛ لأن الوقيعة فيهم بما هم منه براء أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتع وخيم، والاختلاف على من اختاره الله منهم لنعش العلم خلق ذميم، والاقتداء بما مدح الله به قول المتبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصف كريم، إذ قال مثنيًا عليهم في كتابه وهو بمكارم الأخلاق وضدها عليم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]، والارتكاب لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الاغتياب وسب الأموات جسيم: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]».

(١) المرجع نفسه.
(٢) الحديث سبق تخريجه قريبًا، وانظر: «عون المعبود» (١٠/ ٥٣)، و«تحفة الأحوذي» (٧/ ٣٧٥).

ثم قال: «وكل من أطلق لسانه في العلماء بالثلب بلاه الله ﷻ قبل موته بموت القلب».

وساق بسنده عن مخلد بن الحسين قال: «حدثنا بعض أصحابنا، قال: ذكرت يومًا عند الحسن بن ذكوان رجلًا بشيءٍ، فقال: مه لا تذكر العلماء بشيءٍ فيميت الله قلبك»(١).

وليُعلَمَ أنه يُخشى على من تلذذ بغيبة العلماء، والقدح فيهم أن يُبتلى بسوء الخاتمة عياذًا بالله منها، فهذا القاضي الفقيه الشافعي محمد بن عبد الله الزبيدي -ولد سنة عشر وسبعمائة- شرح التنبيه في أربعة وعشرين مجلدًا، ودرّس وأفتى، وكثرت طلابه ببلاد اليمن، واشتهر ذكره، وبعُدَ صيته، قال الجمال المصري: إنه شاهده عند وفاته وقد اندلع لسانه، أي: خرج من الفم واسترخى واسودّ، فكانوا يرون أن ذلك بسبب كثرة وقيعته في الشيخ محي الدين النووي -رحمهم الله جميعًا-(٢).

لا يتكلمون في العلماء إلا بعدل وإنصاف

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر مَنْ تكلم في الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا كان مثل كبراء السابقين الأولين قد تكلَّم فيهم الروافِضُ والخوارج، ومثل الفضيل يُتكلَّم فيه، فمن الذي يَسْلَم من ألسنة الناس، لكن إذا ثبتتْ إمامةُ الرجل وفضلُه، لم يَضُرَّه ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مُفْتَقِر إلى وزن بالعدل والورع»(٣).

وقال في ترجمة الإمام الجليل المفسر محمد بن جَرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثقة صادق فيه تشيّع يسير وموالاة لا تضر، أَقْذَعَ أحمد بن علي السُّليماني الحافظ، فقال: كان يضع للروافض، كذا قال السليماني، وهذا رَجْمٌ بالظنِّ الكاذب، بل ابن جرير مِنْ كبار أئمة

---

(١) «تبيين كذب المفترى» (ص:٢٩)، و(ص:٤٢٠).
(٢) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٣٢٢).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٤٨).

الإسلام المعتمدين، وما ندّعي عِصمَته مِنْ الخطأ ولا يحلُّ لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى، فإن كلام العلماء بعضهم في بعض ينبغي أن يتأنّى فيه، ولا سيما في مثل إمام كبير، فلعل السليماني أراد الآتي: محمد بن جرير بن رستم أو جعفر الطبري، رافضي له تواليف...»(١)

يعرفون للعلماء قدرهم وفضلهم

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر أصحاب الطبقة التاسعة من الحفاظ: «فبالله عليك يا شيخ ارفق بنفسك والزم الإنصاف، ولا تنظر إلى هؤلاء الحفاظ النظر الشزر، ولا ترمقهم بعين النقص، ولا تعتقد فيهم أنهم من جنس محدثّي زماننا حاشا وكلا، فما سمّيت منْ أحدٍ ولله الحمد إلا وهو بصير بالدين عالم بسبل النجاة، وليس في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة، فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال: مَنْ أحمد؟ وما ابن المديني؟ وأي شيء أبو زرعة وأبو داود؟ هؤلاء محدثون ولا يدرون ما الفقه؟ وما أصوله، ولا يفقهون الرأي ولا علم لهم بالبيان والمعاني والرقائق ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم من فقهاء الملة، فاسكت بحلم أو انطق بعلم، فالعلم النافع ما جاء عن أمثال هؤلاء، ولكن نسبتك إلى أئمة الفقه كنسبة محدثي عصرنا إلى أئمة الحديث، فلا نحن ولا أنت وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، فمن اتقى الله راقب الله واعترف بنقصه، ومن تكلم بالجاه وبالجهل أو بالبشر والبلو فأعرض عنه، وذره في غيه فعقباه إلى وبال»(٢)

---

(١) «ميزان الاعتدال» (٣/ ٤٩٩).
(٢) «تذكرة الحفاظ» (٢/ ٦٢٨).

لا يغترون بكلام العلماء بعضهم في بعض ولا يلتفتون إليه ولا يعبؤون به

قال الإمام تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضين وأن لا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض، إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فذلك، وإلا فاضرب صفحًا عما جرى بينهم، فإنك لم تُخْلَق لهذا، فاشتغل بما يعنيك، ودع ما لا يعنيك، ولا يزال طالبُ العلم عندي حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض، فإياك ثم إياك أن تصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان الثوري، أو بين مالك وابن أبي ذئب، أو بين صالح والنسائي، أو بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي، وهَلُمَّ جرًا إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين ابن الصلاح، فإنك إن اشتغلت بذلك خشيتُ عليك الهلاك، فالقومُ أئمةٌ أعلام، ولأقوالهم محاملُ ربما لم يُفهم بعضها فليس لنا إلا الترضي عنهم، والسكوت عما جرى بينهم كما يُفعل ذلك فيما جرى بين الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ»[(١)]

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة أحمد بن عبد الله، الحافظ أبي نعيم الأصبهاني، أحد الأعلام، صاحب «تاريخ أصْبهان»: «صدوق تُكُلِّمَ فيه بلا حجة، ولكن هذه عقوبة من الله لكلامِه في ابن منده بهوىً.

ثم قال: وكلام ابن منده في أبي نعيم فظيع لا أحب حكايته، ولا أقبلُ قولَ كل منهما في الآخر، بل هما عندي مقبولان، لا أعلم لهما ذنبًا أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عنها، قرأت بخط ابن طاهر المقدسي يقول: أسخن الله عَيْنَ أبي نعيم يتكلّم في

---

(١) «الإعلام بحرمة أهل العلم» (ص:٣٥١).

أبي عَبْدِ الله بن منده، وقد أجمع الناسُ على إمامته، وسكت عن لاحق وقد أجمع الناسُ على أنه كذاب.

قلت: كلامُ الأقرانِ بعضهم في بعض لا يُعْبأ به لا سيما إذا لاح لك أنه لعداوة أو لمذهب أو لحسد، ما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أنّ عصرًا من الأعصار سَلِمَ أهْلُه من ذلك، سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس، اللهم فلا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم»[(١)]

وقد قال عن هذين العلمين: ابن منده وأبي نعيم.

«وكلٌّ منهما فصدوقٌ في نفسه، غير مُتَّهم في نقله بحمد الله»[(٢)]

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة الإمام محمد بن إسحاق صاحب السيرة النبوية، بعد أن ذكر كلام الإمام مالك فيه: «لسنا ندعي في أئمة الجرْح والتَّعديل العِصْمَةَ من الغَلَطِ النَّادر، ولا من الكلام بنفسٍ حارٍّ فيمن بينهم وبينه شَحْناء، وإحْنَة -حقد في الصدور- وقد عُلِمَ أن كثيرًا من كلام الأقرانِ بعضهم في بعض مُهْدرٌ لا عبرة به، ولاسيما إذا وثَّقَ الرجلَ جماعةٌ يلوحُ على قولهم الإنصاف، وهذا الرجلان كلٌّ منهما قد نال من صاحبه؛ لكنْ أثَّر كلامُ مالكٍ في محمد بعْض اللينِ، ولم يؤثِّر كلام محمد فيه ولا ذرَّة، وارتفع مالكٌ، وصار كالنَّجم أما الآخر فله ارتفاع بحسبه، ولاسيما في السِّيَر، وأمّا في أحاديث الأحْكام فَيَنْحَطُّ حديثُه فيها عن رُتبة الصُحبَةِ إلى رُتبة الحسن، إلا فيما شذَّ فيه، فإنه يُعَدُّ مُنْكرًا، هذا الذي عندي في حاله، والله أعلم»[(٣)]

وذكر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابا سماه: «باب حكم قول العلماء بعضهم في بعض»، ساق فيه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «استمعوا إلى العلماء، ولا تصدقوا بعضهم

---

(١) «ميزان الاعتدال» (١٠/ ١١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٧/ ٣٤).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٨٧).

على بعض فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايرًا من التيوس في زربها، وقال في هذا الباب، هذا باب قد غلط فيه كثير من الناس وضلت به نابتة جاهلة لا تدري ما عليها في ذلك، والصحيح في هذا الباب أن مَنْ صحت عدالته وثبتت في العلم أمانته، وبانت ثقته وعنايته بالعلم لم يلتفت فيه إلى قول أحد إلا أن يأتي في جرحته ببينة عادلة تصح بها جرحته على طريق الشهادات والعمل فيها من المشاهدة والمعاينة لذلك بما يوجب قوله من جهة الفقه والنظر، وأما من لم تثبت أمانته، ولا عرفت عدالته، ولا صحت لعدم الحفظ والإتقان روايته فإنه ينظر فيه إلى ما اتفق أهل العلم عليه، ويجتهد في قبول ما جاء به على حسب ما يؤدي النظر إليه، والدليل على أنه لا يقبل فيمن اتخذه جمهور من جماهير المسلمين إمامًا في الدين قول أحد من الطاعنين: أن السلف - رضوان الله عليهم - قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير في حال الغضب، ومنه ما حمل عليه الحسد، كما قال ابن عباس، ومالك بن دينار، وأبو حازم، ومنه على جهة التأويل مما لا يلزم القول فيه ما قاله القائل فيه، وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف تأويلًا واجتهادًا لا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة توجبه، ونحن نورد في هذا الباب من قول الأئمة الجلة الثقاة السادة بعضهم في بعض مما لا يجب أن يلتفت فيه إليه».

ثم ذكر أمثلة قريبة مما ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ، ومنها: «أنه ساق بسنده عن الأعمش قال: ذُكِرَ إبراهيم النخعي عند الشعبي فقال: ذاك الأعور الذي يستفتيني بالليل ويجلس يفتي الناس بالنهار، قال فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: ذاك الكذب لم يسمع من مسروق شيئًا، ثم قال: قال أبو عمر -ابن عبد البر-: معاذ الله أن يكون الشعبي كذابًا، بل هو إمام جليل والنخعي مثله جلالة وعلمًا ودينًا، وأظن الشعبي عوقب لقول في الحارث الهمداني»[(١)]

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٥٠-١٥٤).

يذكرون توقير العلماء بعضهم لبعض ويذبون عنهم

ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ من تاريخ أبي عمر أحمد بن سعيد الصَّدفي: «محمد بن وضَّاح، عن يحيى بن يحيى الليثي، قال: كنا عند مالك، فاستُؤذِنَ لعبد الله بن المبارك بالدُّخول، فأذن له، فرأينا مالكًا تزحزح له في مجلسه ثم أقعده بلصقه، وما رأيت مالكًا تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارئ يقرأ على مالك، فربما مرَّ بشيء، فيسأله مالك: ما مذهبُكم في هذا ؟ أو ما عندكم في هذا ؟ فرأيت ابن المبارك يُجاوبه، ثم قام، فخرج، فأعجب مالكٌ بأدبه، ثم قال لنا مالك: هذا ابنُ المبارك فقيهُ خراسان وسئل ابن المبارك بحضور سفيان بن عيينة عن مسألة، فقال: إنا نُهينا أن نتكلم عند أكابرنا»[١]

وقال أبو الوقت السِّجْري: «دخلتُ نيسابور، وحضرت عند الأستاذ أبي المعالي الجُويني، فقال: من أنت؟ قلتُ: خادم الشيخ إسماعيل الأنصاري الهروي شيخ الإسلام، فقال: رضي الله عنه».

قال الذهبي معلقًا: «قلت: اسمع إلى عقل هذا الإمام ودع سبَّ الطَّغَام، إن هُم إلا كالأنعام»[٢]

وحكى القاضي عياضٌ في كتاب «المدارك»: «أن سُحْنون وصاحِبيْه: عونَ بنَ يوسفَ، وابنَ رشيد، دخلوا على أسَدِ بنِ الفُراتِ فسألهم عن مسألة؟ فابْتَدَر لجوابه صاحبا سُحنون، وسكت سُحنون فلما خرجوا قال له صاحباه: لِمَ لَمْ تتكلمْ؟ فقال سحنون: ظهر لي أنَّ جوابكم خطأ، وبيّن لهما ذلك، فقالا: لِمَ لمْ تتكلم بهذا عنده؟ فقال: خشيت أن ندخُلَ عليه ونحن أصدقاءُ، ونخرج ونحن أعداءٌ».

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٠).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٥١٣).

قال القاضي عياضُ: «وسكت سحنون حين علم أنَّ القضيه لا يفوتُ أمرُها، ولو علمَ ذلك لبادَر بما ظهر له»(١).

وقال يحيى بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيت عند مروان بن معاوية لوحًا فيه أسماء الشيوخ، فلان رافضي، وفلان كذا، وفلان كذا، ووكيع رافضي، قال يحيى: فقلت له: وكيع خير منك، قال: مني؟ قلت: نعم، قال: فما قال لي شيئًا، ولو قال لي شيئًا لوثب أصحاب الحديث عليه»(٢).

لا يتصيدون أخطاء العلماء ولا يشنعون بها

ذكر الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة شيخ الإسلام محمد بن نصر المروزي، ثم قال: «ولو أنَّا كُلَّما أخطأ إمامٌ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له، قُمْنا عليه، وبدَّعناه، وهجَرناه، لما سَلِمَ معنا لا ابنُ نصر ولا ابنُ مَنْدَه، ولا مَنْ هو أكبرُ منهما، والله هو الهادي الخلق إلى الحقِّ وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»(٣).

وقال العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ظفرت بوهمٍ لعالم فلا تفرح به للحطِّ منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط، وأوهام، لاسيما المكثرين منهم، وما يشغب بهذا، ويفرح به للنقص إلا متعالم يريد أن يُطِبَّ زُكامًا، فيُحدِث به جُذامًا»(٤).

---

(١) «الدعوةُ إلى الإصلاح» (ص:٣٨).
(٢) «تاريخ دمشق» (٦٦/ ٧١).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٤٠).
(٤) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٢٣٢).

يلتمسون لهم الأعذار

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة ابن أبي ذئب: «قال محمد بن عمر الواقدي: وُلِدَ ابن أبي ذئب -محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب- سنة ثمانين، وكان من أورع النَّاس وأودعهم، ورُمي بالقدر وما كان قَدَريًّا، لقد كان يتَّقِي قولهم ويعيبُه، ولكنّه كان رجلًا كريمًا، يجلسُ إليه كلُّ أحد ويغشاه فلا يطرُدُه، ولا يقولُ له شيئًا، وإن مرض عاده، فكانوا يتهمونه بالقَدَر، لهذا وشبهه.

قلت -أي الذهبي-: كان حقه أن يكفَهِرَّ في وجوههم، ولعله كان حسن الظَّن بالناس»[١]

وقال الذهبي معلقًا على قول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لعلّي والعباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «جئت أنتَ تطلب ميراثَكَ من ابن أخيك، وجاء هذا يطلب ميراثَ امرأته من أبيها»: «ولا اعتراض على الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيها، فإنه تكلم بلسان قسمة التركات»[٢]

وأخرج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في قصة صلح الحدَيبية: «وسار النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى إذا كان بالثَّنيَّةِ التي يُهبَطُ عليهم منها بَرَكَت به راحلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حل -وهي كلمة تقال للناقة إذا تركت السير- فألَحَّتْ -أي: تمادت على عدم القيام-، فقالوا خَلأتِ القصواء[٣]، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ما خَلأتِ القَصواء وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل»[٤]

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ١٤٠).

(٢) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٦١١)، ومن المعلوم أن النسب في علم المواريث يكون للميت فإن قيل: أب فالمراد أبو الميت، وإن قيل: ابن أخ فالمراد ابن أخي الميت...وهكذا.

(٣) الخِلاء للنُّوق كالإلحاح للجمال، والحِران للدّوابّ، يقال: خلأتِ الناقة، وألَحّ الجمل، وحَرَن الفرس. «النهاية في غريب الحديث».

(٤) رواه البخاري (٢٧٣١).

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد أعذر النبي صلى الله عليه وسلم غير المكلَّف من الدواب باستصحاب الأصل، ومن قياس الأولى إذا رأينا عالمًا عاملًا، ثم وقعت منه هِنة، أو هفوة، فهو أولى بالإعذار، وعدم نسبته إليها والتشنيع عليه بها، استصحابًا للأصل، وغمر ما بدر منه في بحر علمه وفضله، وإلا كان المعنِّف قاطعًا للطريق ردءًا للنفس اللوامة أو سببًا في حرمان العالِمَ من علمه، وقد نُهينا أن يكون أحدُنا عونًا للشيطان على أخيه»[١].

لا يضيعون علم العلماء ولا يهدرونه لزلاتهم

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة علي بن محمد بن حبيب القاضي أبي الحسن البصْري الماورديّ -صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين»-: «وكان متهمًا بالاعتزال.

قلت: وبكل حال فهو مع بِدعةٍ فيه من كبار العلماء فلو أننا أهدرنا كلَّ عالم زلَّ لما سَلِمَ معنا إلا القليل، فلا تحطّ يا أخي على العلماء مطلقًا، ولا تبالغ في تقريظهم مُطلقًا، واسأل الله أن يتوّفاك على التوحيد»[٢].

وقال العلامة الشيخ محمد بن إسماعيل -حفظه الله-: «ومع أهمية التنبيه إلى زلة العالم، فإن هذا لا يستلزم هجره وإطراح ما عدا ذلك من علومه النافعة، كما يفعله الغلاة من المنتسبين إلى طلب العلم، وفي هذا يقول العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد -حفظه الله-: فهذه الآراء المغلوطة لم تكن سببًا في الحرمان من علوم هؤلاء الأجلة، بل ما زالت مناراتٍ يُهتدى بها في أيدي أهل الإسلام، وما زال العلماء على هذا المشروع ينبهون على خطأ الأئمة مع الاستفادة من علمهم وفضلهم، ولو سلكوا مسلك الهجر لهُدِّمت أصول وأركان، ولتقلص ظل العلم في الإسلام، وأصبح الاختلال واضحًا للعيان، والله المستعان»[٣].

---

(١) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٣٧٥).
(٢) «تاريخ الإسلام» باب: «أحداث سنة: ٤٤١-٤٦٠» (ص:٢٥٦).
(٣) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٣٧٤).

وقال أبو هلال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يضع من العالم الذي برع في علمه زلةٌ، إن كان على سبيل السهو والإغفال، فإنه لم يعرُ من الخطأ إلا مَنْ عصم الله ﷺ».

وقد قالت الحكماء: «الفاضل مَنْ عُدَّت سقطاته، وليتنا أدركنا بعض صوابهم أو كنا ممن يُميِّز خطأهم»[(١)]

لا يستخفون بالعلماء

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «من استخفَّ بالعلماء، ذهبت آخرتُه، ومن استخفَّ بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخفَّ بالإخوان ذهبت مُروءته»[(٢)]

وقال أيوب بن القريه رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحق الناس بالإجلال ثلاثة: العلماء، والإخوان والسلاطين، فمن استخف بالعلماء أفسد مروءته، ومن استخف بالسلطان أفسد دنياه، والعاقل لا يستخف بأحد»[(٣)]

وساق الدّينوري رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن أحمدَ بن شعيب قال: «كنا عند بعض المحدثين بالبصرة، فحدّثنا بحديث النبي ﷺ: «إنّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم». وفي المجلس معنا رجل من المعتزلة، فجعل يستهزئ بالحديث، فقال: والله لأَقَطِّرَنَّ غدًا نعلي فأطأ بهما أجنحة الملائكة. قال: ففعل ومشى في النعلين، فجفت رجلاه جميعًا ووقعت في رجليه جميعًا الأكلة»[(٤)]

وعن جعفر بن سليمان قال: سمعت مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «كفى بالمرء شرًّا أن لا يكون صالحًا، وهو يقع في الصالحين»[(٥)]

---

(١) «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٣٧١).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٣٣٠).
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٤٦).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٥/ ٢٩٤).
(٥) «شعب الإيمان» (٥/ ٣١٦).

لا يجرحون العلماء إلا ليتبين الحق ويعرف الصحيح

قيل ليحيى بن سعيد: «أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركتَ حديثهم خُصماؤك عند الله؟ قال: ذاك أحبُّ إلي من أن يكون خصمي رسولُ الله ﷺ يقول: لِمَ حدثت عني حديثًا ترى أنه كذب؟».

وقال بعض الصوفية لابن المبارك وقد تكلم في المعلى بن هلال: «يا أبا عبد الرحمن! تغتاب؟ فقال له: اسكت، إذا لم تُبيِّن كيف نعرفُ الحق من الباطل؟» وقال الشافعي: «ليس هذا من الغيبة»[(١)]

وقال الحسنُ بنُ عليّ، عن أبي صالح الفَرَّاء: «حكيت ليوسُف بن أسباط عن وكيع شيئًا من أمْرِ الفِتَن، فقال: ذاك يشبه أستاذه يعني الحسن بن حَيّ، قال: فقلتُ ليوسُف: أما تخاف أن تكون هذه غيْبَة؟ فقال لِمَ يا أحمق؟ أنا خير لهؤلاء من آبائهم وأمهاتهم، أنا أنهى الناس أن يَعْملُوا بما أحدثوا فتتبعهم أوزارُهم، ومَن أطراهم كان أضَرَّ عليهم»[(٢)]

لا يجرحون العلماء بالهوى والجهل وإنما بالعدل والإنصاف والورع والعلم

ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللهُ ترجمة الحلاّج «الزنديق» ثم قال: «فما ينبغي لك يا فقيه أن تبادر إلى تكفير المسلم إلا ببُرهان قطعِيّ، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العرفان والولاية فيمن قد تبرهن زَغَلُه، وانهتك باطنُهُ وزَنْدقَته، فلا هذا ولا هذا، بل العدلُ أنَّ مَنْ رآه المسلمون صالحًا محسِنًا فهو كذلك؛ لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأن من رآه المسلمون فاجرًا أو منافقًا أو مُبْطلًا فهو كذلك، وأن من كان طائفةٌ من الأمة تُضلِّلُه

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٢٤٨).
(٢) «تهذيب الكمال» (٦/ ١٨٢).

وطائفة من الأمة تثني عليه وتبجِّلُه وطائفةٌ ثالثةٌ تقف فيه وتتورع من الحطِّ عليه، فهو ممن ينبغي أن يُعْرض عنه، وأن يفوَّض أمره إلى الله، وأن يُستَغفَر له في الجملة؛ لأن إسلامَهُ أصليٌّ بيقين، وضلاله مشكوكٌ فيه، فبهذا تستريحُ ويصفو قلبُكَ من الغِلِّ للمؤمنين.

ثم اعلم أنَّ أهل القبلة كلَّهم، مؤمنهم وفاسقهم، وسنِّيَهُمُ ومُبتدِعَهُم -سوى الصحابة- لم يُجمعوا على مسلم بأنّه سعيد ناج، ولم يُجمعوا على مسلم بأنّه شقيٌّ هالك، فهذا الصِّدِّيق فرد الأمَّة، قد علمت تفرُّقَهُم فيه، وكذلك عمر، وكذلك عثمان وكذلك علي، وكذلك ابن الزبير، وكذلك الحجّاج وكذلك المأمون، وكذلك بشر المريسي، وكذلك أحمد ابن حنبل والشافعي والبخاري والنسائي وهلمَّ جرًّا من الأعيان في الخير والشر إلى يومك هذا، فما من إمامٍ كامل في الخير إلا وثمَّ أناسٌ من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمُّونه ويحطُّون عليه، وما من رأس في البدعة والتجهم والرفض إلا وله أناس ينتصرون له ويذبون عنه، ويدينون بقوله بهوىً وجهل، وإنما العبرة بقول جمهور الأمَّة الخالين من الهوى والجهل، المتصفين بالورع والعلم، فتدبر يا عبد الله نحْلة الحّلاج الذي هو من رؤوس القرامِطَة، ودعاة الزَّنْدقة، وأنصِفْ وتورّع واتقِ ذلك، وحاسِبْ نفسك، فإن تبرهنَ لك أن شمائل هذا المرء شمائلُ عدوٍ للإسلام محب للرئاسة، حريص على الظهور بباطل وبحق فتبرَّأ من نِحْلته، وإن تبرهن لك والعياذ بالله أنه كان- والحالة هذه- محقًّا هاديًا، مهدّيًا، فجدِّدْ إسلامَك، واستغث بربِّك أن يوفِّقك للحقِّ وأن يثبت قلبك على دينه فإنَّما الهُدى نورٌ يقذفه الله في قلب عبده المسلم، ولا قوة إلا بالله، وإن شككت ولم تعرف حقيقته وتبرَّأت ممَّا رُمِيَ به، أرحت نفسك ولم يسألك اللهُ عنه أصلًا [(١)].

وقال الذهبي أيضًا: مازال الأئمة يخالف بعضُهم بعضًا، ويردُّ هذا على هذا ولسنا ممن يَذُمُّ العالم بالهوى والجهل [(٢)].

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٤٢-٣٤٥).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٩/ ٣٤٢).

يجالسون العلماء للتفقه والأدب لا للمناظرة والشغب

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ «وقال الجُبَّائي: كنت أسمع في الحلية على ابن ناصر، فرقَّ قلبي، فقلتُ: اشتهيتُ لو انقطعتُ، وأشتغلُ بالعبادة، ومضيتُ فصليتُ خلْفَ الشيخ عبد القادر الجيلاني، فلما جلسنا نظر إليّ وقال: إذا أردت الانقطاع، فلا تنقطِعْ حتى تتفقَّهَ وتجالِس الشُيوخَ وتتأدب، وإلا فتنقطعُ أنت فُريخٌ ما رَيَّشْتَ»(١)

وقال ابن بطَّة: «سمعتُ البَرْبَهارِيَّ -شيخ الحنابلة أبا محمد الحسنُ بن علي- يقول: المجالسة للمناصحة فتحُ باب الفائدة، والمجالسةُ للمناظَرَةِ غلْقُ باب الفائدة»(٢)

يحذرون زيغة الحكيم، ولا يأخذون برخص العلماء

قال معاذ رضي الله عنه: «وأحذركم زيغة الحكيم فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم وقد يقول المنافق كلمة الحق»(٣)

وقال سليمان بن طَرْخان التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو أخذْتَ برخْصَةِ كل عالم اجتمع فيك الشرُّ كلُّهُ»(٤)

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقال ابن شابور: سمعت الأوزاعي يقول: من أخذ بنوادر العلماء خرج من الإسلام»(٥)

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢٠/ ٤٤٨).
(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٩١).
(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٢٩٦).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ١٩٨).
(٥) «تذكرة الحفاظ» (١/ ١٨٠).

لا يجالسون أهل الأهواء ولا يكلمونهم ولا يصغون إليهم ولا يغترون بهم

قال أبو قِلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا تجالسوا أهل الأهواء، أو قال: أصحاب الخصومات، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، ويُلبسوا عليكم بعض ما تعرفون»[(١)]

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «من جلس إلى صاحب بدعة فاحذروه»[(٢)]

وقال سلام بن أبي مطيع: «قال رجل من أهل الأهواء لأيوب أكلمك بكلمة؟ قال: لا، ولا نصف كلمة»[(٣)]

وعن عبد الله بن مسلم -وهو رجلٌ من أهل مَرْو- قال: كنت أجالس بن سيرين فتركت مجالسته، وجالست قومًا من الإباضية، فرأيت فيما يرى النائم كأني مع قوم يحملون جنازة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأتيت ابن سيرين، فذكرت له ذلك، فقال: ما لك جالست أقوامًا يريدون أن يدفنوا ما جاء به محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»[(٤)]

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أصغى بسمعه إلى صاحب بِدْعة، وهو يعلم، خرج من عِصمة الله، ووُكل إلى نفسه»، وقال: «من سمع ببدْعة فلا يحكها لجلسائه لا يُلقها في قلوبهم».

قلت -أي الذهبي-: أكثر أئمة السَّلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة، والشُّبه خَطَّافة»[(٥)]

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١١/ ٢٨٥).
(٢) «تلبيس إبليس» (ص:١٦).
(٣) «تلبيس إبليس» (ص:١٥).
(٤) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٣٨٨).
(٥) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٦١).

وقال ابن بُنْدارُ: «صحبة أهل البدَع تورثُ الإعراض عن الحق»(١).

وعن شعيب بن الحَبْحاب قال: «قلتُ لابن سيرين: ما ترى في السَّماع من أهل الأهواء؟ قال: لا نسمع منهم ولا كرامة»(٢).

وقال أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: «حدثنا عبد الرزاق قال: حدثنا معمر، قال: كان طاوس جالسًا، وعنده ابنه فجاء رجل من المعتزلة فتكلم في شيء فأدخل طاوس أصبعيه في أذنيه، وقال: يا بني أدخل أصبعك في أذنيك حتى لا تسمع من قوله شيئًا فإن هذا القلب ضعيف، ثم قال: أي بُنيَّ اسْدُد، فما زال يقول: اسْدُدْ حتى قام الآخَرُ، وفي نسخةٍ: حتى قام المعتزليُّ».

وعن صالح المري، قال: «دخل رجل على ابن سيرين: وأنا شاهد ففتح بابًا من أبواب القدر فتكلم فيه، فقال ابن سرين: إما أن تقوم وإما أن نقوم».

وفي رواية عن ابن عون، قال: «ووضعَ ابنُ سيرين أصْبَعيْ يديه في أذنيه وقال: إما أن تخرُجَ عني، وإما أن أخرُج عنك ! قال: فخرج الرجل، فقال ابن سيرين: إنَّ قلبي ليس بيدي، وإني خِفتُ أن ينفُثَ في قلبي شيئًا فلا أقدِرَ أن أُخرِجَه منه، فكان أحبَّ إليَّ أن لا أسمع كلامه»(٣).

وساق أبو نُعيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الحلية»، عن يونس بن عبد الأعلى قال: «قال الليث بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ: لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء ما قبلته»(٤).

فلما بلغ الشافعي ذلك قال: قصَّر الليث رَحِمَهُ اللَّهُ؛ بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء؛ فلا تعتبروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسُّنَّة»(٥).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٦/ ١٠٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦١١).

(٣) «تلبيس إبليس» (ص:١٤-١٥)، و«رسالة المسترشدين» (ص:١٨٣-١٨٤).

(٤) «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٤).

(٥) «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٧٦٩).

وكان أبو يزيد البسْطاميّ -الزاهد العارف- رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لو نظرتم إلى رجل أعْطى من الكرامات حتى يرتفع في الهواء، فلا تغترّوا به، حتّى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنَّهْي وحِفظ الحدود وأداء الشريعة».

قال الذهبي: «بل قد اغترّ أهل زماننا وخالفوا أبا يزيد، وأكبر من أبي يزيد، وتهافتوا على كلّ مجنون بوّال على عَقِبيْه، له شيطان ينطق على لسانه بالمغيَّبات، نسأل الله السلامة»(١)

لا يجادلون أهل الأهواء إلا لتبيين السنن وقمع البدع

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كان مالك بن أنس، إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: أما أنا فعلى بينة من ديني، وأما أنت فشاك، اذهب إلى شاك مثلك فخاصمه»(٢)

وقال وهب رَحِمَهُ اللَّهُ: «كنا عند مالك رَحِمَهُ اللَّهُ فقال رجل: يا أبا عبد الله ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استواؤه؟ فأطرق مالك، وأخذَته الرُّحضاء، ثم رفع رأسه، فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، كما وصف نفسه، ولا يُقالُ له كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلُ سوء صاحبُ بدعَة أخرجوه».

ومن طريق جعفر بن عبد الله قال: «كنا عند مالك، فجاءه رجل، فقال: يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وَجَد من مسألته، فنظر إلى الأرض وجعل ينكُتُ بعود في يده، حتى علاه الرُّحَضاء -العرق- ثم رفع رأسه ورَمى بالعود، وقال: الكيف منه غيرُ معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤال عنه بدْعةٌ، وأظنك صاحِبَ بدعة، وأمَرَ به فأُخْرج»(٣)

---

(١) «تاريخ الإسلام» باب: «أحداث سنة: ٢٦٢-٢٨٠»، (ص:١١١).
(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١١٩).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

ونقل الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة الليث بن سعد شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية، قوله: «بلغت الثمانين وما نازعتُ صاحَب هوىً قطُّ».

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كانت الأهواءُ والبدعُ خاملة في زمن الليث، ومالك، والأوزاعي، والسنن ظاهرة عزيزة، فأما في زمن أحمد بن حنبل، وإسحاق، وأبي عبيد فظهرت البدعة، وامْتُحِنَ أئمة الأثر، ورفع أهل الأهواء رؤوسهم بدخول الدولة معهم، فاحتاجَ العلماءُ إلى مجادلتهم بالكتاب والسنَّة! ثم كثر ذلك، واحتجَّ عليهم العلماءُ أيضًا بالمعقول، فطال الجدالُ واشتد النزاعُ، وتولّدت الشُّبهُ، نسأل الله العافية»(١)

يفحمون أهل البدع والضلال

قال السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمة عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن الخليل ابن عبد الله، الذي تلقبه المعتزلة قاضي القضاة: «ومن ظريف ما يحكى عنه، أن الأستاذ أبا إسحاق نزل به ضيفًا فقال: سبحان مَنْ لا يريد المكروه من الفجار. فقال الأستاذ: سبحان مَنْ لا يقع في ملكه إلاّ ما يختار».

قال السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهو جواب حاضر، وهو شبيه بما ذكر أن بعض الروافض قال لشخص من أهل السُّنَّة يستفهمه استفهام إنكار: مَنْ أفضل من أربعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خامسهم؟ يشير إلى فاطمة، والحسن، والحسين، وعلي رضي الله عنهم، حيث لفَّ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم الكساء، فقال له السني: اثنان الله ثالثهما، يشير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقصة الغار، وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»(٢)

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٤٤).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرى» (٣/ ٢٢٠).

ونقل الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن بقية بن الوليد: أخبرنا عبد الملك بن أبي النعمان الجزري، عن ميمون بن مهران قال: «خاصمه رجلٌ في الإرجاء، فبينما هما على ذلك إذ سمعا امرأة تغني، فقال ميمون: أين إيمان هذه من إيمان مريم بنت عمران، فانصرف الرجل ولم يردَّ عليه»(١).

وذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ القاضي أبا بكر الباقلاني -رأس المتكلمين-، وقال: «ذكر الخطيب وغيره عنه أن عضد الدولة بعثه في رسالة إلى ملك الروم... ثم ذكر أن بعض الأساقفة سأله بحضرة ملكهم، فقال: ما فعلت زوجة نبيكم ؟ وما كان من أمرها بما رميت به من الإفك ؟ فقال الباقلاني: مجيبًا على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوءٍ: مريم وعائشة، فبرأهما الله عَزَّوَجَلَّ وكانت عائشة ذات زوج، ولم تأت بولد، وأتت مريم بولدٍ ولم يكن لها زوج». يعني: أن عائشة أولى بالبراءة من مريم؛ وكلاهما بريئة مما قيل فيها، فإن تطرق في الذهن الفاسد احتمال ريبة إلى هذه، فهو إلى تلك أسرع».

وهما بحمد الله منزهتان مبرَّأتان من السماء بوحي الله عَزَّوَجَلَّ(٢).

يكرمون الضيف ولا يتكلفون فيما بينهم

يكرمون الضيف استجابة لأخلاق الإسلام المنبثقة من الإيمان بالله واليوم الآخر، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكْرِمْ ضَيْفَهُ» متفق عليه، فمكرم الضيف يؤكد بإكرامه ضيفَه أنه مؤمن بالله واليوم الآخر، ومن هنا سُمِّي هذا الإكرام جائزة تقدَّم للضيف، وكأنها شكر له على ما أتاح للمضيف من عمل صالح، يحقق إيمانه ويرضى ربه، ولذلك قال الإمام الزاهد أبو علي شقيق بن إبراهيم الأزدي البلخي شيخ خراسان: «ليس شيءٌ أحبَّ إليَّ من الضيف؛ لأن رزقه على الله وأجره لي»(٣).

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٧٣).
(٢) «البداية والنهاية» (١١/ ٤٢٧).
(٣) «سير أعلام النبلاء» (٩/ ٣١٥).

قال ﷺ: «من كان يؤمِنُ بالله واليوم الآخر فلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ جائزتَهُ»، قالوا: وما جائِزَتُهُ يا رسولُ الله؟ قال: «يَوْمُهُ وليْلَتُهُ، والضيَّافَةُ ثلاثة أيامٍ، فما كان وراء ذلك فهو صَدَقَةٌ» متفق عليه.

فجائزة الضيف يوم وليلة، أي: يزيد في بره وإكرامه، وأن يطعمه خيرًا مما يأكل هو عادة وواجب الضيافة ثلاثة أيامٍ، وما زاد على ذلك فهو صدقه تثبتُ في صحيفة الرجل الكريم المضياف.

قال ﷺ: «الضيافةُ ثلاثةُ أيَّام، فما سوى ذلك فهو صَدقةٌ»(١)

وليس إكرام الضيف في الإسلام أمرًا اختيارًا يتبع الأمزجة والنفسيات والاجتهادات الشخصية، وإنما هو واجب على المسلم، عليه أن يبادر إلى تأديته إذا ما قرع بابه طارق، وأنزل بفنائه ضيف.

عن أبي كريمة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلةُ الضيف حقٌّ على كل مسلم، فمتى أصبح بِفَنائِهِ -أي في داره ومنزله- فهو عليه دَيْنٌ، إن شاء اقْتضى، وإن شاءَ ترك»(٢)

أما الذين يضيقون ذرعًا باستقبال الضيف، ويغلقون دونه الأبواب، فلا خيرَ فيهم.

كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن النبي ﷺ: «لا خير فيمَنْ لا يُضيف»(٣)

ولقد ضرب سلفنا الصالح المثل الأعلى في إكرام الضيف، حتى إن الله -تبارك وتعالى- عجب من صنيع بعضهم في إكرام الضيف، ونجد ذلك في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه،

---

(١) رواه أبو داود (٣٧٤٩)، وصححه الألباني.
(٢) رواه أبو داود (٣٧٥٠)، وصححه الألباني.
(٣) رواه أحمد (٤/ ١٥٥)، وصححه الألباني.

فقلنَ: ما عندنا إلا الماء ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ -أو يُضيفُ- هذا؟» فقال رجلُ من الأنصار: أنا، فانْطَلَق به إلى امرأته فقال: أكْرمي ضيْفَ رسول الله ﷺ فقالتْ: ما عنْدَنا إلا قُوتُ الصِّبْيانِ، فقال: هيِّئي طعامَك، وأصْلِحي سراجَكِ، ونوِّمي صبْيانِك إذا أرادوا عشاءً[١]، فهيَّأت طعامِها، وأصْلَحتْ سراجَها، ونوَّمتْ صبْيانها، ثم قامتْ كأنها تُصلحُ سراجها فأطْفَأته، وجعلا يُريانه أنهما يأكلان، وباتا طاوِيَيْنِ -أي جائعين- فلما أصْبَحَ غدا إلى رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «لقد عَجِبَ اللهُ مِن صَنيعكما بضيفكُما الليلة»، وأنزل الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

على أن المسلم الحق كيِّس فَطِن، إذا نزل ضيفًا على أخيه فإنه يقدّر ظروفه، فلا يقيم عنده مسترخيًا متثاقلًا غير عابيء بما يسبب لمضيفة من إحراج وإثقال وإزعاج قد يبلغ به درجة التذمر والضيق، بل إنه ليجد في هَدْي الرسول الكريم ﷺ ما يحرّم عليه هذا الإثقالَ البشع الذي تأباه روح الإسلام، وذلك في الحديث الذي رواه مسلم عن النبي ﷺ: «لا يحلُّ لمسلم أن يقيمَ عند أخيه حَتى يُؤْثِمَهُ» أي: إلى أن يوقعه في الإثم، قالوا: يا رسول الله ! وكيف يُؤْثِمَهُ ؟ قال: «يُقيمُ عندهُ ولا شيءَ له يَقْرِيه به»، وفي رواية للبخاري: «ولا يَحِلُ له أن يَثْوِيَ عندَهُ -أي يقيم- حتى يُحْرِجَهُ»[٢]

وكان من هدى السلف -رحمهم الله- الضيف والمضيف منهم أنهم لا يتكلفون فيما بينهم.

---

(١) قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين إلى الأكل، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضرهم فإنهم لو كانوا على حاجة بحيث يضرهم ترك الأكل لكان إطعامهم واجبًا ويجب تقديمه على الضيافة». اهـ. «شرح النووي على مسلم» (١٤/ ١٢).

(٢) ينظر: «شخصية المسلم» (ص:٢٨٦).

أخرج ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ عن شقيق بن سلمة، قال: «دخلت على سلمان الفارسي فأخرج إليّ خبزًا وملحًا، فقال لي: لو لا أن رسول الله ﷺ نهانا أن يتكلف أحدٌ لأحد لتكلفت لك»[١].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنما تقاطع الناس بالتكليف، يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه، أن يتكلف له ما لا يفعله كل واحد منهما في منزله فيحشمه ذلك من الرجوع إليه»[٢].

وذكر ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ من حقائق الصحبة: «التخفيف عنه بأن لا تكلفه ولا تتكلف له، فسامحه بجميع حقوق الصحبة ولا تطلب منه ما يشقّ عليه منها من تواضع أو جاه أو مال أو غير ذلك، بل لا تقصد بمحبته إلا وجه الله تعالى».

وقيل لبعضهم: «مَنْ أصحب؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكليف، ويسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ».

وقيل: «مَنْ خَفَّتْ كلفته دامت ألفته، ومَنْ خفَّت مؤنته دامت مودته»[٣].

يوفون بالوعد ولو طال الانتظار

فقد صح أن من علامات المنافق أن يوعد فيخلف.

قال ﷺ: «آية المنافِقِ ثلاثٌ -أي علامته ودلالته-: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وعدَ أَخْلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان»[٤].

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أن من كان مصدقًا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ولا هو منافق يخلد في النار.

---

(١) «تاريخ دمشق» (١٥/ ١٠٨).
(٢) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٤٨).
(٣) «أسنى المطالب» (ص:٢٤٩).
(٤) رواه مسلم (١٠٧).

ولكن اختلف العلماء في معناه، فالذي قاله المحققون والأكثرون، وهو الصحيح المختار، أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه -أي فكذب عليه-، ووعده -أي فأخلفه-، وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره، وهو يبطن الكفر، ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار»[(١)]

والإخلافُ بالوعد يكدّر النفس وينزع المحبة من القلب، ومن استقرأ أحوال السلف علم أنهم يوفون وعدهم ولا يخلفونه.

عن عبد ربه القصَّاب، قال: «واعدْتُ محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ أن أشتري له أضَاحِيَّ، فنسيتُ وَعْدَهُ بشُغُل، ثم ذكرتُ بعْدُ، فأتيته قريبًا من نصف النهار، وإذا محمد ينتظرني، فسلمت عليه ورفع رأسه، فقال: أما إنه يُقْبَلُ أهْوَنُ ذنْبٍ منك، فقلت: شُغِلتُ وعَنَّفني أصحابي في المجيء إليك، وقالوا: قد ذهب ولم يَقْعُد إلى الساعة، فقال: لو لمْ تجيءْ حتى تغرُبَ الشمسُ، ما قمتُ من مَقْعَدي هذا إلا لصلاةٍ أو حاجةٍ لابُدَّ مِنْها»[(٢)]

وعن شُعبة رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «ما واعَدْتُ أيوبَ مَوْعدًا قطُّ، إلا قال لي حين يريدُ أن يفارقني: ليس بيني وبينك موعدٌ، فإذا جئتُ وجدْتُهُ قد سبقني»[(٣)]

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ٤٠).
(٢) «الصمت وآداب اللسان» (ص:٢٣٢)، وقال الحويني: «إسناده صحيح».
(٣) «الصمت وآداب اللسان» (ص:٢٣٣)، وقال الحويني: «إسناده صحيح».

لا يخاصمون الناس

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أَبْغَضَ الرِّجالِ إلى الله الألدُّ الخَصِمُ» متفق عليه.

قال النووي رحمه الله: «الألد: شديد الخصومة، وأما الخصم فهو الحاذق بالخصومة، والمذموم هو الخصومة بالباطل في رفع الحق أو إثبات باطل».

وعن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين رحمه الله قال: «إياكم والخصومة في الدين، فإنها تشغل القلب، وتورث النفاق».

وعن ابن وهب قال: «سمعتُ مالكًا يُحدِّث وذكر رجلًا بكثرة الكلام ومراجعة الناس، فقال: من صنع مثل هذا ذهب بهاؤه»[1].

وساق ابن أبي الدنيا بسنده عن سَلْم بن قتيبة قال: «مرَّ بي بشيرُ بن عُبيْد الله -يعني وهو في مجلس القضاء ينتظرُ المحاكمة بينه وبين خَصْمِه- فقال: ما يجلسك؟ قلت: خصومةٌ بيني وبين ابن عم لي، ادّعى أشياء في داري! قال: فإن لأبيك عندي يدًا وإني أريد أن أجْزيكَ بها، وإني والله، ما رأيت من شيء أذْهَبَ لدينٍ، ولا أنْقَصَ لمروءَةٍ، ولا أضْيعَ للذَّةٍ ولا أشْغَل لقلبٍ من خُصومةٍ، قال: فقمتُ لأرجع، فقال خصمي: مالك، قلت: لا أخاصِمُكَ، قال: عرفتَ أنه حقي؟ قلت: لا، ولكني أكرمُ نفسي عن هذا، وسأبقيك بحاجتك، قال: فإني لا أطْلُبُ منك شيئًا هو لك»[2].

وقال الحارث المحاسبي رحمه الله: «وخذ بحظِّك من العفوِ والتجاوز».

قال محققة أبو غدة رحمه الله: «يشير المؤلف إلى أنك إذا وقعت في خصومة مع إنسان، فالعفو والتجاوز خيرٌ لك مردًّا من الاستمرار واللَّدَ في الخِصومة، وقد صدق تعالى: فإن

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٤/ ٥٣١)، و«تذكرة الحافظ» (١/ ١٦٧).
(٢) «الصمت وآداب اللسان» (ص:١١٥).

الخصومة تمحقُ الدين، وتشغلُ العقل، وتقتل طمأنينة القلب والخاطر وتُقيضُّ المضاجع، وتجعل سُويداءَ الإنسان جحيمًا دائم الاستعار والاتِّقاد، فالعفو والتجاوز وإن صاحبه هضم وغَبْن - أغنمُ حظًّا، إذ يقضي على هذه الآثار كلِّها ويُعوِّض بدلًا منها الراحة والسكينة والفضل والإحسان».

ثم ذكر قصة سَلْمِ بن قُتَيبة السابقة، ثم قال: «والإنسان إذا ناله الأذى من الناس، وصبر عليه وسامَحَ فيه، ولم يفكر بالانتقام والمقابلة من مؤذيه، كان عاقبة أمره أفضل، من عاقبة المنتقم لنفسه، المقابل للسيئة بجزائها، وذلك أنه إذا تسامح وحَلُم، وتنازل وكَرُم، يشهَدُ في نفسه ومشاعِره مشهد السلامةِ وبرْدَ القلب، كما يشهدُ مشهدَ الأمنِ وهدوءَ البال، بل بعضُ المعتدين الظالمين الحاقدين ترْكُ المقابلة والردُّ عليه أقْتَلُ له من الرد».

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «مدارج السالكين» وهو يتحدث عن هذين المشهدين: «وَمشْهَدُ السلامة وبَرْدِ القلب: مشهدٌ شريف جدًا لمن عَرَفه وذاق حلاوتَه، وهو أن لا يشْتَغل قلبُه، وسِرُّه بما ناله من الأذى، وبطلب الوصول إلى دَرْكِ ثأرِهِ وشفاء نفسه، بل يَفرُغَ قلبهُ من ذلك، ويرى أن سلامة قلبهِ وبَرْدَهُ وخُلوَّهُ من ذلك أنفعُ له، وألذُّ وأطيب وأعونُ على مصالحه، وذلك أن القلب إذا اشتغل بشيءٍ من هذا الانتقام، فاتَهُ ما هو أهمُّ عنده، وخيرٌ له، فيكون بذلك مغبونًا، والرشيدُ لا يرضى بذلك، ويرى أنه من تصرفاتِ السفيه ! فأين سلامةُ القلب من امتلائِهِ بالغِلّ والوساوس، وإعمال الفِكر في إدراك الانتقام ؟

أما مشهدُ الأمنِ وسكونِ البال، فإنه إذا ترك المقابلةَ والانتقام أمِنَ ما هو شرٌّ من ذلك، وإذا انتقَمَ واقَعَهُ الخوفُ ولا بدّ، فإن ذلك يَزرَعُ العداوة، والعاقلُ لا يأمَنُ عَدُوَّهُ ولو كان حقيرًا، فكم من حقير أردَى عدوَّه الكبير ؟ فإذا غفَر ولم ينتقم ولم يقابل، أمِنَ من تولُّد العداوة أو زيادتِها، ولا بُدَّ أنَّ عفوَه وحِلمَه وصفحَه يكسِرُ عنه شوكة عدوه، ويكفُّ من جَزَعِه، بعكس الانتقام، والواقع شاهدٌ بذلك أيضًا».

واسمع هذه الأبياتَ الناصحة، واعمل بها في ترك الخصومات، والتفويض فيها إلى عالم الجليَّات والخَفِيَّات، والوكيل الحسيب على كلّ المخلوقات، وهي للإمام الحافظ الفقيه المؤرخ المقريء واللغوي، جامع العلوم أبي شامة المقدسي عبد الرحمن بن إسماعيل الدمشقي، المتوفى سنة ٦٦٥، وقد جَرَى عليه اعتداء عظيم، وأذىً شديدٌ على جسمه وبدنه، وقد شارف السبعين من العمر، وكان شيخ دمشق في عصره، فقيل له: اجتَمِعْ بولاة الأمر، ليأخذوا لك الحقَّ وينتصروا لك، فقال هذه الأبيات، كما ذكرها في آخر كتابه «ذيل الرَّوضتين» (ص: ٢٤٠):

قلتُ لمن قال: أما تشتكي ... ما قد جَرَى فهو عظيمٌ جليلْ
يُقَيِّضُ اللهُ تعالى لنا ... من يأخُذُ الحقَّ ويشفي الغليل
إذا توكّلْنا عليه كَفَى ... فحَسْبُنا الله ونِعمَ الوكيلْ[(١)]

يحسنون الكلام عند الاعتذار

عن محمد بن يونس، حدثنا الأصمعي قال: «أُتِيَ المنصور برجل يعاقبه على شيء بلغه عنه، فقال له: يا أمير المؤمنين ! الانتقام عدلٌ والتجاوز فضلٌ، ونحن نعيذ أمير المؤمنين بالله أن يرضى لنفسه بأوكس النصيبين دون أن يبلغ أرفع الدرجتين، قال: فعفا عنه»[(٢)]

وأخذ عبد الله بن مروان رجلًا وأراد قتله، فقال له: «يا أمير المؤمنين! إنك أعزُّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله فاعف له، فإنك به تُعان، وإليه تُعاد، فخلِّ سبيله»[(٣)]

وضرب الحجاج أعناقَ أسْرى؛ فلما قدَّموا إليه رجلًا لتُضرَبَ عنُقَه، قال: «والله لئن كُنَّا أسأنا في الذّنب فما أحسنْتَ في العفو!

---

(١) «رسالة المسترشدين مع حاشية أبي غدة» (ص:١٤٣-١٤٤).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٨٩).
(٣) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ١٩١).

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف، أما كان فيها أحدٌ يحسنُ مثل هذا الكلام! وأمْسَك عن القتل»[(١)]

وقال أكثَمُ بن صَيْفيّ التميمي: «مقتل الرجل بين فكيه -يعني لسانه- والفكّان اللَّحيان». قال: «وقال بعض العرب لرجلٍ وهو يعظه في حفظ لسانه: إياك أن يضربَ لسانكَ عُنْقَكَ»[(٢)]

يشكرون معروف الناس

يشكرون لمن أحسن إليهم ويكافئون صنيعه.

لأن النبي ﷺ قال: «لا يَشْكُرُ اللهَ مَنْ لا يشْكُرُ الناس»[(٣)]

قال العلماء في معنى الحديث: «إن الإنسان إن كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس -أي لا يشكر الناس على معروفهم- كان من عادته كفران نعمة الله تعالى وترك الشكر له.

وقيل: إن الله سبحانه لا يقبلُ شكرَ العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكرُ إحسانَ الناسِ، ويكفُر معروفهم لاتصال أحد الأمرين بالآخر.

قالوا: لأن شكرَهُ تعالى إنما يتم بمطاوعته وامتثال أمره، وإن مما أمر به: شكر الناس الذين هم وسائط في إيصال نعم الله إليه، فمن لم يُطعْه في هذا الأمر، وهو شكر الناس، لم يكن مؤديًا شكرَهُ»[(٤)]

---

(١) «البيان والتبيين» (١/ ٢٥٩).

(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٢٣٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، وصححه الألباني.

(٤) «عون المعبود» (١٣/ ١١٤)، و«تحفة الأحوذي» (٦/ ٧٤)، و«فيض القدير» (٦/ ٢٢٤)، و«فضل الله الصمد» (١/ ٢٧٠).

لقد بلغ من حرص الإسلام على تأصيل هذه الخليقة في نفس المسلم أن جعل شكر الله لا يتمّ ولا يتحقّق على وجهه الأكمل إلا بشكر الناس على ما قدّموه من معروف وما أسدته أيديهم من خير.

*** يشكرون لمن أحسن إليهم ويكافئون صنيعه.**

لأن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ عطاءً فوجَدَ؛ فليَجْزِ به، فإن لم يَجِدْ فلْيُثْنِ به، فمن أثنى به فقد شكرهُ، ومَنْ كتمَهُ فقد كفرهُ»(١).

يقول ﷺ: «من أعْطى عطاء فوجد» أي وجد مالًا يكافئ به مَنْ أعطاه وأحسن إليه «فلْيَجْزِ به» أي مكافئة على الصنيعة: «ومن لم يجد» أي: لم يجد مالًا يكافئ به «فَلْيُثْن به»، أي: على المعطي، ولا يجوز له كتمان نعمته «فمن أثنى به فقد شكرَهُ»، أي: شكره على ما أعطاه، وإن كتمه فقد كفرَهُ، أي: كفر نعمته، أي: ستر نعمة العطاء، والكفر في اللغة: الغطاء.

وفائدة التعبير بحرف الترتيب: الإشارة إلى أن مَنْ أُعْطِيَ لا يُؤخر الجزاء عن الإعطاء أيها وجد اليسار(٢).

*** يشكرون لمن أحسن إليهم ويكافئون صنيعه.**

لأن النبي ﷺ قال: «ومَنْ آتى إليكُمْ معروفًا فكافئُوهُ».

وفي رواية: «ومن صنع إليكم معروفًا فكافِئوهُ، فإن لم تجدوا ما تُكافئونَهُ فادْعوا له، حتّى تَروْا أنكم قد كافأتُمُوهُ»(٣).

يعني من أحسن إليكم فكافئوه بمثله.

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١٣)، وصححه الألباني.
(٢) «فيض القدير» (٦/ ٧٥)، و«عون المعبود» (١٣/ ١١٥).
(٣) رواه أبو داود (٥١٠٩، ١٦٧٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٦).

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأن في ذلك التواصل والتحاببَ، والذي أتاك المعروف محتاجك أنت فقابله بمثل فعله وأحْسَن.

قال سبحانه: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا﴾.

قيل: هو في الهدية، وقيل: السلام، فإن لم تجدوا ما تكافئونه به فادعوا الله له أن يكافئه عنكم، أي بالغوا في الدعاء حتى تظنوا أنكم قد أديتم حقه»[١]

*** يشكرون لمن أحسن إليهم ويكافئون صنيعه.**

اقتداءً بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي علمنا أن نشكر الناسَ على معروفهم، وأن نكافأهم على إحسانهم بالفعل والقول.

فقد أخرج أبو داود عن محمد بن جُبَيْر بن مُطعم عن أبيه: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في أسارى بَدْرٍ: «لو كان مُطْعِمُ بن عَدِيٍّ حيًا ثُمَّ كَلَّمني في هؤلاء النَّتْنَى لأطلقتهم له»[٢]

ثم كلمني، أي شفاعة، في هؤلاء النتنى، سماهم نتنى إما لرجسهم الحاصل من كفرهم، أو لأن المشار إليه: أبدانهم وجيفهم الملقاة في قليب بدر، لأطلقتهم له، أي: لتركتهم لأجله بغير فداء.

وإنما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك؛ لأنها كانت لمطعم عنده يدٌ، وهي: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل في جواره لما رجع من الطائف وذب المشركين عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأحب أنه إن كان حيًا فكافأه عليها بذلك[٣]

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٢٤)، و«عون المعبود» (١٤/ ١٠)، و«فضل الله الصمد» (١/ ٢٦٩).

(٢) رواه أبو داود (٢٦٨٩).

(٣) «عون المعبود» (٧/ ٢٥٣).

*** يكافئون من أحسن إليهم بالقول إن عجزوا عن الفعل.**

فقد قال ﷺ: «من صُنع إليه معروفٌ فقال لفاعلِه: جزاك الله خيرًا، فقد أبلغَ في الثناء»[(١)]

قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فقد أبلغ في الثناء لاعترافه بالتقصير، ولعجزه عن جزائه فوض جزاءَهُ إلى الله ليجزيه الجزاء الأوفى».

قال بعضهم: «إذا قصرت يداك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر والدعاء بالجزاء الأوفى»[(٢)]

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «لما قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة أتاه المهاجرون، أي: بعدما قام الأنصار بخدمتهم وإعطائهم أنصاف دورهم وبساتينهم إلى أن بعضهم طلق أحسن نسائه ليتزوجها أخوه من المهاجرين، وقد أخبر الله تعالى عن الأنصاري في ذلك بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

لما فعل الأنصارُ ذلك أتى المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! «ما رأينا قومًا أبْذَلَ مِنْ كثير، ولا أحْسَنَ مُواساةً من قليلٍ، من قومٍ نزلنا بين أظْهُرهم»، أي: عندهم وفيما بينهم.

والمعنى: أنهم أحسنوا إلينا سواء كانوا كثيري المال أم فقيري الحال، (لقد كَفَوْنَا المُؤْنَةَ) أي: تحملوا عنا مؤنة الخدمة في عمارة الدور والنخيل وغيرها (وأشْرَكُونا في المَهْنَأ) أي: أشركونا في ثمار نخيلهم، كفونا مؤنة سقيها وإصلاحها، وأعطونا نصف ثمارهم.

---

(١) رواه الترمذي (٢٠٣٥)، وصححه الألباني.

(٢) «فيض القدير» (٦/ ١٧٢).

(حتى لقد خِفْنا أن يذهبوا بالأجر كُلِّه) أي: من كثرة إحسانهم إلينا، فقال النبي ﷺ: «لا ما دَعَوْتُمْ اللهَ لَهُمْ، وأَثْنَيْتُم عليهِم».

يقول ﷺ: «لا يذهب الأنصارُ بكل الأجر، فإن فضل الله واسع، وليس الأمرُ كما زعمتم، فإنكم إذا أثنيتم عليهم شكرًا لصنيعهم ودمتم عليه فقد جازيتموهم»[(١)]

* **يشكرون المعروف؛ لأن كفرانِ الإحسانِ من الكبائر.**

فقد قال النبي ﷺ: «يا معْشَرَ النساءِ! تَصَدَّقْنَ وأَكْثِرْنَ الاستغفار، فإني رأيتُكُنَّ أكْثَرَ أهلِ النارِ»، فقالت امرأةٌ منْهُنَّ جَذْلَةٌ -أي ذات عقل ورأي- وما لنا يا رسول الله أكثر أهلِ النارِ؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وتَكْفُرْنَ العشيرَ»[(٢)]

تَكْفُرْنَ العشيرَ: أي تجحدن حق الخليط، وهو الزوج.

قال ابن مفلح: «توعد على كفرانِ العشير والإحسانِ بالنار فدلّ على أنه كبيرة على نص أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ».

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه أن كفران العشير والإحسانِ من الكبائر، فإن التوعد بالنار من علامة كون المعصية كبيرة»[(٣)]

* **يشكرون المعروف؛ لأن ترك المكافأة من التطفيف.**

ساق البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن بكار بن عبد الله بن شهابِ اليماني، قال: «سمعتُ وهبَ بن منبه يقول: تركك المكافأة تطفيف؛ قال الله ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾»[(٤)]

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١٢)، والترمذي (٢٤٨٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٧)، وصححه الألباني، وانظر: «تحفة الأحوذي» (٧/ ١٥٨-١٥٩).
(٢) رواه البخاري (٣٠٤)، ومسلم (٧٩).
(٣) رواه «الآداب الشرعية» (١/ ٣٠٣)، و«شرح النووي على مسلم» (٢/ ٥٨).
(٤) «الجامع لشعب الإيمان» (٨٧٢٨).

وقال مثنى بنُ جامع: «إنه سمع أبا عبد الله أحمدَ بن حنبل يذكر عن وهب بن منبه: تركُ المكافأة من التطفيف، وكذا قال غيرُ وهب من السلَف»(١).

*** يشكرون لمن أحسن إليهم ويكافئون صنيعه.**

اقتداءً بالسلف الصالح، فقد روى البخاري: عن ثَعْلبةَ بن مالك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قَسَمَ مُروطًا بين نساءٍ من نساءِ أهل المدينة، فبقي منها مِرْطٌ جيّد، فقال له بعضُ من عندَه: يا أميرَ المؤمنين، أعطِ هذا بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم التي عندك، يريدون أمَّ كلثومٍ بنتَ عليّ، وأمها فاطمة رضي الله عنها ولهذا قالوا لها: بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عمر قد تزوجها، فقال عمر: أُمُّ سُليطٍ أحقُّ به، وأمُّ سُليطٍ من نساءِ الأنصار ممن بايَع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: «فإنها كانت تَزْفِرُ لنا القِرَبَ يومَ أُحُد»(٢).

إن عمر رضي الله عنه كافئ صنيعها: وشكر معروفها.

وأخرج ابن عساكر رحمه الله في «تاريخ دمشق الكبير»: دخل هارونُ بن زيادٍ مؤدِّب الواثقِ على الواثقِ هارونِ بن محمدٍ المعتصم بن هارون الرشيد، فأكرمه وأظهر من برِّه ما شهر به، فقيل له: منْ هذا يا أميرَ المؤمنين الذي فعلتَ به ما فعلت ؟ قال: هذا أوّلُ مَنْ فتَقَ لساني بذكر الله عزَّ وجلَّ وأدناني من رحمة الله عز وجل»(٣).

وساق الذهبي رحمه الله في «سير أعلام النبلاء»، عن حبيب بن أبي ثابت: «أنَّ أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه قَدِمَ على ابن عبَّاس البصرة ففرّغ له بيته، وقال: لأصنَعنَّ بك كما صنعت برسول الله صلى الله عليه وسلم، كم عليك؟ قال: عشرون ألفًا، فأعطاه أربعين ألفًا،

---

(١) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٨١، ٤٠٧١).

يَزفِرْن القرب: يسقين الناس في الغزو، ويحملن القرب مملوءة ماء [«الفائق في غريب الحديث»].

وأم سليم المذكورة هي والدة أبي سعيد الخدري، كانت زوجًا لأبي سليط فمات قبل الهجرة، فتزوجها مالك بن سنان الخدري فولدت له أبا سعيد، [ينظر: «فتح الباري» (٦/ ٤٦٥)].

(٣) «تاريخ دمشق» (٦٧/ ٣٩).

وعشرين مملوكًا، ومتاعَ البيت»[(١)]

وساق الإمامُ أحمدُ بن مروان بن محمد الدِّينوري في «المجالسة وجواهر العلم»، بسنده عن عبد الله بن خبيق قال: «سمعتُ أبي يقول: قال لي يوسف بن أسباط في مرضه الذي مات فيه: يا عبد الله ! إذا أنا مت، فصيِّر إسماعيل بن داية، فيمن يُغَسِّلُني ؟ قال: فقلتُ له: يا أبا محمد ! إسماعيل ليس من أصحابك، وهو من أصحاب السلطان ؟ فأيُّ شيءٍ مذهبُك في هذا ؟ قال: دخلتُ الحمَّام، فخدمني ولم أكافئه، وأنا أعلم أنَّه ليُسرُّ أن يكون فيمن يغسِّلني فيكون هذا مكافأةً لما كان منه»[(٢)]

*** يشكرون معروف من أحسن إليهم وإن كان فاجرًا:**

فقد ساق الإمامُ البيهقي رَحِمَهُ اللَّهُ بسنده عن محمد بن الحنفية، محمد بن علي بن أبي طالب رَحِمَهُ اللَّهُ، في قوله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن:٦٠].

قال: هي مُسْجَلَةٌ للبَرِّ والفاجر[(٣)]

مُسْجَلَةٌ: أي مَرسلة مُطْلَقة في الإحسان إلى كل أحد، ولم يُشْتَرط فيها بَرٌّ دون فاجر، فالإحسان إلى كل واحد جزاؤه الإحسان وإن كان الذي يصطنع إليه فاجرًا.

وقيل لسعيد بن جبير رحمه الله المجوسي يوليني خيرًا فأشكره ؟ قال: نعم[(٤)]

* يشكرون الناس على مجرد الهَمِّ بالمعروف وإن لم يمضه الله بقدره:

فصاحب المعروف يستحق الشكر عليه، وإن لم تتحقق تلك المنافع والمصالح على يديه، فحسبه أنه أقبل على فعل المعروف، فاستحق كلمة الشكر النابعة من القلب وهذا ما يريده الإسلام من المسلمين.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (٢/ ٤١٠).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٧/ ٤٣).
(٣) «الجامع لشعب الإيمان» (٨٧٢٥).
(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٥).

قال أبو حفص -عمرُ بن نصر النهرواني- رَحِمَهُ اللَّهُ:

لأشكرَنك معروفًا هممتَ به   إنّ اهتمامك بالمعروف مَعْرُوف
ولا أذمك إن لم يُمْضِهِ قَدَرٌ   فالشيءُ بالقدر المحتوم مصروف[١]

* يضعون المعروف موضع الإنبات.

ساق الإمامُ أحمد بن مَرْوان بن محمد الدِّينوري، بسنده عن ابن عائشة، عن أبيه قال: «قال بعض الحكماء: لا تَضَعْ معروفَك عند فاحش، ولا أحمَق، ولا لئيم، فإن الفاحش يرى ذلك ضعفًا، والأحمَقَ لا يعرفُ قدرَ ما أتيت إليه، واللئيمَ سَبْخةٌ لا يُنْبِتُ ولا يُثْمِرُ، ولكن إذا أصبْتَ المؤمنَ فازرعه معروفك تحصُد به شكرًا»[٢]

قال ابن مفلح رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد قيل: كان يقال: كما يتوخى للوديعة أهل الأمانة والثقة: كذلك ينبغي أن يتوخى بالمعروف أهل الوفاء والشكر، وقال: فالسياسة الكلية افتقادُ محالِّ الإنعام قبل الإنعام»[٣]

* يصفون المعروف ابتغاء وجه الله تعالى.

قال ابن مفلح: «وقال رجل من قريش لأشعب الطَّمِع يا أشعب! أحسنتُ إليك فلم تشكر، فقال: إن معروفك خرج من غير محتسب إلى غير شاكر»[٤]

---

(١) «الجامع لشعب الإيمان» (١٦/ ١٥٢)، و«شخصية المسلم» (ص: ٣٦٠).
(٢) «المجالسة وجواهر العلم» (٦/ ٤٠٠).
(٣) «الآداب الشرعية» (١/ ٣٩٧ و ٤٠٠).
(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٠٦).

لا يؤذون مسلمًا قط ويزيلون الأذى عن المسلمين

فقد قال ﷺ: «أفضل المؤمنين إسلامًا من سلم المسلمون من لسانه ويده». وقال ﷺ: «ألا أخبِرْكُم بالمؤمن ؟ من أمنَهُ الناسُ على أموالهم وأنفسهم، والمسلم -أي الكامل- مَنْ سَلِمَ الناسُ من لسانِهِ ويده»[١] وسئل ﷺ: أيُّ المسلمين أفضل؟ قال: «منْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»[٢]

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل الألف واللام فيه للكمال نحو الرجل أي الكامل في الرجولية». قال الخطابي: «المراد أفضل المسلمين من جمع إلى أداء حقوق الله تعالى أداء حقوق الناس». وقال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمراد بقوله: «من سلم المسلمون» من لا يؤذي أحدًا بوجه من الوجوه لا باليد ولا باللسان»[٣]

وقال فيض بن إسحاق، قال الفضيل: «والله ما يَحِلُّ لك أن تؤذي كلبًا ولا خنزيرًا بغير حقٍّ، فكيف تؤذي مسلمًا»[٤]

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفى بالمرء شرًا أن لا يكون صالحًا، ويقع في الصالحين»[٥]

ولو فرضنا أن إنسانًا ما قائم بفروض العبادات المحضةَ إلا أنه يؤذي المسلمين بلسانه، فيستغيب هذا، ويشتم هذا، ويسعى بالنميمة ليفرّق بين الإخوان في الله، ويؤذي المسلمين بيده، فيضرب، ويقتل، ويسرق ويرمي الأذى في طرقاتهم، أو على بيوتهم، ويقذّر

---

(١) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٥٤٨، ١٤٩١).
(٢) رواه الترمذي (٢٦٢٨)، وصححه الألباني.
(٣) «شرح السيوطي وحاشية السندي على سنن النسائي» (٨/ ٤٧٩).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٢٧).
(٥) «صفة الصفوة» (٢/ ١٤٣).

مساجدهم ومواطن عباداتهم، فإن عبادته لربّه وقيامه بفروضه سيذهبان هدرًا، يسدّد منها حقوق من ظلمهم، حتى إذا ظهر إفلاسه طرح عليه من سيئات من آذاهم وظلمهم[(١)]

وفي الحديث المتفق عليه: «مر رجُلٌ بغُصْنِ شجرةٍ على ظهرِ طريقٍ، فقال: والله لأُنحِّيَنَّ هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأُدْخِلَ الجنَّةَ».

قال السيوطي رَحِمَهُ اللهُ: «لم يقل: لأقطعن إيذانًا بأن الشجرة كانت ملكًا للغير أو كانت مثمرة وقوله: «لا يؤذيهم»: أي لئلا يضرهم.

وقوله: «فأدخل الجنة»: ببناء أدخل للمفعول، أي: فبسبب فعله ذلك أدخل الجنة مكافأة له على صنيعه.

قال الحكيم: لم يدخلها برفع الغصن بل بتلك الرحمة التي عم بها المسلمين كما يصرح به الحديث فشكر الله له عطفه ورأفته بهم فأدخله دار كرامته»[(٢)]

يوقرون الكبير ويرحمون الصغير

*** يوقرون الكبير .**

لأن ديننا الإسلامي أمرنا أن نجل الكبير ونوقره، ونعرف حقه.

فقد قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لم يرحم صغيرَنَا ويَعْرِف حقَّ كبيرِنَا فليس منا»[(٣)]

وأخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء شيخ يريد النبي صلى الله عليه وسلم، فأبطأ القوم عنه أن يوسعوا له، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس منا مَنْ لم يرحم صغيرنَا ويوقر كبيرنَا»[(٤)]

---

(١) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٦١٤).

(٢) «فيض القدير» (١٠/ ٥٥٠٤).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٤٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٥٣)، وصححه الألباني.

(٤) رواه الترمذي (١٩١٩)، وصححه الألباني.

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس منا من لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقَّه»(١)، فمن لم يجل الكبير ويوقره ويعرف حقه فليس منا: أي ليس من أهل سنتنا، وقيل ليس مثلنا، وقيل: ليس من خواصنا وإجلال الكبير وتوقيره هو حق لسنِّه لكونه تقلب في العبودية لله في أمد طويل(٢).

** يوقرون الكبير.**

لأن النبي صلى الله عليه وسلم جعل إكرام الشيخ الكبير صاحب الشيبة البيضاء الذي نفد عمره في الإسلام والإيمان، بتعظيمه، وتقديمه والرفقه به، والشفقة عليه، من كمال تعظيم الله عز وجل وتبجيله لشدة حرمته عند الله تعالى.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من إجلال الله إكرامَ ذي الشَّيْبَةِ المسلم، وحامل القرآن غيرِ الغالي فيه والجافي عنه وإكرامَ ذي السلطان المُقْسط»(٣).

** يوقرون الكبير فيقدمونه على غيره.**

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنُّهي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم وإياكم وهَيْشَاتِ الأسواق»(٤).

قال النووي رحمه الله: «وأولو الأحلام: هم العقلاء، وقيل: البالغون، ولا يختص هذا التقديم بالصلاة؛ بل السُّنَّة أن يقدم أهل الفضل في كل مجمع إلى الإمام، وكبير

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٣٢٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٣١٩).
(٢) «فيض القدير» (٥/ ٤٧١)، و«إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٨٤)، و«عون المعبود» (١٣/ ١٩٦).
(٣) رواه أبو داود (٤٨٤٣)، وصححه الألباني. و«ينظر فيض القدير» (٥/ ٤٧١)، و«عون المعبود» (١٣/ ١٣٢)، و«إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٨٤)، و«الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» (ص:٢٨٥).
(٤) رواه مسلم (٤٣٢)، وأبو داود (٦٧٤).

المجلس كمجلس العلم والقضاء، والذكر والمشاورة ومواقف القتال وإمامة الصلاة والتدريس والإفتاء وإسماع الحديث ونحوها، ويكون الناس فيها على مراتبهم في العلم والدين والعقل والشرف والسن والكفاءة في ذلك الباب»(١).

«وإياكم وهيشات الأسواق»: أي جماعات الأسواق التي تختلط دون تنظيم ولا تنسيق، فيختلط فيها الصغير بالكبير، والجاهل بالعالم، وذو المكانة بغيره دون تمييز، فهذا الاختلاط الذي لا تمييز فيه مخالف للآداب الإسلامية، وقد قال ﷺ: «أنزلوا الناس منازلهم»(٢).

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤمُّ القَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لكتاب الله، فإن كانوا في القِرَاءَةِ سواء، فَأَعْلَمُهُم بالسُّنَّةِ، فإن كانوا في السُّنَّة سواء، فأقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فأقدمهم سِلْمًا».

وفي رواية: «فأقدمهم سِنًّا»، وفي رواية: «فأكبرهم سنًّا»(٣).

قال النووي: «معناه إذا استويا في الفقه والقراءة، والهجرة ورجح أحدهما بتقدم إسلامه، أو بكبر سنه قُدِّمَ لأنه فضيلة يُرَجَّحُ بها»(٤).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يَسْتَنُّ وعندَهُ رجلان أحدهما أكبرُ من الآخر فأوحى الله إليه في فَضْلِ السِّواكِ، أنْ كبِّرْ، أَعْطِ السِّواكَ أكْبَرَهُما»(٥).

* **يوقرون الكبير.**

فلا يتكلمون بين أيديهم إلا بإذن منهم، وهذا من مظاهر التوقير والتعظيم، فقد ذهب

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٤/ ١٣٠).
(٢) «الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٦٦٢).
(٣) رواه مسلم (٦٧٣).
(٤) «شرح النووي على مسلم» (٥/ ١٤٨).
(٥) رواه أبو داود (٥٠)، وصححه الألباني، ومسلم (٣٠٠٣) من طريق عبد الله بن عمر بلفظٍ قريب.

عبد الرحمن بن سهل يتكلم وفي القوم من هو أكبر منه سنًا فقال الرسول ﷺ: «كبِّرْ»[١]، أي ليتكلم من هو أكبر منك سنًا.

وهذا الأدب قد تعلمه أصحاب رسول الله ﷺ والتزموه.

فهذا سمرة بن جندب رضي الله عنه يقول: «لقد كنتُ على عهد رسول الله ﷺ غُلامًا، فكنتُ احفظ عنه، فما يَمْنَعُني من القول إلا أن ههنا رجلًا هُو أَسَنُّ مِني»[٢]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أخبروني بشجرة مَثَلُها مثَلُ المسلم -أي في كونها غير مضرة بجميع أجزائها كالمسلم يجيء بالسلامة لا غير- تُؤتي أكلَها كُلَّ حين بإذن ربِّها، ولا تَحُتُّ ورَقَها -أي تسقطه-»، فوقع في نفسي النخلة، فلما خرجت مع أبي قلت: يا أبتاه وقع في نفسي النخلة، قال: ما منعك أن تقولها؟ لو كنت قلتها كان أحب إلي من كذا وكذا، قال: ما منعني إلا أني لم أرك ولا أبا بكر تكلمتا، فكرهت»[٣]

وسئل ابن المبارك رحمه الله بحضور سفيان بن عيينة رحمه الله عن مسألة فقال: «إنا نهينا أن نتكلم عند أكابرنا»[٤]

*** يوقرون الكبير اقتداءً بالسلف الصالح رحمهم الله.**

فقد ساق البيهقي رحمه الله عن أبي عثمان الحناط قال: «قال ذو النون: ثلاثة من أعلام الوقار، تعظيم الكبير، والترحم على الصغير، والتحلم على الوضيع»[٥]

وساق ابن عساكر رحمه الله بسنده عن الشعبي قال: «ذهب زيد بن ثابت رضي الله عنه

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (١٦٦٩).
(٢) رواه مسلم (٩٦٤).
(٣) رواه البخاري (٦١٤٤).
(٤) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤٠٢).
(٥) «الجامع لشعب الإيمان» (١٠٤٨٣).

ليركب ووضع رجله في الركاب، فأمسك ابن عباس رضي الله عنهما بالركاب، فقال: تنح يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا، هكذا نفعل بالعلماء والكبراء»[(١)]

وعن حكيم بن قيس بن عاصم أن أباه أوصى عند موته بنيه فقال: «اتقوا الله وسوِّدوا أكبركم، فإن القوم إذا سوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم -أي قاموا مقام أبيهم في حسن الفعال- وإذا سوَّدوا أصغرهم أزرى بهم ذلك في أكفائهم -أي عيب واحتقر عند أكفائهم-»[(٢)] وقال الإمام أحمد رحمه الله: «إنما الناس بشيوخهم، فإذا ذهب الشيخ فمع من العيش»[(٣)]

* **يوقرون الكبير.**

فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «البركة مع أكابركم»[(٤)]

قال المناوي: «أي المجربين للأمور المحافظين على تكثير الأجور فجالسوهم لتقتدوا برأيهم، وتهتدوا بهديهم.

أو المراد من له منصب في العلم وإن صغر سنه فيجب إجلالهم حفظًا لحرمة ما منعهم الحق سبحانه وتعالى»[(٥)]

* **ويرحمون الصغير.**

موافقة لله تعالى فإنه رحمه ودفع عنه العبودية، فعن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رفعَ القلَمُ عن ثلاثةٍ: عن النائم حتى يستيقظَ، وعن الصَّبيِّ حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يَعْقِلَ»[(٦)]

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢١/ ٢٢٩).

(٢) رواه البخاري (٣٦١)، وصححه الألباني، وينظر: «فضل الله الصمد» (١/ ٣٨٨).

(٣) «طبقات الحنابلة» (٢/ ٢٤٩).

(٤) «الصحيحة» (١٧٧٨).

(٥) «فيض القدير» (٣/ ٢٦٦).

(٦) رواه أبو داود (٤٤٠٣)، والترمذي (١٤٢٣)، وصححه الألباني.

*** يرحمون الصغير.**

اقتداءً بالنبي ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحدًا كان أَرْحَمَ بالعيال من رسول الله ﷺ»(١).

قال النووي: «فيه بيان كريم خلقه ورحمته للعيال والضعفاء»(٢).

لقد كان ﷺ يحمل الصغار، ويقعدهم على حجره وفخذه، ويمسح على رؤوسهم، ويشمهم، ويقبلهم، ويردفهم خلفه على دابته، ويحنكهم ويدعو لهم بالبركة.

فعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يأْخُذُني فَيُقْعِدُني على فَخْذِهِ ويُقْعِدُ الحسنَ بنَ عليٍّ على فَخْذِهِ الآخَر، ثم يضمُّهُما ثم يقول: «اللَّهُمَّ ارْحَمْهُما فإني أَرحَمُهُمَا»»(٣).

وعن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: «أجلسني رسول الله ﷺ في حجره، ومسح على رأسي وسماني يوسف»(٤).

وعن أبي قتادة قال: «خرج علينا النبي ﷺ وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه فصلى فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها»(٥).

وعن عبد الله بن جعفر قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته. قال، وإنه قدم من سفر فسبق بي إليه، فحملني بين يديه، ثم جيء بأحد ابني فاطمة، فأردفه خلفه. قال، فَأُدْخِلْنَا المدينة، ثَلاثةً على دابة»(٦).

---

(١) رواه مسلم (٢٣١٦).
(٢) «شرح النووي على مسلم» (١٥/ ٦١).
(٣) رواه البخاري (٦٠٠٣).
(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٦٧)، وصححه الألباني.
(٥) رواه البخاري (٥٩٩٦)، ومسلم (٥٤٣).
(٦) رواه مسلم (٢٤٢٧).

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُؤْتَى بالصِّبيانِ فَيُبَرِّكُ عليهم ويُحَنِّكُهُم، فأُتي بصبيٍّ فبال عليه، فدعا بماء فأتبعه بولَهُ ولم يغسله»(١).

فيبرك عليه: أي يدعو لهم بالبركة ويمسح عليهم.

والتحنيك: أن يمضغ التمر أو نحوه ثم يدلك به حنك الصغير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قَبَّلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسنَ بن علي وعندَهُ الأقرعُ بنُ حابس التميميُّ جالسًا، فقال الأقرعُ: إن لي عشرةً من الولد ما قبَّلتُ منهم أحداً. فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «من لا يَرحمُ لا يُرحَم»».

وفي رواية عائشة قالت: «جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أو أملك لك أن نزَعَ الله من قلبكَ الرحمةَ»»(٢).

وأخرج البخاري تعليقًا: «قال ثابت عن أنس، أخذ النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم -ابن النبي صلى الله عليه وسلم- فقبله وشمّه»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأَدْخُلُ الصلاةَ أريد إطالتَهَا، فأسمعُ بكاءَ الصبيِّ، فَأُخَفِّفُ، من شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ».

وفي رواية: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمعُ بكاءَ الصَّبيِّ مع أمه، وهو في الصلاة، فيقرأ بالسُّورَةِ الخفيفَةِ، أو بالسُّورةِ القصيرة»(٤).

*** يرحمون الصغير.**

ففي رحمته رحمة الله والفوز بالجنة والنجاة من النار، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءتني مِسْكينةٌ تحملُ ابنتين لها، فأطعمتُهَا ثلاثَ تَمَرَاتٍ، فأعطت كل واحدةٍ منهما تمرةً

---

(١) رواه البخاري (٥٤٦٨)، ومسلم (٢٨٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٧، ٥٩٩٨).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب: «الأدب» باب: «رحمة الولد وتقبيله ومعانقته».

(٤) رواه البخاري (٧٠٩)، ومسلم (٤٧٠).

ورفعت إلى فيها تمرةً لتأكُلَهَا. فاسْتَطْعَمَتْهَا ابنتاها فشقت التمرَةَ، التي كانت تريد أن تأكُلَهَا، بينهما، فأعجبني شأنُهَا، فذكرتُ الذي صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ، فقال: «إن الله قد أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النارِ» (١) وفي رواية «وما يعجب من ذلك لقد رحمها الله برحمتها صَبِيَّيها» (٢)

يصلحون بين الناس

يصلحون بينهم إذا تعاسروا، ويقربون بينهم إذا تباعدوا.

يصلحون بين الناس إذا مرجوا، وفسدت ذات بينهم إما لدم أريق فيهم، وإما لمال أصيب لبعضهم، وإما لتنافس وقع بينهم، أو غير ذلك من الأسباب التي تفسد الإخوة وتقطع المودة.

وإصلاح ذات البين: إصلاح بين متنازعين، بين رجلين، أو بين رجل وامرأة، أو بين طائفتين، بإزالة أسباب الخصام، أو بالتسامح أو العفو، أو بالتراخي على وجه من الوجوه، وبهذا الإصلاح يذهب البينُ وتنحل عقدةُ الفُرْقةِ.

يصلحون بين الناس امتثالًا لأمر الله تعالى الذي أمر المؤمنين بأن يصلحوا ذاتَ بينهم ويطيعوا اللهَ ورسولَهُ إن كانوا مؤمنين حقًا، قال الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

فمن صفات المؤمنين المتقين أنهم يصلحون ذاتَ بينهم فإذا نشأ بينهم وبين إخوان لهم خصام على أمر من أمور الدنيا، أسرعوا إلى إصلاحه بأنفسهم ولو لم يتدخل بينهم وبين إخوانهم وسطاء، فإذا اشتد أمر الخصام وجب على المسلمين أن يسعوا في الإصلاح

---

(١) رواه مسلم (٢٦٣٠).
(٢) رواه البخاري (٨٩).

بين المتخاصمين بمختلف الوسائل الكفيلة بإزالة أسباب الخلاف وبرَأبِ الصدع(١)

أخرج البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «الأدب المفرد» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾، قال: «هذا تَحْريجٌ من الله على المؤمنين أن يتقوا الله وأن يصلحوا ذات بينهم»(٢)، والتحريج: التضييق -أي لامساغ للناس سوى التقوى والإصلاح-؛ لأن ذلك من أعظم الصدقات، بل هو أعظمها.

قال صلى الله عليه وسلم: «أفضلُ الصدقَةِ إصلاحُ ذاتِ البيْن»(٣)

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي أيوب الأنصاري: «ألا أدلُّك على صدقة يحبُّ الله موضِعَها؟ تصلحُ بين الناس، فإنَّها صدقةٌ يحبُ اللهُ موضِعَها»(٤)

وفي رواية قال له: «ألا أدُلُّك على تجارةٍ ؟»، قال: بلى، قال: «صِلْ بين الناس إذا تفاسدوا، وقرِّب بينهم إذا تباعدوا»(٥)

وقال صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ سُلاَمَى من الناس عليه صَدَقَةٌ، كلُّ يوْمٍ تَطْلُعُ فيه الشمسُ»، قال: «تَعْدِل بين الاثنين صدقةٌ»(٦)

سُلامى: بضم السين وتخفيف اللام وفتح الميم: مفرد سُلاميّات: وهي عظام الجسد، أو أنامله، أو مفاصله - أي كل مَفْصِلٍ من المفاصل الثلاث مائة وستين عليه صدقة، أي على صاحبه.

---

(١) رَأَبَ إذا أَصْلَحَ ، ورأبَ الصدع والإناء: شَعَبَه وأصلَحه ورأبَ البنَّاءُ الصَّدع في الجدار -أي: سَدَّ الثُّلْمَة وأصْلَحَ الخلل ، ورَأَبَ المصْلِحُ بين المتخاصمين- أن جمعهم وأزال خصامهم - «لسان العرب»، و«معجم الطلاب وينظر الأخلاق الإسلامية وأسسها» (٢/ ٢٣٠).

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٩٢)، وصححه الألباني رحمه الله موقوفًا على ابن عباس.

(٣) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٣٩)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨١٧).

(٤) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤١).

(٥) ينظر: «الترغيب والترهيب» (٢٨١٨).

(٦) رواه البخاري (٢٧٠٧)، ومسلم (٥٦).

وقوله ﷺ: «تعدل بين الاثنين» أي: تصلح بين اثنين متخاصمين أو متهاجرين بالعدل «صدقةٌ» أي: عليهما، لوقايتهما مما يترتب عليه الخصامُ من قبيح الأقوال والأفعال[(١)].

«يصلحون بين الناس»: لأن الإصلاح بينهم من أعظم الطاعات وأرفع الدرجات، قال رسول الله ﷺ: «ما عَمِلَ ابن آدمَ شيئًا أفضلَ من الصلاةِ، وصلاحِ ذات البَيْنِ وخُلُقٍ حسن»[(٢)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبرُكم بأفضلَ مِنْ درجةِ الصِّيَام، والصلاة والصَّدَقَةِ؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاحُ ذات البين، وفسادُ ذات البينِ الحالِقَةُ»[(٣)].

بين ﷺ أن صلاحَ ذاتِ البينِ أفضلُ من الصيام والصلاة والصدقة، لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله وعدم التفرق بين المسلمين وفساد ذات البين الحالقة، أي هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق الدين وتستأصله كما يستأصل الموسَى الشعر.

وفساد ذات البين ثُلْمَة في الدين فمن تعاطى إصلاحها، ورفع فسادها نال درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل، بخويصة نفسه[(٤)].

* **يصلحون بين الناس:**

وإن تزايدوا في الكلام ليلتئم الصف ويحِلَّ الوِئام فقد رَخَّصَ الرسولُ ﷺ -في سبيل الإصلاح- في كثير من الأقوال التي يتزيّد فيها الناسُ ابتغاءَ استمالة النفوس النافرة، وتَلْيين القلوب المتحجِّرة، ولا يعدُّ هذه الأقوالَ من الكذب الحرام ولا قائليها

---

(١) «شرح النووي على مسلم» (٧/ ٨٣)، و«فيض القدير» (٥/ ٢١).
(٢) ينظر: «السلسلة الصحيحة» (١٤٤٨)، و«صحيح الجامع» (٥٦٤٥).
(٣) رواه أبو داود (٤٩١٩)، والترمذي (٢٥٠٩)، وصححه الألباني.
(٤) «عون المعبود» (١٣/ ١٧٨)، و«تحفة الأحوذي» (٧/ ١٧٨).

من الكذابين الآثمين، فقال: «ليسَ الكذَّابُ الذي يُصْلِحُ بينَ الناسِ، فَيَنْمي خيرًا، أو يقولُ خيرًا»(١)

وقال: «لا يصلح الكذبُ إلا في ثلاث»، وفي رواية: «لا يحلُّ الكذبُ إلا في ثلاثٍ: يُحَدِّثُ الرجُلُ امرأتَهُ ليُرْضِيَهَا، والكذبُ في الحَرْبِ، والكذِبُ ليُصْلحَ بينَ الناس»(٢)

فدلّ هذان الحديثان على أن من يكذب لإصلاح المتشاجرين أو المتباغضين «فينمي خيرًا» أي يرفعُ ويبلغُ كلًا من الخصمين ما يظن أنه يحمله على الصلح، وإن لم يطابق الواقع، فينقل عن هؤلاء كلامًا جميلًا، ومن هؤلاء إلى هؤلاء كذلك، كأن يقول المصلح لزيد: إن عمرًا يقول عنك، إنه ظلمك، أو يحبك ويمدحك أو يطلب عفوك أو مسامحتك، ثم يأتي عمرًا فيقول له ما سبق، ونحو ذلك من الألفاظ التي تزيل غالبًا ما في النفوس من حقد وحسد وشحناء وبغضاء.

من فعل هذا للإصلاح بين الناس فإنه لا يعد كذابًا مذمومًا بل هو محسن(٣)

*** يصلحون بين الناس:**

اقتداءً بالرسول ﷺ، فقد كان يسعى بنفسه، ويذهب بنفسه للصلح بين المتنازعين، على ما كان يشغله من أعباء الدعوة وتكاليفها، مؤكدًا بسعيه هذا وجوب الصلح بين المتخاصمين.

فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن ناسًا من بني عمرو بن عوف كان بينهم شيء، فخرج إليهم النبي ﷺ في أناس من أصحابه يصلح بينهم فحضرت الصلاة ولم يأت النبي ﷺ فأذن بلال بالصلاة، ولم يأت النبي ﷺ: فجاء إلى

(١) رواه البخاري (٢٦٩٢)، ومسلم (٢٦٠٥).
(٢) رواه الترمذي (١٩٨٣)، وصححه الألباني.
(٣) «فيض القدير» (٥/ ٣٥٩)، و«أسنى المطالب في صلة الأقارب» (ص: ٢٩٠)، و«شخصية المسلم» (ص: ٢٣١).

أبي بكر فقال: إن النبي ﷺ حُبِسَ -أي: حبسه الإصلاح- وقد حضرت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ فقال: نعم، إن شئت، ثم ذكر صلاة أبي بكر بالناس، وحضور النبي ﷺ، ورجوع أبي بكر القهقري وراءه حتى دخل في الصف، وقوله: «ما كان ينبغي لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي النبي ﷺ»(١).

وبنو عمرو بن عوف: بطن كبير من الأوس، فيه عدة أحياء، كانت منازلهم بقباء، والسبب في ذهابه ﷺ إليهم.

ذكره البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية أخرى عن سهل بن سعد رضي الله عنه: «أن أهل قُبَاءَ اقتتلوا حتى تراموا بالحجارة فأُخْبِرَ رسول الله ﷺ بذلك فقال: «اذهبوا بنا نُصْلِحُ بينهم»(٢).

ذهب ﷺ يصلح بينهم ليجمع كلمةَ القبيلة، ويحسمَ مادة القطيعة.

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويؤخذ من الحديث أن غرض الإصلاح عذر في تأخير الصلاة عن أول وقتها»(٣).

وهذا مثال آخر يبين أن النبي ﷺ كان يحرص الحرص كله على أن تسود الأُخُوة مجتمع المؤمنين، ويرفرف الوئام والصفاء والتفاهم في حياتهم.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «سَمِعَ رسولُ الله ﷺ صَوْتَ خصومٍ بالبابِ عاليةٍ أَصْواتُهُمْ، وإذا أَحَدُهُمَا يَسْتَوْضِعُ الآخر، -أي يسأله أن يضع عنه بعض دينه- ويَسْتَرْفِقُهُ في شيءٍ -أي يطلب منه الرفق به- وهو يقول: والله لا أفعل فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «أين المتألّي -أي الحالف- لا يَفْعَلُ المعروفَ؟»، فقال: أنا يا رسول الله، فَلَهُ أيُّ ذلكَ أَحَبَّ»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٨٤، ٢٦٩٠).
(٢) رواه البخاري (٢٦٩٣)، ومسلم (٤٢١).
(٣) «أسنى المطالب في صلة الأقارب» (ص: ٢٨٤).
(٤) رواه البخاري (٢٧٠٥).

لقد خجل الرجل من رسول الله ﷺ، وقال: إن أراد الخصمُ الوضع، أي من رأس المال أو الرِفْق، أي الاقتصارُ على رأس المال وترك الزيادة فلة ما أحب.

ومثال ثالث:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه تَقَاضَى ابْنَ أبي حَدْرَدٍ الأسلَميِّ دينا كان له عليه في عهد رسول الله ﷺ في المسجد، فارتفعَتْ أصواتُهما حتى سَمِعَهَا رسولُ الله ﷺ وهو في بَيْتِهِ فخرجَ رسولُ الله ﷺ إليها حتى كشَفَ سِجْفَ حَجْرَتِه فنادى كعبَ بْنَ مالكٍ، فقال: «يا كعبُ» فقال: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أنْ ضَعِ الشَّطْرَ -أي النصف- فقال كَعْبٌ: قد فعلتُ يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ لعبد الله بن أبي حَدْردٍ: «قُمْ فاقْضِهْ»(١)

لقد حَوَّلَ النبيُّ ﷺ ثورة الغضب والخصومة والتَعنُّتِ إلى بسمة رضا وصفاء وتسامُحٍ.

*** يصلحون بين الناس.**

لأن بالإصلاح تَحِلُّ المودَّةُ مَحَلَّ القطيعةِ، والمحبَّةُ مَحَلَّ الكراهية، ولذلك سماه الله تعالى خيرًا فقال: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ [النساء:١٢٨]؛ لأن به تسكن النفوس عن شرها، ويرتفع الخلاف من بينها.

*** يصلحون بين الناس.**

سيرًا على نهج السلف الصالح، فهذا الإمام الخليفة الحسن بن علي رضي الله عنه وعن آلِ بيته الذي سكَّنَ الله به الفتنة، وجمع به الفرقَةَ، وحقن به دماء المسلمين لما خَلَع نفسه من الخلافة وتنازل عنها لأخيه معاوية رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٠٦، ٢٧١٠).

ففي «صحيح البخاري» عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «لما سار الحسن بن علي رضي الله عنهما إلى معاوية بالكتائب وفي رواية بكتائبَ أمثالِ الجبالِ، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبةً لا تولِّي حتى تُدْبَر أُخراها -وفي رواية: حتى تقتلَ أقرانها- فقال له معاوية -وكان والله خير الرجلين يعني معاوية-: مَنْ لذراري المسلمين؟ -أي: يكفلهم إذا قتل آباؤهم؟- وفي رواية: -إن قَتَل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاءِ مَنْ لي بأمور الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم؟-» [«الأطفال والضعفاء»].

يشير إلى أن رجال العسكرين: الشامي والعراقي، معظم مَن في الإقليمين، فإذا قُتلوا ضاع أمرُ الناس وفسد حال أهلهم بعدهم، قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وفيه دلالة على رأفة معاوية بالرعية، وشفقته على المسلمين وقوة نظره في ترتيب الملك ونظره في العواقب.

فبعث -أي معاوية- إليه -أي الحسن- رجلين من قريش من بني عبد شمس، ثم ذكر الصلح، وأن الرجلين عرضا على الحسن رضي الله عنه ما شاء من المال وكلماه في حقن دماء المسلمين، وطلب منه خلع نفسه من الخلافة، وتسليم الأمر لمعاوية.

قال الحسن البصري: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر، والحسن بن علي إلى جنبه، وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»(١)، أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الصلح بين الفئتين المختلفتين سيقع على يد الحسن رضي الله عنه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابن بطَّالٍ: هذا يدل على أن معاوية كان هو الراغب في الصلح وأنه عرض على الحسن المال ورغبه فيه وحثه على دفع السيف وذكره ما وعده به جده صلى الله عليه وسلم من سيادته في الإصلاح به».

---

(١) رواه البخاري (٧١٠٩، ٧٢٠٤).

وأراد الحسن بذلك كلِّه تسكين الفتنة، وتفرقَةِ المال على من لا يرضيه إلا المال فكان أصحاب الحسن يقولون له: يا عار المؤمنين فيقول: العار خير من النار[(١)]

فرضي الله عن الحسن الخليفة الذي خلع نفسه وصالح شفقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإبقاء لدمائهم وأموالهم.

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «وقد جازاه الله تعالى بهذا الصلح أن جعل المهدي الذي يؤم بعيسى صلى الله عليه وسلم على نبينا وعليه وسلم حين ينزل ويملأ الأرض عدلًا كما ملئت جورًا، جعله من ذريته»[(٢)]

*** يصلحون بين الناس.**

مخلصين في ذلك يبتغون به وجه الله تعالى ورضاه لا غير، محتسبين ثوابه عند الله عز وجل، فمن فعل ذلك كان له ثواب عظيم لا يعلم عظيم عظمته إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

دلت هذه الآية على أن المطلوب من أعمال الظاهر رعاية أحوال القلب في إخلاص النية وتصفية الداعية عن الالتفات إلى غرض دنيوي، فلا يكون الصلح ليشتهر الرجل بأنه يسعى في الإصلاح بين الناس، ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله بهذا الخير.

---

(١) «فتح الباري» (١٦/ ٧٧-٨٣).

فائدة: جاء في رواية البخاري: «أن معاوية رضي الله عنه لما قال لعمرو بن العاص: «من لذراري المسلمين؟ فقال: أنا». قال ابن حجر رحمه الله: «فظاهره يوهم أن المجيب بذلك عمرو بن العاص، ولم أر في طرق الخبر ما يدل على ذلك، فإن كانت محفوظة فلعلها كانت «فقال: أَنَّى» بتشديد النون المفتوحة: قالها عمرو على سبيل الاستبعاد».

(٢) «أسنى المطالب في صلة الأقارب» (ص:٢٨١).

* **يصلحون بين الناس.**

في الدماء، والأعراض والأموال وفي كل شيء يقع التداعي فيه، لقول الرسول ﷺ: «الصُّلْح جائِزٌ بين المسلمين: إلاّ صُلْحًا حَرَّمَ حلالًا، أو أحَلَّ حَرَامًا»(١)

فالصلح الذي يحرم الحلال كمصالحة الزوجة للزوج على أن يطلقها، أو لا يتزوج عليها، أو لا يبيت عند ضرتها.

والصلح الذي يحل الحرام، كالصلح على أكل مالٍ لا يحل له أكله كالربا أو يصلح على خمر ونحو ذلك.

والصلح الجائز بين المسلمين هو الذي يعتمد فيه رضي الله - سبحانه - ورضى الخصمين، فهذا أعدلُ الصلح وأحقُّه وهو يعتمد العلم والعدل فيكون المصلح عالمًا بالوقائع، عارفًا بالواجب، قاصدًا للعدل(٢)

يصلحون صلحًا عادلًا غير جائرٍ والصلح العادل هو الذي أمر الله به ورسوله ﷺ كما قال: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩].

يصلحون بين الغريمين لا يحابون واحدًا دون الآخر، ويمنعون الظالم منهما ويبينون ظلمه أو انحرافه ويعظونه ويخوفونه من تصميمه على ظلمه حتى يرجع والصلح الجائر هو الظلم بعينه، وقد أمر الله سبحانه بالإصلاح بين الطائفتين المقتتلتين أولًا، فإن بغت إحداهما على الأخرى فحينئذ أمر بقتال الباغية لا بالصلح فإنها ظالمة، ففي الإصلاح مع ظلمها هضم لحق الطائفة المظلومة، وكثير من الظلمة المصلحين يصلح بين القادر والظالم والخصم الضعيف المظلوم، بما يرضى به القادر رضى لصاحب

---

(١) رواه أبو داود (٣٥٩٤)، والترمذي (١٣٥٢).

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٠٤)، و«عون المعبود» (٩/ ٣٧٢)، و«تحفة الأحوذي» (٤/ ٤٨٧)، وقال في «عون المعبود»: «بين المسلمين: هذا خرج مخرج الغالب؛ لأن الصلح جائز بين الكفار وبين المسلم والكافر، ووجه التخصيص أن المخاطب بالأحكام في الغالب هم المسلمون لأنهم المنقادون لها»، وقال في «تحفة الأحوذي»: «خصهم لا لإخراج غيرهم بل لدخولهم في ذلك دخولًا أوليًا اهتمامًا بشأنهم».

الجاه، ويكون له فيه الحظ، ويكون الإغماص والحيف فيه على الضعيف، ويظن أنه قد أصلح، ولا يتمكن المظلوم من أخذ حقه، وهذا ظلم بل تُمكّن المظلوم من استيفاء حقه، ثم يُطلب إليه برضاه أن يترك بعض حقه بغير محاباة لصاحب الجاه[(١)]

*** يصلحون بين الناس.**

صلحًا لا يتسبب في إسقاط حد لله تعالى كحد الزنى والسرقة والسكر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحقوق نوعان: حق لله وحق لآدمي، فحق الله لا مَدْخَلَ للصلح فيه كالحدود والزكَوَات والكفارات ونحوها، وإنما الصلح بين العبد وبين ربه في إقامتها، لا في إهمالها، ولهذا لا تقبل الشفاعة في الحدود، وإذا بلغت السلطان فلَعَنِ الله الشَّافع والمُشَفَّع، وأما حقوق الآدمين، فهي التي تقبل الصلح والإسقاط والمعاوضة عليها»[(٢)]

وقد وضع الفقهاء قاعدة فقهية في الصلح قالوا: «الصلح عن الحدود باطل».

ومفاد هذه القاعدة: «أن الصلح عن عقوبة مقدرة شرعًا يعتبر صلحًا باطلًا ولا يسقط به الحد».

وفصلوا ذلك فقالوا: «إن الحدود منها ما هو حق خالص لله تعالى كحد الزنا والسكر، فهذا لا يجوز الصلح عنه بحال، لا قبل أن يرفع إلى الحاكم ولا بعد أن يرفع ومنها ما فيه حق العباد كالسرقة والقذف، فهذه يجوز الصلح والعفو عنه قبل رفعه إلى الحاكم وأما بعد الرفع فلا يجوز».

ودليل هذه القاعدة وأصلها حديث العسيف وهو الأجير الذي زنا بامرأة مخدومه[(٣)]، فعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما قالا: «جاء أعرابي فقال: يا رسول الله!

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٠٤)، و«أسنى المطالب» (ص:٢٨٦).
(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٠٣).
(٣) «موسوعة القواعد الفقهية» (٦/ ٢٤٢).

اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه فقال: صدق، اقض بيننا بكتاب الله، فقال الأعرابي: إن ابني كان عَسِيفًا على هذا فزنى بامرأته، فقالوا لي: على ابنك الرَّجْم، ففَدَيتُ ابني منهُ بمائةٍ من الغَنم ووليدةٍ ثم سألتُ أهلَ العلم فقالوا: إنما على ابنك جَلْدُ مائةٍ وتغريب عام، فقال النبي ﷺ: «لأقضينَّ بينكما بكتاب الله، أما الوليدةُ والغَنَمُ فردٌّ عليك، وعلى ابنك جلدُ مائةٍ وتغريبُ عام، وأما أنتَ يا أنيسُ -لرجُلٍ- فاغْدُ على امرأةِ هذا فارجُمها» فغدا عليها أنيسٌ فَرَجَمَهَا»[1]

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وفيه أن الحد لا يقبل الفداء، وهو مجمع عليه في الزنا والسرقة والحِرابة وشرب المسكر: واختلف في القذف، والصحيح أنه كغيره، وإنما يجري الفداء في البدن كالقصاص في النفس والأطراف.

وأن الصلح المبني على غير الشرع يرد ويعاد المال المأخوذ فيه»[2]

فمن صالح عن جريمة سرقة بعد دفعها إلى الحاكم فالصلح باطل، ويجب الحد على السارق بشروطه، وتعرفون حديث المخزومية التي سرقت.

وإذا صالح القاضي أو الحاكمُ شارب الخمر على أن يأخذ منه مالًا ويعفو عنه، لا يصح الصلح، ويُرد المال على شارب الخمر سواءً قبل الرفع أو بعده والحد يجب ولا يسقط، لأنه حق لله تعالى.

فاحذر أن تسبّب في صلح وفيه إسقاط حدٍ لله تعالى تَحَتّم ولم يقبل الشفاعة فإن الرسول ﷺ قال: «مَنْ حَالَتْ شفاعَتُهُ دُونَ حَدٍّ مِن حدودِ اللهِ، فقد ضَادَّ اللهَ»[3] «فقد ضادَّ الله» أي خالف أمره، لأن أمره إقامة الحدود. «فقد ضادَّ الله» أي: حاربه وسعى في ضد ما أمر الله به.

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩٥، ٢٦٩٦، ٦٨٢٧).
(٢) «فتح الباري» (١٥/ ١٧١).
(٣) رواه أبو داود (٣٥٩٧)، وصححه الألباني، وينظر: «عون المعبود» (١٠/ ٤).

وأما إذا صالح عن حق القصاص، جاز وسقط القصاص، وهو صلح صحيح، حيث انتقل الحق من القصاص إلى الدية، ويعتبر ما صالح عليه بدلًا من الدية، والصلح عن الجنايات التي يجب فيها المال صلح صحيح[1].

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب الصلح» بابًا قال: «باب الصلح في الدية»، ساق فيه حديث أنس: «أن الرُّبَيِّعَ -وهي ابنةُ النَّضِر- كَسَرتْ ثَنِيَّةَ جاريةٍ فطلبوا الأرش وطلبوا العفوَ، فأبَوا، فأَتَوا النبي صلى الله عليه وسلم فأقرهم بالقصاص، فقال أنس ابن النَّضر: أَتُكْسَرُ ثَنيَّةُ الرُّبَيِّعِ يا رسولَ الله؟ لا والذي بَعَثَكَ بالحق، لا تُكْسَرُ ثنيَّتُهَا، فقال: «يا أنسُ كتابُ اللهِ القصاصُ»، فَرَضِيَ القومُ وَعَفوا، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «إن مِن عبادِ اللهِ مَنْ لو أَقْسَمَ على الله لأبَرَّه»، وفي رواية: «فرضى القوم وقبلوا الأرش»[2].

إن أنسًا رضي الله عنه لم يقله ردًا للحكم؛ بل نفى وقوعه لما كان له عند الله من اللطف به في أموره والثقة بفضله أن لا يخيبه فيما حلف به، ولا يخيب ظنه فيما أراد.

قال توقعًا ورجاءً من فضل الله أن يلهم الخصوم الرضا حتى يعفوا أو يقبلوا الأرش، وقد وقع الأمر على ما أراد فألهم الله الغير العفو فبر قسم أنس، وأشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبَرَّه» إلى أن هذا الاتفاق إنما وقع إكرامًا من الله لأنس ليبر يمينه وأنه من جملة عباد الله الذين يجيب دعاءهم ويعطيهم أربهم[3].

* **يصلحون بين الناس.**

اهتمامًا بوحدة جماعة المسلمين، وحرصًا على أن لا يدبَ الخلافُ بينهم، ولا تقعَ الفرقةُ بين صفوفهم، لأن ذلك يوهن قواهم، ويطمع بهم عدوهم، ويقذف بهم إلى

---

(١) «القواعد الفقهية» (٦/ ٢٤٢).
(٢) رواه البخاري (٢٧٠٣).
(٣) «فتح الباري» (١٥/ ٢٧٧) بتصرف.

الفشل ويمكن أعداءهم من رقابهم وقد جمع الوليد بن عبد الملك أهل بيته لما بايعه الناس بعد موت أبيه وقال:

انفوا الضغائن والتحاسد بينكم ... عند المغيب وفي الحضور الشهَّد
فصلاح ذات البين طول بقائكم ... بتواصلٍ وتراحم وتودد
وانفوا الضغائن والتخاذل بينكم ... بتكرم وتوازر وتغمد
حتى تلين جلودكم وقلوبكم ... لمسوَّدٍ منكم وغير مسوّد
إن القداح إذا اجتمعن فرامها ... بالكسر ذو حَنَقٍ وبطش أيد
عزّت فلم تكسر وإن هي بدّدت ... فالهون والتكسير للمتبدّد (١)

يعرفون أولياء الله ولا يعادون أحدًا منهم ولا يحاربونهم

والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن وولي الله: هو من والى الله بموافقته في محبوباته وتقرب إليه بمرضاته وأولياء الله هم الذين يمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه، وأولياء الله هم الذين يتقربون إليه بما يقربهم منه، وأعداؤه أبعدهم عنه بأعمالهم المقتضية لطردهم وإبعادهم منه.

وبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى فمن كان أكمل إيمانًا وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله ﷻ بحسب تفاضلهم في الإيمان والتقوى وكذلك يتفاضلون في عدواة الله بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، ولا يكون وليًا لله تعالى إلا من آمن بالرسول ﷺ وبما جاء به، واتبعه باطنًا وظاهرًا، ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان.

---

(١) «تاريخ دمشق الكبير» (٦٦/ ١٢٧).

وكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن فضلًا عن أن يكون من أولياء الله المتقين.

وأولياء الله هم المؤمنون، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم بإحسان وهم أهل التقوى وبالإيمان، وهم المطيعون لله ورسوله، فكل هؤلاء هم الأولياء سواء كانوا عربًا أو عجمًا، بيضًا أو سودًا أغنياء أو فقراء، حكامًا أو محكومين، رجالًا أو نساء.

وأولياء الله تعالى يوجدون في جميع أصناف أمة محمد ﷺ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم، ويوجدون في أهل الجهاد والسيف، ويوجدون في التجار والصنّاع والزرّاع، ومخطئ من المسلمين من لا يعتقد الولاية إلا في البُلْه المعتوهين الذين رفع الشارع عنهم القلم بقوله ﷺ: «رُفع القلمُ عن ثلاثةٍ: عن النائِم حتى يستيقظ، وعن الصَّبيِّ حتى يَشِبَّ» وفي رواية: «حتى يَعْقِلَ»، وفي رواية: «وعن الغلام حتى يَحْتَلمَ»، وفي رواية: «وعن الصبي حتى يَكْبُرَ، وعن المعْتُوهِ حتى يعقِلَ»[(١)]

ومخطئ من المسلمين من لا يعترف بولاية المؤمنين الذي يعيشون معه من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات أو مات وَشُيِّد له ضريح، أو بنيت على قبره قبة[(٢)]. فإن علمت أحدًا من أولياء الله تعالى فلا تعاده، ولا تحاربه؟ فإن الله تعالى لن يسلمه لعداوتك.

ذكر الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في ترجمة حريز بن عثمان الرَّحبي: «أنه قال: لا تعاد أحدًا حتى تعلم ما بينه وبين الله فإن يكن محسنًا فإن الله لا يسلمه لعداوتك، وإن يكن مسيئًا فأوشك بعمله أن يكفيكه»[(٣)]

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٩٨)، والترمذي (١٤٢٣١)، وصححه الألباني.

(٢) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص:٥-١٩)، و«إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (١/ ٣٠٥ و٢/ ٢٢٣)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٥٠٥)، و«جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٥)، و«أضواء البيان» (٤/ ٦٤)، و«مجموع فتاوي ابن باز» (٦/ ٣٢٥)، و«عقيدة المؤمن» (ص:١٧٥).

(٣) «ميزان الاعتدال» (١/ ٤٧٦).

وساق الدينوري بسنده عن هشام بن عبد الملك الطيالسي قال: «سمعت ابن عيينة وهو بَعبَّادان، فسمعته يحدثنا بحديث حسن، فقال: سمعت أبا حازم يقول: لا تُعَادِيَنَّ رجلًا ولا تُنَاصبنَّهُ حتى تنظر إلى سريرته بينه وبين الله ﷻ فإن تكن له سريرة حسنةٌ، فإن الله تبارك وتعالى لم يكن مُخْذِلَهُ بعداوتك له، وإن كانت له سريرةٌ رديَّةٌ، فقد كفاك مساوئه، فلو أردت أن تعمل به أكثر من معاصي الله لم تقدر»[(١)]

وكيف تحارب أولياء الله، والله ﷻ قد قال: «من عادى لي وليًا فقد بارزني بالمحاربة» أو «فقد آذنته بالحرب»[(٢)]

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: فقد أعلمته بأني محارب له، حيث كان محاربًا بمعاداة أوليائي، ثم قال: روى الإمام أحمد في كتاب «الزهد» عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى قال لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين كلمه: «اعلم أن من أهان لي وليًا أو أخافه فقد بارزني بالمحاربة، وبادأني، وعرَّض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أَفَيَظُنُّ الذي يحاربني أن يقوم لي؟ أويظن الذي يعازّني[(٣)] أن يعجزني؟ أم يظن الذي يبارزني أن سبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، فلا أكل نصرتهم إلى غيري»[(٤)]

وقال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند حديث «من عادى لي وليًا»: «فأخبر أن معاداة أوليائه معاداة له: ومحاربة له، ومن تكفل الله بالذب عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابه فأحبهم وقام بكفايتهم وكفاهم ما أهمهم»[(٥)]

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٤٨٧).
(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).
(٣) عازَّهُ: غالبهُ.
(٤) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣٤).
(٥) «بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار» (ص: ١٥).

وقال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ عند قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣] ظاهر الآية محال: فإن الله ﷻ لا يحارب ولا يغالب، ولا يشاقّ، ولا يحاد لما هو عليه من صفات الجلال وعموم القدرة، والإرادة على الكمال، وما وجب له من التنزه عن الأضرار والأنداد».

وقد قال جماعة من المفسرين لما وجب من حمل الآية على المجاز: «معناه يحاربون أولياء الله، وعبر بنفسه العزيزة -سبحانه- عن أوليائه إكبارًا لإيذائهم كما عبر بنفسه عن الفقراء في قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] لطفًا بهم ورحمة لهم»[(١)]

يقربون الصالحين أولياء الله ويكرمونهم ولا يطردونهم

إذ من مقتضيات العدل والإنصاف أن يقرب الصلحاء والأتقياء فهم أهل الزلفى، والتقريب والترحيب.

وهذا أمر الله تعالى المستمر مع أول رسول أرسله إلى الخلق نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى آخرهم وخاتمهم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالى عن نبيه نوح أنه قال لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

قال صاحب «المنار» رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي ليس من شأني ولا بالذي يقع مني طرد الذين

---

(١) «أحكام القرآن» (٢/ ٥٩٤).

آمنوا من قربي وجواري لاحتقاركم لهم، ووصفكم إياهم بالأراذل جهلًا منكم»[1]

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

قال الرازي: في قوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فيه قولان: الأول: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسك بهذا الطرد.

الثاني: أن تكون من الظالمين لهم، لأنهم لما استوجبوا مزيد التقريب والترحيب كان طردهم ظلمًا لهم[2]

وقال أيضًا عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: والمعنى: أن العقل والشرع تطابقا على أنه لا بد من تعظيم المؤمن البر التقي.

ومن إهانة الفاجر الكافر، فلو قلبت القصة وعكست القضية وقربت الكافر الفاجر على سبيل التعظيم، وطردت المؤمن التقي على سبيل الإهانة كنت على ضد أمر الله تعالى من إيصال الثواب إلى المحقين أو العقاب إلى المبطلين، وحينئذ أصير مستوجبًا للعقاب العظيم، فمن ذا الذي ينصرني من الله تعالى ومن ذا الذي يخلصني من عذاب الله، أفلا تذكرون، فتعلمون أن ذلك لا يصح[3]

وقال القاسمي: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ والمعنى: لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفات عنك، بل اجعلهم جلساءك، وأخصاءك.

وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾: أي يدعون ربهم مخلصين له فيه، وتقييده به لتأكيد

---

(١) «تفسير المنار» (١٢/ ٦٦).
(٢) «التفسير الكبير» (٦/ ٢٤٩).
(٣) «التفسير الكبير» (٩/ ٢٢٤).

عِلِّيَّةِ النهي، فإن الإخلاص من أقوى موجبات الإكرام المضاد للطرد[(١)]

وقال عند آية هود: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي لأنهم أهل القربة والمنزلة عند الله تعالى وطردهم قد يكون مانعًا لهم من الإيمان، أو لأمثالهم، ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئ لأوليائه[(٢)]

وقال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند آية هود ﴿إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾: تعليل للامتناع من طردهم، كأنه قيل: لا أطردهم ولا أبعدهم عن مجلسي لأنهم من أهل الزلفى ولأنهم المقربون الفائزون عند الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ أي: بكل ما ينبغي أن يعلم، ويدخل فيه جهلهم بمنزلتهم عند الله تعالى وبما يترتب من المحذور على طردهم، وبركاكة رأيهم في التماس ذلك[(٣)]

وقال السعدي: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض، بل هم مستحقون لموالاتك إياهم ومحبتهم، وإدنائهم، وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، والأعزاء - في الحقيقة - ولو كانوا عند الناس أذلاء[(٤)]

وقال عند قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، ما ينبغي لي ولا يليق ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام[(٥)]

وقال الشوكاني: عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: إن فعلت

---

(١) «تفسير محاسن التأويل» (٦/ ٥٤٠).
(٢) «تفسير محاسن التأويل» (٩/ ١١٥).
(٣) «روح المعاني» للألوسي (١٢/ ٤١).
(٤) «تفسير السعدي» (ص:٢١٩).
(٥) «تفسير السعدي» (ص:٣٣٦).

ذلك كنت من الظالمين، وحاشاه ﷺ من وقوع ذلك منه، وإنما هو من باب التعريض لئلا يفعل ذلك غيره ﷺ من أهل الإسلام [(١)]

وإن طرد الصالحين - أولياء الله - أمر مستغرب عند العقلاء والمنصفين، وقد استغرب النبي ﷺ ذلك واستبعد ما قاله ورقة بن نوفل: لما قال له: «ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك» فقال له النبي - ﷺ: «أو مخرجي هم».

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: واستبعد النبي ﷺ أن يخرجوه، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج لما اشتمل من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة رضي الله عنها وصفها [(٢)]

أي عندما قالت له خديجة رضي الله عنها: أبشر، فوالله لا يُخْزيك الله أبدًا، والله ! إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَدِيثَ، وتحْمِلُ الكَلَّ - كالإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال - وتَكْسِبُ المَعْدُومَ - أي تكسب المال العظيم الذي يعجز عنه غيرك، ثم تجود به في وجوه الخير وأبواب المكارم - وتقري الضيف - أي تضيفه وتكرمُهُ - وتُعينُ على نَوائبِ الحقِ - على حوادثه في الخير [(٣)]

وقال القسطلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: والهمزة للاستفهام الإنكاري، لأنه ﷺ استبعد إخراجه عن الوطن لا سيما حرم الله وبلد أبيه إسماعيل، من غير سبب يقتضي ذلك، فإنه ﷺ كان جامعًا لأنواع المحاسن المقتضية لإكرامه وإنزاله منهم محل الروح من الجسد [(٤)]

وقد درج على هذا الأمر الإلهي من تقريب الصالحين وإكرامهم السلف الصالحون - رحمهم الله - الذي وافقوا الله تعالى في أمره ونهيه.

(١) «فتح القدير» (٢/ ١٦٨).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٥).
(٣) «شرح النووي على مسلم» (٢/ ١٧٤-١٧٦).
(٤) «إرشاد الساري شرح صحيح البخاري» (١/ ٦٦).

فقد كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عماله: لا تستعينوا على شيء من أعمالي إلا بأهل القرآن.

فكتبوا إليه: استعملنا أهل القرآن فوجدناهم خونة.

فكتب إليهم: لا تستعملوا إلا أهل القرآن فإن لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون فيهم خير[(١)]

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة الملك الصالح: نور الدين محمود زنكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكان حنفي المذهب، يحب العلماء، والفقراء، ويكرمهم، ويحترمهم، ويحسن إليهم

وكان مهيبًا وقورًا، شديد الهيبة في قلوب الأمراء، ومع هذا إذا دخل أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له، ومشى خطوات وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون، وإذا أعطى أحدًا منهم شيئًا مستنكرًا يقول: هؤلاء جند الله وبدعائهم ننصر على الأعداء[(٢)]

ونقل ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن طاهر بن الحسين: أنه كتب كتابًا لابنه عبد الله ابن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما.

وعهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقة.

ومما جاء فيه: وآثر الفقه وأهله، والدين وحملته، وكتاب الله ﷻ والعاملين به.

وفيه أيضًا: وأحبب أهل الصلاح والصدق، وأعز الأشراف بالحق، وأعن الضعفاء، وصل الرحم، وابتغ بذلك وجه الله وإعزاز أمره، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة[(٣)]

---

(١) «الآداب الشرعية» (٢/ ٣١٦).

(٢) «البداية والنهاية» (٩/ ٢٤٤).

(٣) «مقدمة ابن خلدون» (١/ ٣٣٢).

يتعلمون الأدب قبل مخالطة الناس، ويختبرونهم قبل المخالطة

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده -أي منفردًا بنفسه- أو يكون مع غيره، وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة، وكل مخالط ففي مخالطته أدب والأدب على قدر حقه -أي على قدر ما يستحقه- وحقه على قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة.

والرابطة إما القرابة وهي أخصها، أو أخوة الإسلام وهي أعمها، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة، والصحبة، وإما الجوار، إما صحبة السفر والمكتب والدرس وإما الصداقة والإخوة»[١]

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واحذر أن تبادر إلى صحبة أحد منهم إلا بعد أن تختبره في اختلاف أحواله كعزله وولايته له، وغناه وفقره، أو تعامله، أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم، أو تقع في شِدّه فتحتاجه فإن رضيته في هذه الأحوال فاتخذ الأسَنَّ أبًا والأصغر ابنًا والمماثل أخًا»[٢]

وقال الماردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا عزم على اصطفاء الإخوان سبر أحوالهم قبل إخائهم، وكشف عن أخلاقهم قبل اصطفائهم، لما تقدم من قول الحكماء: اسْبُرْ تَخْبُر. ولا تبعثه الوحدة على الإقدام قبل الخبرة، ولا حسن الظن على الاغترار بالتصنع... ثم تقدم من قول الحكماء: من لم يقدّم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس، أثمرت مودته ندمًا وقال بعض البلغاء: مُصارَمةٌ قبل اختبار، أفضل من مؤاخاة على اغترار»[٣]

---

(١) «إتحاف السادة المتقين» (٧/ ١٦٦).
(٢) «أسنى المطالب» (ص:٢٧٤).
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص:١٣٩-١٤١).

يستحيون من الناس ولا يفتخرون عليهم، ولا يواجهونهم بالمكروه

ساق ابن عساكر رَحِمَهُ اللَّهُ عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ قال: خرج زيد بن ثابت رضي الله عنه يريد الجمعة، فاستقبله الناس راجعين، فدخل دارًا، فقيل له.

فقال: إنه من لا يستحي من الناس، لا يستحي من الله (١).

وقال يحيى بن معين رَحِمَهُ اللَّهُ: ما رأيت مثل أحمد بن حنبل، صحبناه خمسين سنة فما افتخر علينا بشيء مما كان فيه من الصلاح والخير (٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن الرجل الشيء -أي المكروه- لم يقل: ما بال فلان يقول؟ يعني لم يصرح باسمه ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ؟». احترازًا عن المواجهة بالمكروه مع حصول المقصود بدونه (٣).

---

(١) «تاريخ دمشق» (٢١/ ٢٣٣)، و«صفة الصفوة» (١/ ٢٥٤).
(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ١٨١)، و«سير السلف الصالحين» (٣/ ١٠٥٩).
(٣) رواه أبو داود (٤٧٨٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٣٦)، وصححه الألباني.

يستنصحون الناس ويستشيرونهم ويشيرون بالخير وإن لم يستشاروا

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمزاحم مولاه: إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عينًا على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلًا لا تحبه، فعظني عنده، ونبهني عليه[(١)]

وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن إبراهيم بن نشيط، عن ابن أبي حسين عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين قيل: ما الحزم ؟ قال: أن تستشير الرَّجُلَ ذا الرأي ثم تطيعَ أمرَهُ وكان يقال: ما هلك رجل عن مَشُورة، ولا سَعِدَ بتَوحّدٍ[(٢)]

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «المُسْتَشَارُ مُؤْتمنٌ»[(٣)]

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه أنه أمين فيما يسأل من الأمور فلا ينبغي أن يخون المستشير بكتمان مصلحة.

وعن وهب بن كيسان: أن ابن عمر رضي الله عنهما رأى راعيًا وغنمًا في مكان نشح -مكان قبيح- ورأى مكانًا أمثل منه أحسن منه فقال له: ويحك يا راعي؟ حوّلها فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «كل راع مسؤول عن رعيته»[(٤)]

---

(١) «المجالسة وجواهر العلم» (٣/ ٦٢).

(٢) «تهذيب الكمال» (١٥/ ٢٠٧).

(٣) رواه أبو داود (٥١٢٨)، والترمذي (٢٨٢٢)، وصححه الألباني.

(٤) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٤١٦)، وصححه الألباني.

الخاتمة

لعل أخي القارئ يشاركني في أن كلام السلف يختلف عن كلامنا، فإن لإخلاص المتكلم تأثيرًا عظيمًا في قوة حجته، وحلول كلامه المحلَّ الأعظم في القلوب والأفهام(١).

وقد قيل لحمدون بن أحمد بن عمارة القصار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما بال كلام السلف أنفع من كلامنا ؟ قال: لأنهم تكلموا لعز الإسلام ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا ورضا الخلق»(٢).

وقال عامر بن عبد القيس: «الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان»(٣).

ولعل القارئ يشاركني أننا نحن الخلف بحاجة إلى إصلاح الأعمال، دون تجويد الأقوال.

وقد قال سلمة بن كلثوم: سمعت إبراهيم بن أدهم عن مالك بن دينار: قال: «تلقى الرجل وما يلحن حرفًا، وعمله لحن كلُّه»(٤).

وقال القاسم بن محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدركت الناس، وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل».

وقال المأمون: «نحن إلى أن نوعظ بالأعمال أحوج منا أن نوعظ بالأقوال»(٥).

وهذا الفارق بين السلف والخلف، هو الذي جعل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

---

(١) «النظرات» (١/ ٢١٨).
(٢) «صفة الصفوة» (٤/ ١٠٩).
(٣) «البيان والتبيين» (١/ ٩١).
(٤) «تاريخ دمشق» (٢٤/ ٩٣).
(٥) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ٦).

«كان من قبلكم أرق منكم قلوبًا وأصفق ثيابًا، وأنتم أرق منهم ثيابًا، وأصفق قلوبًا»(١)

وهو ما ذكره المنفلوطي: حيث ذكر أن جهلة المتدينين الذين يقلدون السلف الصالح في تطهير الثياب، وقلوبهم ملأى بالأقذار والأكدار، ويجارونهم في أداء صور العبادات، وإن كانوا لا ينتهون عن فحشاء، ولا عن منكر، أو كمثل الذين يتشبهون بعمر ﷺ في ترقيع الثياب، وإن كانوا أحرص على الدنيا من صيارفة اليهود(٢)

وما هذا وما قبله بعيد عن قول أبي إدريس الخولاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلب نقي في ثياب دنسه، خير من قلب دنس في ثياب نقية(٣)

فهل أثر فينا كلام السلف البلغاء، لنعمل عمل السلف الأتقياء ؟ فإن من أدبهم وهديهم أنهم يتأثرون بالأقوال ويصححون الفعال قال أعرابي لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ساقتني إليك الحاجة، وانتهت فيَّ الغاية، والله مسائِلُكَ عن مقامي هذا. فبكى عمر، وقال: ما سمعت كلامًا أبلغ من هذا، ولا واعظًا أوجع منه(٤)

وعن عبد الله بن كثير قال: قيل لعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما كان بدء إنابتك ؟ قال: أردت ضرب غلام لي، فقال لي: يا عمر ! اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة(٥)

فتمسكوا رحمكم الله بأدبهم، وإن اختلف زمانكم عن زمانهم، فقد قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والنفس التي تظل معتصمة بالفضيلة على شدة الفقر ووحشة الغربة هي لرجل قوى أمين والمحافظة على حقوق الله تعالى وحقوق العباد، تتطلب خلقًا لا يتغير باختلاف الأيام بين نعمى وبؤسى، وذلك جوهر الأمانة(٦)

---

(١) «البيان والتبيين» (٢/ ٨٣٨).
(٢) «النظرات» (١/ ١٤٥).
(٣) «البداية والنهاية» (٩/ ٤٢).
(٤) «الآداب الشرعية» (١/ ٤٥٢).
(٥) «المجالسة وجواهر العلم» (٢/ ٢٦٨).
(٦) «خلق المسلم» (ص:٤٧).

المراجع

* القرآن الكريم.
* «فتح الباري شرح صحيح البخاري» ـ ابن حجر العسقلاني.
* «شرح النووي على مسلم» ـ النووي.
* «عون المعبود» ـ أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي.
* «تحفة الأحوذي» ـ محمد عبد الرحمن المباركفوري.
* «شرح وحاشية النسائي» ـ السيوطي والسندي.
* «فيض القدير» ـ المناوي.
* «حلية الأولياء» ـ أبي نعيم.
* «سير أعلام النبلاء» ـ الذهبي.
* «تاريخ الإسلام» ـ الذهبي.
* «تهذيب الكمال» ـ الذهبي.
* «تاريخ دمشق» ـ ابن عساكر.
* «صفة الصفوة» ـ ابن الجوزي.
* «سير السلف الصالحين» ـ إسماعيل بن محمد الأصبهاني.
* «المجالسة وجواهر العلم» ـ أحمد بن مروان الدينوري.
* «البداية والنهاية» ـ ابن كثير.
* «الطبقات الكبرى» ـ ابن سعد.
* «طبقات الشافعية الكبرى» ـ السبكي.
* «الذيل على طبقات الحنابلة» ـ ابن رجب.
* «آداب الشافعي ومناقبه» ـ الرازي.
* «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» ـ المزي.
* «تاريخ الخلفاء» ـ السيوطي.

* «فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد» ـ فضل الله الجيلاني.
* «الآداب الشرعية» ـ ابن مفلح.
* «صيد الخاطر» ـ ابن الجوزي.
* «الفوائد» ـ ابن القيم.
* «جامع العلوم والحكم» ـ ابن رجب.
* «جامع بيان العلم وفضله» ـ ابن عبد البر.
* «أدب الدنيا والدين» ـ الماوردي.
* «أسنى المطالب» ـ ابن حجر الهيتمي.
* «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» ـ الخطيب البغدادي.
* «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» ـ محمد بن أحمد السفاريني الحنبلي.
* «روضة العقلاء» ـ محمد بن حبان البستي.
* «العزلة والانفراد» ـ ابن أبي الدنيا.
* «الصمت وأدب اللسان» ـ ابن أبي الدنيا.
* «تبيين كذب المفتري» ـ ابن عساكر.
* «الداء والدواء» ـ ابن القيم.
* «تلبيس إبليس» ـ ابن الجوزي.
* «أضواء البيان» ـ الشنقيطي.
* «تنبيه الغافلين» ـ ابن النحاس.
* «رسالة المسترشدين» ـ الحارث المحاسبي.
* «قصيدة عنوان الحكم» ـ علي بن محمد البستي.
* «إتحاف السادة المتقين» ـ الزبيدي.
* «شعب الإيمان» ـ البيهقي.
* «الزهد الكبير» ـ وكيع.
* «شرح السنة» ـ البغوي.

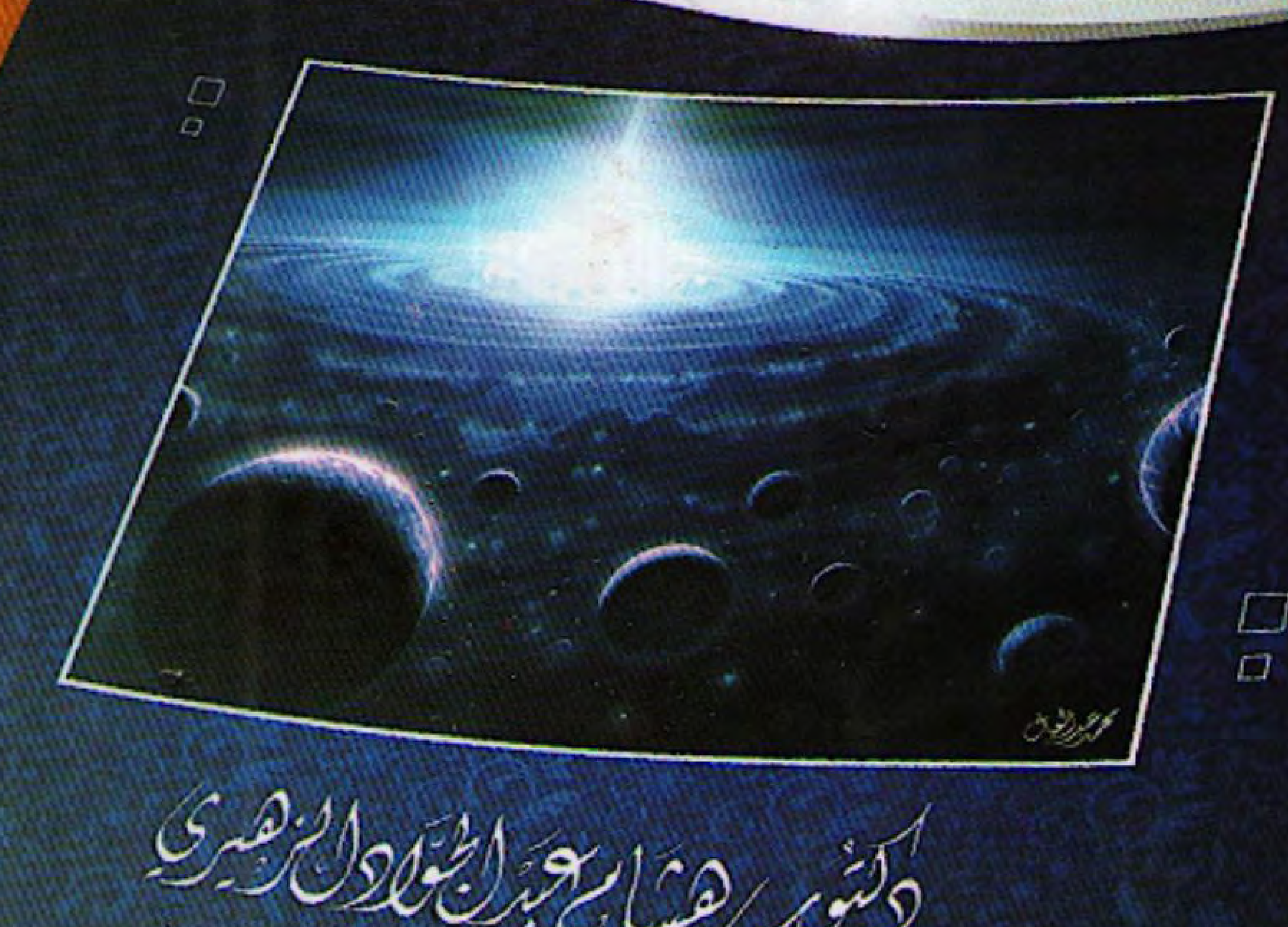
* «البيان والتبيين» ـ الجاحظ.
* «عيون الأخبار» ـ ابن قتيبة.
* «المستطرف» ـ شهاب الدين الأبشيهي.
* «النظرات» ـ المنفلوطي.
* «المحاسن والأضداد» ـ الجاحظ.
* «الأدب الكبير» ـ ابن المقفع.
* «تهذيب مدارج السالكين» ـ ابن القيم.
* «الأخلاق الإسلامية وأسسها» ـ عبد الرحمن حبنكة الميداني.
* «شخصية المسلم» ـ د. محمد علي الهاشمي.
* «خلق المسلم» ـ الغزالي.
* «الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام» ـ محمد بن إسماعيل المقدم.
* «الدعوة إلى الإصلاح على ضوء الكتاب والسنة» ـ محمد الخضر حسين.
* «السلسلة الصحيحة» ـ الألباني.
* «مشكاة المصابيح» ـ الخطيب التبريزي.
* «صحيح سنن أبي داود» ـ الألباني.
* «صحيح سنن الترمذي» ـ الألباني.
* «مختصر منهاج القاصدين» ـ ابن قدامة المقدسي.
* «الاعتصام» ـ الشاطبي.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

تم بحمد الله





دكتور/ هشام عبد الجواد الزهري

دار الخلفاء الراشدين

توزيع



